اسرار وزارة الحرب الالمانية

الدكتور ارمجارد كارل جريفس

الجاسوس الالماني

طبع بمطبعة الاهرام سنة ١٩١٥

اسرار وزارة الحرب الالمانية

(الفصل الاول)

كيف صرت جاسوساً

ان هنالك ثلاثة امور تتعلق بشخصي لاشأن للقارئ بها اولها اصلي ونسبي وثانيها جنسيتي وثالثها مبادئي الاخلاقية وادابي. لا يعرف من انا الا ثلثة احدهم هو اكبر ملك في العالم. ولدى كل من هؤلاء من الاسباب مايمنعه من ان يبوح بحقيقة امري . اني اكره الاحتيال على اثارة الخواطر وتشويق الافكار ولذلك ارغب ان اصرح باني لا اقصد بتكتمي هذا ان اختلق سراً خفياً يتشوق الناس الى معرفته . ان هنالك حكومات كبرى رأت قبلي وجوب الصمت عن ماضي حياتي . وقد سئل المستر مكنا وود وزير اسكتلندا عني في مجلس العموم فرفض ان يصرح بشيء رغم محاولة الاعضاء ان يحملوه على الكلام . فاما ان يكون هذا الوزير جاهلا حقيقة امري او ان تفضيله واختياره جعلاه يفضل الصمت على الكلام

نشأت على عوائد اسرة اشتهر افرادها بالاهتمام بامور وطنهم وخدمته مئات من السنين ولما كنت وحيداً لوالدي ربيت تربية جعلتني لا اصلح لشيء في العالم الا المركز الذي هو لي بحق المولد والذي قضي علي ان لا اناله او اصل اليه ما حييت ...

وقد كنت حراً طليقا افعل ما اشاء واذهب حيث اشاء لذلك رأيت كثيراً واختبرت كثيراً

بدأت حياتي كما تقضي عوائد اسرتنا بالدخول الى المدرسة الحربية والتعلم بعدها ثم ارسلت الى احدى الجامعات الكبرى فصرفت فيها ستة اعوام نلت فيها شهادتي الفلسفة والطب وكانت سني اذ ذاك ٢١ سنة . وقد اشتهرت بولعي باللغات وبموهبة تعلمها واتقانها . ودرست لغة السنغال في مدة ثلثة شهور

ولما عدت من الجامعة الى البيت كان طيش الشباب متغلباً علي وكنت عنيداً وحراً في اقوالي اجاهر بكل ما اشعر به لا اكتم منه شيئاً شأن الشبان في كل زمان ومكان فبدأ يصدر مني من الاقوال والافعال مالم يتفق مع رغائب الذين حولي وجهرت كثيراً

« ايها الدكتور . لديك فرصة ٢٤ ساعة تبرح بها هذا المعسكر » اما سبب هذا الامر الفجائي فلا اعلمه ولعله ناتج عن اشتراكي مع ضباط الجنود الاستعمارية في الانتقاد او اختلاطي الكثير بالكونت ريتزنستين غير اني لما كنت اعرف طباع بطل الخرطوم اسرعت بالخروج من المعسكر اطاعة لامره

وعلمت بعد ذلك ان صديقي الكونت شفي شفاء تاماً ثم اقسم بعين الشرف المعتادة ان لا يعود الى الحرب فارسل الى مدينة الكاب .

وبعد سقوط بريتوريا مللت الاقامة في جنوبي افريقيا فركبت باخرة وعدت الى اوربا . فقصدت برلين حيث اقمت طويلا ومر على وجودي فيها بضعة اسابيع دون ان افكر في البحث عن الكونت ريتزنستين واخيراً ذهبت الى منزله فلقيته يستعد للخروج الى ميدان السباق فتبادلنا التحية ورحب بي كثيراً ثم سألني عما اذا كنت ارافقه الى السباق قائلا لي انه انتظرني طويلا وقد مهد الطريق امامي وانا قد نلتقي ببعض رؤساء الخدمة السرية في ميدان السباق عصر ذلك اليوم . وقبل ان اقبل دعوة الكونت وارضى بالذهاب معه سألته عما اذا كان هناك خطر من ان يعرفني احد لاني لا استطيع مطلقا ان اكون معروفاً بحقيقة اسمي . فاجابني انه لا خوف من ذلك وانه لا موجب لان يعرفني الا فرد واحد . وقد كشف لي المستقبل من هو ذلك الفرد الذي عناه الكونت . فقبلت دعوة الكونت وخرجنا من المنزل معاً وركبنا مركبة من نوع الدوكار كان يسوقها الكونت بنفسه فسارت بنا والكونت في الطريق يحدثني عن شؤوني الخصوصية مظهراً اهتماماً كبيراً بامري وانعطافاً عظيماً نحوي وقد زاد بذلك ثقتي به وميلي اليه واقتناعي بقبول كل نصائحه .

وقد تحقق ما توقعه الكونت حال وصولنا الى ميدان السباق فكان اول من قابلناه الكبتن زور فون تبكين وموظف آخر اسمه هر فون رشتر فقدمني الكونت لهما باسم الدكتور فون جرافر

وبعد ان تحدثت مع الكبتن فون تبكين قليلا عين لي موعداً لمقابلته في مكتبه بادارة المفاوضات في وزارة البحرية . وصرفنا

بقية عصر ذلك اليوم نشاهد حفلة السباق ولم تجر بيننا اشارة اخرى الى الموضوع غير ان الهر فون وشتر وجه الي بعض الاسئلة عن اسفاري ومعارفي واللغات التي اتكلمها وظهر لي من النظرات التي تبادلها مع الكبتن فون تبكين انه راض عما سمع

مضى على هذه المقابلة ثلثة ايام ولم ازر الكبتن فون تبكين خلافاً لاتفاقنا ولما كان اليوم الثالث جاءني خطاب منه يطلب الي ان اذهب اليه في مكتبه في اقرب وقت لان لديه اموراً مهمة يرغب ان يحدثني بها

ما ادارة المفاوضات البحرية فكائنة في بناء « كونجراتزرستراس » نمرة ٧٠ وهو بناء يمثل بكل مظاهره دور الحكومة البروسية . متين ضخم خال من معالم البهرجة والزخرفة الخارجية . يدل كل ما فيه على الكمال والكفاءة ويحيط به الحرس الكثير كغيره من دوائر الحكومة الالمانية ويدقق كثيراً في السماح بالدخول اليه . وهنالك ضابط حرس الباب وواجباته ان يأخذ اسم القادم واسم الموظف الذي يرغب ان يقابله فيسجل ذلك في سجل لديه ثم يبلغ الموظف المطلوب بواسطة التلفون وعند ذلك اما ان يسمح للطالب بالدخول او يرده خائباً واذا سمح للزائر بالدخول يرافقه جندي لا يفارقه حتى يصل به الى الغرفة التي يوجد فيها الموظف المطلوب ويدخله اليها وهذه قاعدة لا تخالف مطلقاً ولو كان الزائر معروفاً وكذلك عندما تنتهي الزيارة يسير جندي بالزائر حتى يوصله الى الباب الخارجي وهناك يسجل اسمه ثانية ويراجع قيد دخوله في السجل ثم يصرح له بالخروج

وبعد اجراء تلك المعاملات الرسمية سمح لي بالدخول بدون تردد فسرت في وسط ثلاث غرف فيها جماعة من الكتبة ووصلت منها الى حيث الكبتن فون تبكين فوجدته جالساً ومرتدياً ثوب البحرية الرسمي . وهنا اذكر امراً تمتاز به دوائر الحكومة الالمانية وهو ان جميع رؤساء المصالح ودوائر الحكومة عسكريون . اما الكتبة وكتمة الاسرار واصحاب الوظائف الصغيرة فملكيون . ويختار الرؤساء من الضباط الذين ينتمون الى عائلات شريفة ويعرفون باخلاصهم للعرش وهؤلاء يديرون الامور وليس بين صغار الموظفين احد منهم وهم يترفعون عن اتيان الاشغال بانفسهم ولا

سيما ما كان منها متعلقاً بالجاسوسية او الخدمات السرية الاخرى

ولما دخلت على الكبتن وقف وهش لي وحياني بلطف وهذا امر آخر من مميزات الضباط الموظفين في دوائر الحكومة [illegible]انية وخصوصاً من كان منهم من ضباط البحرية وهو عكس ما اشتهر عن الموظفين البريطانيين من الصلف الغير المحدود

وبعد ان قدم لي كرسيا ثم سيكارا بدأ الحديث فقال

— هل قررت يادكتور ان تدخل في خدمتنا وتنخرط في سلك موظفينا . انك تجد فيها كل مايسر به محبو الاسفار واقتحام المخاطر . لقد فكرت كثيرا بمواهبك واستعدادك واختباراتك ووجدت انها ستكون جليلة الفائدة لك ولنا .

فطلبت منه ان يوضح لي الواجبات التي تطلب مني في تلك الخدمة فاجاب

— هل ترفض ان تخبرني ما اذا كنت قررت الدخول في الخدمة ام لا قبل ان نخوض معك في هذا الموضوع

ولما رأيت انه محق في سؤاله اجبته اني اقبل الدخول في الخدمة على شرط ان لا يطلب مني ان اقوم بنفسي بتنفيذ عمل يخالف كل الاداب الاجتماعية والمبادىء القويمة

فبدت على وجه الكونت ابتسامة معنوية ثم نظر الي بحدة بصره وقال لي بلهجة الموظف الالماني : —

— اننا نستعمل نفس السلاح الذي يستعمل ضدنا ولا نستطيع ان نحافظ كثيرا على التأثيرات النفسية . ان هناك امورا هامة تتوقف عليها نتائج كبيرة لانستطيع معها ان ندع المبادىء الشخصية والاداب الخصوصية تقف في سبيلنا . ان اول امر يطلب منك عمله ان تحصل على المعلومات التي نحتاجها ونترك لك اختيار الوسائل التي تتبعها للحصول عليها فان ذلك امر لا يهمنا : نحن ننظر الى النتيجة . نخبرك بكل ما نعلمه عن الموضوع الذي نرغب اليك البحث فيه ثم نضع في خدمتك رجالنا ليساعدوك على اغراضك ولكن نحذرك منذ الآن انك اذا وقعت في امر خطير او افتضح امرك فلا نقدر ان ننقذك او نعينك على النجاة . ان هذه الخدمة محفوفة بالاخطار ونحن لا نستطيع ان نتظاهر باية مساعدة

رسمية في اية حالة من الحالات .

هذا ماقاله الكبتن فون تبكين وقد وجدت بالاختبار ان ماقاله صحيح

ولما رايت انه لم يذكر شيئاً عن المكافأة المالية سألته عن ذلك فاجاب

— ان هذا امر موقوف على الخدمات التي تقوم بها ففي بادي، الامر يعطى لك اربعة آلاف مارك راتباً سنويا وعشرة ماركات في اليوم الواحد لنفقاتك الشخصية سواء كنت في مهمة او بدون مهمة وتعطى مكافأة على كل خدمة تقوم بها تقدر قيمتها بحسب نوع تلك الخدمة ودرجة فائدتها ولا يجوز ان تزيد نفقات المعيشة عن اربعين ماركا في اليوم . وتقدر المكافأة على الخدمة الخصوصية قبل الشروع في تلك الخدمة . وهناك شيء آخر وهو ان ثلث الاموال التي لك يحفظ لك كأمانة ويحسب لك عليه فائدة تعادل ٥ في المئة . فضحكت عند قوله هذا وقلت له « اظن اني قادر ان اعتني بمالي الخاص »

فابتسم وقال

— قد يكون ذلك ولكن ليس كل الموظفين الذين في خدمتنا على مثالك وقد اتبعنا هذه القاعدة لسببين الاول ان بقاء المال لدينا يجعل لنا شيئاً من السيطرة على الموظفين والثاني انا وجدنا ان الذين في خدمتنا اذا لم تقتصد لهم شيئاً من المال فهم لا يقتصدون لانفسهم واذا اصاب الموظف مصاب فالمال المتجمع له يدفع لعائلته واقربائه .

على اني ذكرت هذه القاعدة لاعنا لاني عندما وقعت في الاسر في لندن كان لي في بنك الحكومة الالمانية ٣٠٠٠ الف مارك ضاعت كلها ولم اقبض منها شيئاً

وقفت برهة ساكتاً ومفكراً والاميال تتضارب في نفسي ولم يكن امر المال او المكافأة يشغل بالي وانما كنت اشعر بالاشمئزاز لمجرد الفكر ان احد افراد عائلتنا سيكون جاسوسا سافلا . ولما رأى الكبتن حيرتي ظن اني افكر في امر المكافأة المالية فقال :

ان البداءة تكون هكذا ولكن لا حاجة للقول انه كلما ازدادت اعمالك فائدة ازداد اجرك . ان ذلك كله عائد اليك

فاجبته اني قابل بكل شروطه . فابتسم ومد الي يده مصافحاً ثم قال

— لقد كنت سريع البت في الأمر فقصصت نيتك حالا بدون تردد

— هذه عادتي اما أن اقبل الشيء حالا او ارفضه بتاتا

— وهذا ما احبه واعجب به . خاطر سريع وذهن متقد وارادة قوية . انك في حاجة لتدريب كثير حتى تصبح مفيداً لنا فهل انت مستعد ان تبدأ العمل غداً

— ابدأ الآن اذا اردت

— اذن فاحضر غداً في الساعة العاشرة ثم خصص لنا بعد ذلك يومياً ما يلزمنا من وقتك .

ثم نادى احد كاتبي اسراره واسر له شيئاً فغاب قليلا ثم عاد يحمل تحويلا بمبلغ [illegible] ماركاً اخذه الكبتن منه وناولني اياه وقال : هذه نفقاتك الشخصية عن الشهر الاول .

فتناولت التحويل منه وقلت يا كبتن انت وانا غريبان لم نلتق قبل اليوم فهل تخبرني ما الذي جعلك راضياً عني هذا الرضاء .

انه ما تسألني امر لا علاقة له باعمالنا . انا مأمور وعلي تنفيذ اوامر رؤسائي

ولما كنت شاباً محباً للاطلاع قلت :

— من هم رؤساؤك وما هي اوامرهم .

وما كدت انطق تلك الجملة حتى ادركت خطأي ووددت لو لم اتلفظ بها .

ذهبت الابتسامة من وجه الكبتن وغابت كل آثار البشاشة والرقة من محياه وقال لي برزانة وجمود

— يا بني تعلم هذا منذ الآن واحفظه جيداً ولا تنسه . لا تكثر من الاسئلة وكن قليل الكلام واكثر من التفكير وسترى ان هنالك اشياء كثيرة غير مكتوبة تتعلق بالخدمة السرية . ستتعلم ذلك وتصبح مع الزمن ممن يدركون معانيها .

وهذا كان اول درس تلقيته في مدرسة الجاسوسية .

الفصل الثاني

مدرسة الجاسوسية

ان معظم القراء لا يعلمون الا الشيء القليل عن البوليس السري الاوروبي والجاسوسية وقد يكون بعضهم قرأ شيئاً عن اصحاب هذه المهنة في روايات مختصرة

كتبها اصحابها وهم بعيدون عن دوائر
الجاسوسية لا يعلمون من اسرارها الا الشيء
القليل . غير ان هذا الكتاب هو في ظني
اول رواية حقيقية خالية من التمويه وغيره
مما يذهب برونق حقيقتها وما فيها من طرافة
الرجال والنساء الذين يستخدمون في
الجاسوسية والوسائل التي تستعمل للوصول
الى الغايات المطلوبة ثم الاخطار والاهوال
التي تلازم هذه المهنة

لقد رأى الملوك والوزراء وقادة الامم
من عهد موسى الحكيم الذي اوفد جواسيسه
الى ارض كنعان الى عهد نابوليون الذي
كان اول من وضع نظاما خاصا للجاسوسية
ان مصلحتهم ومصلحة اممهم تقضي ان
يحصلوا على اخبار خصومهم بطرق مختلفة
غير الطرق الرسمية . وهم يستخدمون
للحصول على هذه الغاية افرادا مجهولين
وغير معروفين في الدوائر الرسمية . ذلك
لان الموظف المعروف مثل السفير او كاتم
اسرار السفارة او المندوب او المعتمد السياسي
او القنصل لا يستطيع الحصول على ما يرغب
من الاخبار لانه معروف ولذلك فكل
انسان يكون على حذر امامه ويحسب
له حسابا ثم ان مركزه وآداب اللياقة
يمنعانه من السعي بطرق لا تتفق مع كرامة
مركزه للحصول على المعلومات اللازمة

ويوجد في هذا العصر . عصر التقدم
السريع حاجة ماسة للحصول على الاخبار
الحقيقية باسرع الطرق . اذ اوروبا اصبحت
عبارة عن معسكر مؤلف من عدة امم
متعادية الامم تخشى الواحدة منها بطش
الاخرى . ومنذ تبادل عدم الثقة وتباين
المصالح الجأ كلا من المانيا وانكلترا وفرنسا
وروسيا ان تنفق الالوف من المال في كل
عام على التسليح فلما صنعت المانيا بارجة
صنعت انكلترا بارجتين . واذا انشأت فرنسا
دعمت جيشها بعشر اورط زادت المانيا جيشها
عشرين اورطة لكي تبقى القوات على
تناسب واحد

غير ان سرعة الانشاءات ثم اختراع
الاسلحة الحديثة والطيارات وغير ذلك من
معدات الحرب يجعل هذا التناسب او التوازن
في القوات دائم الاضطراب ثم ان هنالك
السياسات المختلفة والمطامع الشخصية
والتدابير التي يقوم بها رؤساء الحكومات
ووزراؤها الا انهم دائما يخشون ان يسبقهم سواهم

في مضمار الاستعداد لان كل حكومة من حكومات اوربا تبذل ما في وسعها لتسبق الاخرى لذلك يراقب بعضهم البعض مراقبة دقيقة وهذه المراقبة لا تتم الا باستخدام الجواسيس من رجال ونساء تدربوا على هذه المهنة وقبلوا ان يتعرضوا للمخاطر التي لابد منها في القيام بمثل هذه الاعمال

***

اما مخاطر هذه الوظيفة فكثيرة ولقد سجنت مرتين مرة في بلغراد ومرة في انكلترا وهوجمت مراراً عديدة ولا تزال آثار الجراح بادية في جسمي . ثم اني نجوت من كلا الامرين مراراً كثيرة . ولم تكن اعمالي كلها مكللة بالنجاح بل اخفقت في كثير من المهام التي كلفت بها وكان الاخفاق مقروناً بالمخاطر غالباً . واني اروي الحادثة الآتية مثالاً لذلك

في فجر اليوم الحادي عشر من شهر يونيو سنة ١٩٠٣ انتهت في الصرب المؤامرة الصربية بقتل ملك تلك البلاد وملكتها وبعض رجال القصر الملكي ولا اطيل الشرح في وصف الفظائع التي ارتكبت لانه لم يكن لي شأن بها وانما اوفدتني حكومتي لابحث واتحقق على قدر جهدي من هم زعماء الحركة والقائمون بها وقد كان المقول انهم الكولونيل ماشين وعصبة من ضباط الفرقة السادسة وظهر ان جميع هؤلاء كانوا مأجورين في خدمة روسيا التي رأت في سلوك الملك وانتمائه للنمسا وتودده اليها خطراً على مصالحها . ومن المعلوم ان معظم الشعب الصربي كان قد اصبح يكره الملك لسيره الشخصي ، ثم للافعال التي كانت تأتيها الملكة دراجا .

سافرت الى الصرب للقيام بمهمتي ولم اكن اعلم الى اية هوة قذفت بنفسي . فبينما كنت جالساً ذات يوم في قهوة البتي باريزيان مع الملازم نكولافتش والمسيو كراستوف احد تجار بلغراد اقبلت علينا فصيلة من الجند بقيادة ضابط وامرتنا بالسير معها الى القلعة فاطعنا الامر صاغرين . وكانت بلاد الصرب في تلك الايام في حالة اضطراب شديد والسلطة كلها بيد الضباط يقبضون على من شاؤا ويعدمون من شاؤا ويكفي اقل الشبهات للقبض والاعدام . بعد محاكمة سطحية امام مجلس حربي اصم .

ذهب الجند بنا الى القلعة وفي صباح

اليوم التالي اخذوا كلا منا بدوره الى غرفة صغيرة جلس فيها ثلاثة ضباط برتبة كولونيل امام موائد حديدية وبعد ان وقفت في تلك الغرفة امام ذلك المجلس برهة لم يوجه الي سؤال ولا خوطبت في شيء . ثم خاطبني رئيس المجلس قائلا : —

« رأى المجلس انك مذنب لاجتماعك باشخاص ثوريين وقد وجد معك جوازاً لا يختص بك لذلك حكم عليك بالاعدام رمياً بالرصاص في فجر الغد »

خيل لي لاول وهلة ان كل ماأراه امامي مزاحاً لا جداً ثم ظننت انه من قبيل الايهام وما لبثت ان رفعت بصري ونظرت الى وجوه الضباط الذين امامي وعيونهم الوحشية فزال كل شك عندي وادركت اني هالك لاصالة ان لم احاول امراً ادفع به الخطر فنظرت اليهم دون ان يبدو علي شيء من علامات الخوف او الوجل او الاكتراث وقلت . —

— ربما تجدون من الصواب ان تخبروا المسيو زولاريفتش (وزير الحربية) ان الكونت ورجرود يبلغه تحياته فاخذ الضباط يتبادلون نظرات تدل على الاهتمام ثم نظر الي رئيسهم ووجه الي عدة اسئلة لم اجبه عليها بشيء سوى هز اكتافي وقولي انه لاشيء عندي غير ماقلته . فاعدت الى غرفة سجني وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر جاءني احد الضباط وقال . ان رسالتك لم تبلغ فان رفيقي عارضا في ارسالها غير ان بيني وبين زولاريفتش بعض القرابة وانا مستعد ان انقل رسالتك اذا ذكرت لي اسبابا تقنعني بوجوب ذلك

فذكرت له بعض الاسباب مما جعله يخرج من غرفتي اصفر الوجه مضطرب الجوانح وقد بدا لي انه سيبلغ تلك الرسالة فجلست في غرفتي مطمئناً انتظر الفرج غير انه لما جاءت الساعة السابعة فتح الباب ودخل جنديان شاكي السلاح واوقفاني بينهما ثم ساراني فشعرت باضطراب شديد وامتقع لون وجهي لاني ادركت الى اين انا مساق في تلك اللحظة . لقد كنت واثقاً بانه لو بلغت رسالتي احد رجال السلطة المسؤولين لا يصيبني اذى غير ان تلك الايام في بلغراد كانت ايام قلاقل وثورات وقد تقع امور عديدة تؤخر الضابط الذي ذهب برسالتي عن ايصالها في هذا الموعد

سار الجنديان بي حتى بلغت رابية مرتفعة الى غربي القلعة فوقها خرائب دير قائم على ما اظن فاوقفت الى جانب قطعة من حائط قديم واخرج الضابط قائد الفرقة اوراقاً من جيبه وقرأ كلاماً طويلاً باللغة السربية . اما انا فظللت صامتاً لا انطق بكلمة حتى اتم القراءة فنظرت اليه حينئذ ورجوت منه ان يتلو ذلك الكلام علي باللغة الفرنسوية او الالمانية لاني لا افهم لغته . فنظر الي مبهوتاً وقال لي انه كان يعتقد اني صربي فاجبته بالالمانية والفرنسوية وبلهجة شديدة ان هناك خطأً كبيراً قد ارتكب وانه لا بد من ان يؤدي المخطي حساباً عنه فظهرت عليه دلائل الارتباك والحيرة غير انه قال :

— ان لدي اوامر علي ان انفذها

فذكرت له امر رسالتي الى وزير الحربية وظللت احادثه راجياً اطالة الوقت وتأخير انفاذ الحكم فمرت خمس دقائق ثم عشر ثم عشرون واخيرا اخرج ساعته وقال انه لا يستطيع التأخير اكثر من ذلك ثم نادى جاويش الفرقة فاخذني الى جانب الحائط واوقفني ثم ناولني منديلا لاربط عيني به فرفضت المنديل قائلا لا حاجة لي به فنادى مرة او مرتين ثم رأيت اثنتي عشرة بندقية من بنادق موزر السوداء موجهة الى صدري . اني لا اكره ان اصف ما شعرت به في تلك اللحظة . واذا قلت الحق بصراحة اقول اني لم اشعر بشيء لاني فقدت الشعور واخر ما اتذكره ان البنادق كانت مصوبة الى صدري . ولا اعلم كم من الزمن وقفت على هذا الشكل . والامر الثاني الذي اتذكره هو منظر ضابطين اخرين يخاطبان الضابط الاول بلهجة شديدة ثم اقتربا جميعا مني وقدم لي احدهم بادب زجاجة من الكونياك لاشرب منها . ومع حاجتي الشديدة لتلك الكأس لم اشربها . وكنت كل الوقت واقفاً وذراعاي مبسوطتان على صدري انظر الى ما حولي ولا ابدي حركة . ثم سمعت احد الضباط يقول للاخر باللغة السربية « تشكاكورات » او ما معناه « ليس جبانا » ولو علم ..

***

واقول الحق اني لو قدرت انه سيقع لي مثل ما وقع ولو علمت بالامور التي اعلمها الان لشككت كثيرا فيها اذا كنت

خرجت مسرورا من ادارة المفاوضات بوزارة البحرية عقب اول زيارة لها والآن اعود بالقارىء الى حكاية دخولي في خدمة الجاسوسية الالمانية

***

عدت الى غرفتي في الفندق بعد مقابلتي للكبتن فون تبكين واخذت بالتفكير .

لم ادخل الخدمة لمجرد الرغبة في اقتحام المخاطر ولا لاسباب مالية فقط . لم يكن المال مطمعي في زمن من الازمان ولن افكر به يوما ما كالعامل الوحيد في حياة الانسان . ولقد كان عندي منه دائما ما يكفي لان اعيش بسرور وراحة بال ولا احرم نفسي شيئا من الضروريات ولا من اكثر الكماليات اما من حيث اقتحام المخاطر فقد اخذت من ذلك كفايتي في حرب البوير وفي سياحاتي العديدة لذلك لم يكن احد هذين العاملين ليدفعني الى قبول الدخول في خدمة الجاسوسية . لقد دخلت هذه الخدمة لاغراض تختلف عن هذه كثيرا — فقد كنت افكر بالتأثير والنفوذ اللذين استعملا لحرماني من مركزي في الهيئة الاجتماعية وهو حق الخاص بموجب كل شرائع العالم ولقد تذكرت الثقة التامة التي كان يظهرها الكونت ريفنتلوف في ان خدمتي في ادارة الجاسوسية الالمانية تكسبني النفوذ الذي فقدته غير اني لو اعطيت عند ما جلست في تلك الساعة في غرفتي افكر في الامر شيئا كافيا من قوة الارادة لما كنت انخرط في سلك الجاسوسية مطلقا . ولكن ابن الاربعة والعشرين لا يدرك ما يدركه ابن التاسعة والثلاثين لذلك لم ادرك في ذلك اليوم حقيقة ما ادركه اليوم عند كتابتي هذه السطور .

بكرت في صباح اليوم التالي سعيدا لعظم امالي بالمستقبل وسرت الى مكتب الكبتن فون تبكين فوصلت الساعة العاشرة تماما وبعد ان اتممت المعاملات الرسمية المعتادة والواجبة على من يريد الدخول في سلك الخدمة التي سبق وذكرتها استقبلني الهر فون ستمر السكرتير الخاص للكبتن فون تبكين وهو رجل فصيح الكلام لطيف وله مقدرة خاصة في استكشاف كل اراء محدثه دون ان يبدي شيئا من ارائه وهو عظيم الخبرة باشغال الجاسوسية واعمال الجواسيس . فلما خلونا معا قال لي :

يجب ان تكون منذ الآن طوع اشارتنا وتحت مطلق تصرفنا وتخصص كل اوقاتك لنا وعليك ان تخاطبنا تلفونياً كل يوم عند الظهر ويجب ان تطلعنا دائماً على محل وجودك لنستطيع مخاطبتك وعليك الانتباه انتباهاً تاماً للقواعد الآتية : —

الصمت التام عن كل ما يتعلق بالمهام التي يعهد اليك بها وعدم التحدث مع احد من صغار الموظفين لجميع مفاوضاتك يجب ان تكون مع رؤساء المصلحة او الذين نرسلك اليهم لا يجب ان تكتب مذكرات ولا تحمل اوراقاً مكتوبة ولا تتناقش مع [illegible] من موظفي الادارة السرية ولا تقابل احداً منهم واعلم انه من الامور [illegible] ان تكون بينك وبين احد هؤلاء صلات مودة وصداقة . وعليك ان تجتنب المشروبات الروحية والمخدرة

ويجب ان تجتنب معاشرة النساء وستعطى ثمرة نعرفك بها وتوقع جميع تقاريرك بتلك الثمرة وتجتنب على قدر الاستطاعة المفاوضة تلفونياً او تلغرافياً . ولا بأس من هذه في الامور المعجلة ولكن في تلك الحالة تستعمل الشفرة (الارقام) التي ستعطى لك

واستمر يسرد علي اوامر ونصائح من هذا النوع حتى جاء الظهر ولما فارقته كنت اظن انى سأدعى لمقابلة الكبتن فون تبكين لارسل في مهمتي الاولى ولكن قضيت اكثر من خمسة اشهر قبل ان اعطى عملا خاصاً اقوم به وقضيت هذه الاشهر الخمسة اتلقى الدرس بعد الدرس في فنون الجاسوسية والعلوم اللازمة

وهذه الفنون تنقسم بوجه خاص الى ثلاثة اقسام فن الطوبوغرافية وقياس المثلثات والانشاءات البحرية والرسم وسبب تدريسي هذه الفنون يتضح من نوع المهام التي كان يطلب مني القيام بها . وقد كنت ادرسها على خبراء معروفين من موظفي الامبراطورية

ا‍ـ الجاسوس الذي يرسل للبحث في احوال حصن كحصن فردون مثلا لمعرفة قوة سلاحه واوجه الدفاع التي فيه يجب ان يعرف كيف يقدر الابعاد والارتفاعات والزوايا وحالة الارض وغير ذلك وهذه امور لا يستطيعها الا اذا تلقى دروساً صحيحة في تلك الفنون . فيجب ان يتقن فن الطوبوغرافية وان يكون قادراً ان يحسب

حسابات صحيحة مستعملا قياس المثلثات ويجب فوق كل ذلك ان يكون رساما ماهراً . وقد وجدت هذه العلوم مفيدة جدا عند ما ارسلت لاستطلاع حالة بورت ارثر

كذلك الانشاءات البحرية فاني قبل دخولي خدمة الجاسوسية الالمانية كنت بلا شك اعرف الفرق بين الطوربيد ومتلفة الطوربيد ولكن لم اكن اعرف بداهة الوصف الحقيقي لكل نوع من انواع المتلفات اومن انواع الطوربيد نفسه. ولما بدأت اتلقى دروسي في هذا الباب كان مدرسي الكبتن كرت ستفنس احد خبراء ادارة المفاوضات في وزارة البحرية فبعد ان تلقيت دروسه مدة شهر واحد اصبحت عالما بكل انواع الطوربيد والنسافات والالغام وغير ذلك من المخترعات التي تستعملها كل دول العالم حتى اني بت اقدر ان اميز نوع الآلة من سماع صفيرها

كذلك تمرنت على معرفة طرق انشاء كل نوع من انواع المدافع البحرية ورايت كثيراً من الالات الحربية شرحت لي دقائقها واوصافها وصرفت في سبيل ذلك اياماً طويلة امام خرائط ورسومات ادارة المفاوضات ادرس انواع الات الحرب واتقنت هذا الفرع حتى اصبحت اقدر بمجرد النظر ان اقول ماهو نوع البارجة او المدمرة او الطراد وما اذا كان طرازه من النوع الشائع في انكلترا او في فرنسا او روسيا او الولايات المتحدة وقد اعتني اعتناء تاماً في تمريني على انواع البوارج الانكليزية بنوع خاص لانه كان المقصود ان يعهد الي معرفة انواعها وتمييزها على ابعاد طويلة .

كذلك عرفت ملابس رجال البحرية في الدول المختلفة وملابس كل رتبة من رتب الضباط وغير ذلك من الامور العديدة وكنت اصرف في دروسي هذه من الساعة العاشرة صباحاً حتى الظهر ثم من الساعة الثانية الى السادسة بعد الظهر — ولم اتلق كل دروسي هذه في برلين بل ذهبت مراراً الى زوغوس وشاهدت المتحف التابع لاركان الحرب العام والى كيل وولهمسهافن وهناك تلقيت الدروس الميكانيكية عن الانشاآت الحربية ولم يشهد لي باتمام دروسي الا بعد ان اصبحت قادراً ان اشرح بوضوح وجلاء كل نوع من الالات وان اعرف القطع التي يؤلف منها المدفع قطعة قطعة . كذلك

الطوربيدوانبوب الطوربيد والالغام

وقد تيسر لي في مدة التمرين على يد خبراء بروسيا فرص كثيرة عرفت بها بالتفصيل والتدقيق ماهي عليه ادارة اركان حرب الجيش الالماني من الاستعداد التام وارجح اني رأيت وسمعت ما هو اكثر مما كان يراد ان يسمح لي برؤيته او سماعه وسأصف عند بحثي في اسرار الاستعدادات الحربية ما شاهدته من آثار العمل الكثير والنفقة الكبيرة التي توصلت بهما الحكومة الالمانية الى الحصول على الاسرار العظيمة عن احوال الدول الاخرى ثم الاستعدادات الحربية الكبرى في المانيا وبلوغها حد الكمال

وقبل ان اختم هذا الفصل واروي حكاية المهمة الاولى التي ندبت لها اريد ان اصف للقارئ بعض الاسرار العامة المتعلقة بالجاسوسية . ان في اوروبا اربع فرق للجاسوسية ففي كل دولة من الدول الكبرى واحدة منها . واكثر هذه الفرق نظاماً وادقها ترتيباً واعظمها كفاءة هي الفرقة الالمانية ثم تأتي بعدها الروسية فالفرنسوية فالانكليزية

وتوجد عدا عن مصالح الجاسوسية الرسمية التابعة للحكومات ادارة اخرى عامة مركزها في بلجيكا وهي بصفة شركة خصوصية تؤدي الاخبار لمن يشاء مقابل دفع الرسم اللازم اوالنفقات بحسب اهمية الامر الذي يطلب معرفته واكثر ما يطلب من هذه الادارة عمله الحصول على التفاصيل الفنية مثل رسوم اختراع مدفع جديد او تفاصيل تتعلق بالحصون او غير ذلك وقد يعهد اليها بمهام اخرى تختلف عما تقدم . ومثالا لذلك اروي الحادثة الآتية

ارادت الحكومة الروسية معرفة اسماء وتشابيه عدد من الثورويين الروس كانوا قد هاجروا الى سويسرا وقطنوا مدينة مونتروز فطلبت من وكلائها في بروكسل البحث عن ذلك فالتجأ هؤلاء الى الادارة البلجيكية المار ذكرها وطلبوا منها اعانتهم في الحصول على مايرغبون فكلفت بهذه المهمة امرأة فرنسوية اسمها بعض الاحيان تريزا بروفست) وقد تتخذ غير هذا الاسم احياناً . وكانت هذه المرأة جميلة ذكية طلقة اللسان بارعة في اتقان دورها ورافقها شاب

اتصف بمثل اوصافها سمى نفسه شارل بروفست مدعياً انه شقيقها

وكان زعيم الثوروين الروس معروفا واسمه كولو كوفسكي وله ولد شاب عمره ٢٠ سنة فبدا للجاسوسة تريزا ان تتخذ هذا الشاب هدفا لها وآلة لاغراضها. وللوصول الى تلك الغاية قرر رؤساؤها في بروكسل ان تمثل دور وارثة مثرية من اهالي كندا. فاعطي لها مبلغ ٥ الاف فرنك لاجل النفقات الاولية وسافرت الى مونتروز مع شارل ممثل دور شقيقها. ولا يزال الذين كانوا في مونتروز في ذلك الزمن يذكرون المقام الذي نالته المثرية الكندية في الهيئة الاجتماعية هناك. واشتهر انها تميل الى الشاب كولو كوفسكي فكانت تمضي اليوم بطوله معه وتم الامر على انهما اتفقا على الزواج. وكان شارل بروفست لا يدخل في امور شقيقته الغرامية بل يمضي اكثر اوقاته يتحدث مع كولو كوفسكي العجوز ويشغله عن حركات ابنه واعماله

وبعد ان توثقت عرى المودة والمحبة بين الوارثة والشاب اعدت تريزا وشقيقها مأدبة فاخرة لكولو كوفسكي وعائلته وجميع اصدقائه. وانفقت على هذه المأدبة مبلغاً وافراً. وكانت النقود تأتيها تباعاً من بروكسل. فسر الشاب كولو كوفسكي بكرم خطيبته اما هي فالحت عليه ان يدعو الى هذه المأدبة جميع اصدقائه دون ان يتخلف واحد منهم — اي بعبارة اخرى جميع الروسيين الثوروويين الذين كانوا في تلك المدينة وكان الشاب واثقاً بان حبيبته الجميلة لا تعرف شيئاً عنهم وعن اميالهم السياسية فجلس الشاب اليها يخبرها باسمائهم وهي تضحك من كثرتها وتنافرها شأن الاسماء الروسية فاخذ قلماً وكتب لها الاسماء كلها واحداً واحداً كي تتمكن من ان ترسل الدعوة اليهم دون ان تخطيء في تهجئتها — وهذه الاسماء هي التي كانت تطلبها حكومة بطرسبرج.

ولما جاء اليوم المعين للمأدبة تجلت قاعة الاكل في اكبر فنادق المدينة مزدانة بالرياحين والازهار وقد مدت فيها الموائد وصفت عليها اصناف الخمور الفاخرة. وبدت تريزا في ثوب جميل زادها جمالا على جمالها حتى سلبت الباب الجميع حتى اكبر الثوروين سناً واكثرهم رزانة. وكان كولو كوفسكي

الكبير ينظر بعين السرور الى الفتاة الجميلة المثرية التي سيتزوجها ابنه . ولما انتهى الآكلون من الطعام وادبرت الحلوى نظرت تريزا الى ضيوفها وقالت لهم انها قد اعدت لهم شيئاً مدهشاً ستباغتهم به فان ذلك اليوم اسعد ايامها واجمل ذكر لذلك اليوم يكون صورة فوتوغرافية شاملة لجميع اصدقائها الجدد . فلم يسر المدعوون لهذه المباغتة لعلمهم ان الصورة خطرة اجداً خصوصا اذا وقعت بيد البوليس السري الروسي فانقبضت اسرتهم وبدت دلائل الاضطراب على وجوههم غير انهم اطمأنوا قليلا وعاد البشر الى وجوههم عندما ادخلت تريزا المصور الماهر وامرته امام الجميع ان يسلم كل الصور حالا ليعطيها لمن كولو كوفسكي الكبير حميها العزيز ليعرضها على من يشاء

فاجتمع المدعوون امام دار الفندق فاخذت صورتهم وكانوا جميعا مسرورين يضحكون وهم لا يعلمون ما يخبئه لهم الغيب .

ولما اتم المصور عمله وطبع الصورة الاولى للتحقق من ان الصورة ظاهرة حسنة سلمها جميعها الى تريزا وفي مساء ذلك اليوم سافرت مع اخيها سرا من مونتروز وبعد يومين من تاريخ تلك المأدبة كانت اسماء الثوريين كلها مكتوبة بخط كولو كوفسكي الصغير وصورهم في قبضة الحكومة الروسية التي اجزلت الجزاء لتلك الجاسوسة الماهرة

وهذه الرواية تكفي مثالاً لاعمال ادارة الجاسوسية في بروكسل

اما ادارة الجاسوسية الالمانية التي اشتغلت بها مدة ١٧ سنة فلها ثلاثة فروع اولها تابع للجيش البري والثاني تابع للبحرية ثم الجاسوسية الشخصية . ولكل فرع من هذه الفروع رئيس ووكلاء وموظفون وجواسيس من رجال ونساء

وفرع الجاسوسية البحرية في المانيا يرأسه الاميرال ستاب ونظامه من اتم نظامات العالم واوفرها دقة وترتيبا

اما الفرع السياسي الشخصي فيدار بواسطة وزارة الخارجية الالمانية ويرأسه الامبراطور نفسه او مستشاره الخاص

والفرع التابع للجيش البري يقتصر في اعماله على الحصول على اخبار سرية بشأن التسليح والتصميمات الحربية والاختراعات وما اشبه ذلك

ويهتم الفرع السياسي بمراقبة الاجتماعات السياسية ومقابلات وزراء الدول ونحو ذلك اما الفرع الشخصي فيديره الامبراطور لاغراضه الخصوصية والخدمة في هذا الفرع هي اهم خدمات الجاسوسية في المانيا

ويؤلف الفرع الشخصي من افراد من جميع طبقات الرجال والنساء فمنهم الامراء والشرفاء والمحافظون والاطباء والممثلون والممثلات وغيرها من النساء على اختلاف طبقاتهن ثم خدمة الموائد والحالون وغيرهم وكل من هؤلاء يفيد في مركزه

وقد يحدث كثيراً انك ترافق مسافراً في عربة واحدة او تجلس مع شخص في بار او في ملهى ويكون ذلك الرفيق من خدمة احدى الحكومات . كذلك الراقصات والمغنيات وخصوصاً اللواتي منهن من اصل نمسوي او روسي يستخدمن كثيراً في الجاسوسية . وهناك راقصة روسية مشهورة برشاقتها وخفة قدمها في الرقص تخدم الحكومة الروسية وتتقاضى منها راتبا سنوياً يبلغ نحو ٥٠ الف روبل . وعند ما تكون هذه السيدة في برلين او سواها من مدن المانيا يحيط بها جيش من الجواسيس والحراس اينما ذهبت

وقد وقع لها مرة حادث ربما لا تزال تذكره ولا يخلو ذكره هنا من فكاهة

كانت هذه السيدة تحمل كيساً ذهبياً في يدها وكان جواسيس الخاصة الالمانية مهتمين جداً بامر هذا الكيس الذهبي .

وكانت هذه السيدة تلعب دوراً مع ضابط صغير من ضباط الذخيرة في حامية بوتسدام ومن المعلوم عن ادارة الجاسوسية الالمانية انها تكره ان ترى علاقة بين ضابط وسيدة . وكان ذلك الضابط قد اهدى الراقصة ذلك الكيس الذهبي في تلك الليلة ليلة رأس السنة فوضعت الراقصة في ذلك الكيس خطاباً كان قد جاءها من الضابط يخبرها فيه بامور خطيرة

جلست تلك الراقصة مع اصدقائها وصديقاتها مساء رأس السنة في بار وكنت جالساً بقربهم فرأيت كل شيء وسمعت كل شيء

وكانت قد وضعت الكيس الذهبي على جانب المائدة فلما شاهد خادم المائدة وكان جاسوساً موضعه اوقع عن قصد كأساً من الشمبانيا كان بقرب الكيس

فحدث اضطراب وخافت السيدة ان يقع الخمر على ثوبها الجميل فانهمكت بالابتعاد عن موضع الخمر وكان الخادم في تلك اللحظة قد جمع غطاء المائدة والكيس في داخله وذهب بهما وبعد ان فتح الكيس بسرعة واخذ التحرير الذي به عاد اليها وقال لها معتذراً :

— اظن هذا لك ياسيدتي اخذته مع الغطاء عند وقوع الخبر

فتناولت الكيس منه مبهوتة وقالت نعم ثم فتحته بسرعة ولما لم تجد الخطاب فيه امتقع لونها وعاودتها ذاكرتها وحدة ذهنها ففضلت ان تفقد الكيس الثمين على ان يفضح امرها فأعادت الكيس الى الخادم وقالت له « لا هذا ليس لي انك اخطأت ولكن هذه الحيلة لم تفدها شيئاً فانها في اليوم التالي كانت خارج الحدود الالمانية .

وتختلف مزايا الجاسوس ومقدرته باختلاف الواجب الذي يطلب منه فامثال خادم المائدة او الحمال لا شأن كبير لهم لانهم ينفذون عادة ما يؤمرون به دون ان يدركوا ماهو القصد من عملهم اما الجواسيس الآخرون الذين يعهد اليهم بالمهام الكبرى ويسلمون اوراقا ذات شأن خطير فهؤلاء يكونون عادة من الافراد المشهورين بذكائهم وطلاقة لسانهم وقوة عارضتهم . وخبرتهم ومقدرتهم على درس اخلاق سواهم .

اما في النساء فالجمال وخفة الروح والاخلاق واداب السلوك ومعرفة العالم وطبائع الرجال هي المزايا التي تلزم للجاسوسة

اما الراتب فيختلف قدره ولكنه غالباً جيد ولا يناقش الجاسوس في ما يضطر الى انفاقه فمسألة المال امر ثانوي . واني اذكر اني انفقت في سبيل مهمة واحدة ماينيف على ٢٠ الف مارك وقد كان راتبي في اخر عهدي بخدمة الجاسوسية ١٠ الاف مارك في العام عدا ٢٠ ماركا في اليوم لنفقاتي الخصوصية عندما لا اكون قائما بعمل اما وقت العمل فهذه القيمة تضاعف او تزيد عن ضعفها عند ما اكون مشتغلا في مهمة .

وعدا عن هذا فان هنالك المكافأة التي تعطى عن كل مهمة وقيمة هذه المكافأة تختلف بنسبة خطورة المهمة وفائدتها . وقد اعطيت مرة ٣٠ الف مارك عن مهمة واحدة نجحت بادائها .

ان الاخطار كثيرة وكذلك الجزاء — اذا اقترن العمل بالنجاح . اما اذا لم يتم النجاح فعلى الجاسوس ان يؤدي ثمن الاخفاق وذلك يكون غالبا بوقوعه تحت الخطر واذا حصل ذلك فلا ينال اقل مساعدة رسمية او غير رسمية ولا يجب ان يرجو اقل مساعدة . واذا طلب مني ان اعطي نصيحة فانا لا انصح صاحب المزاج العصبي ان يدخل خدمة الجاسوسية للتعيش منها . ان اعمال الجاسوسية تكون غالبا شاقة خطيرة ويقوم بها رجال ونساء لا يهابون احدا ولا يخافون من انس او جان.

واني اعرف رجالا ونساء موصوفين بالشجاعة قهرتهم الحوادث وجبنوا امامها . كذلك اعرف كثيرين اختفوا فجأة من الانظار ولم يعلم احد ماجرى لهم فهم اما قبض عليهم او قتلوا ويعزى اختفاؤهم دائما لخصومهم . على اني اذكر على سبيل المثال حادثتين فقط واحدة جرت لرجل واخرى لامرأة . كانت اولغا بردر جاسوسية تخدم الحكومة الالمانية وادارة الجاسوسية في بروكسل ومنذ بضع سنوات نشرت الجرائد خبرا مؤداه ان امرأة اسمها اولغا بردر ماتت منتحرة في فندق في بلدة تمل على الحدود الروسية . اما حقيقة روايتها فهي كما يأتي : —

كانت الحكومة الالمانية قد ارسلت اولغا بردر للحصول على رسوم حصن روسي واتصل بالحكومة في برلين ان اولغا تحصلت على تلك الرسوم غير انها علقت بحب ضابط روسي فابقت الرسوم معها لتحاول ان تجد طريقة لتردها اليه لشغفها به . فكان ذلك ذنبا من ذنوبها والذنب الاخر ان الحكومة علمت انها كانت تعرف معرفة شخصية اربعة من الجواسيس الاجانب وذلك مخالف لنظام الخدمة في الجاسوسية واخر ماعلم عنها من اخبار دانزج انها هائمة بحب رئيس فرقة من فرق الجاسوسية الروسية وانها ستسلمه اكل اسرارهم فكانت نتيجة كل هذه الامور ان اولغا بردر انتحرت والحقيقة ان السم دس لها في طعامها فماتت مسمومة

وهناك حكاية اخرى عن احد الجواسيس الالمان وهو رجل اسمه اللفتننت زانستروف كان ضابطا في الجيش ثم دخل خدمة

الجاسوسية فهذا الرجل قتل في مبارزة .
اما حكايته فهي ان رؤساءه اشتبهوا ان بينه وبين الجواسيس الروس بعض الملاقة وكان ذلك مجرد شبهة لم تثبت ولما كان ينتظر منه نظراً لسابق خدمته ومركزه خدمة كبيرة كذلك كان ذنبه كبيراً ووجب ان يكون عقابه كبيراً . لهذا فالسجن قليل عليه ويجب ان يموت ولما كان قد ترك الخدمة العسكرية واصبح ملكيا فلا تجوز محاكمته سراً واذا حوكم فمحاكمته تكون جهاراً ويسمح له بالكلام والدفاع عن نفسه وهذا لا يتفق مع مصلحة الادارة السرية لذلك راوا ان خير وسيلة للتخلص منه ارسال من يبارزه فبارز الرجل الاول الذي ارسل اليه وقتله ولم يمض زمن قصير حتى جاءه مبارز اخر فتغلب عليه وتخلصت ادارة الجاسوسية منه بهذه الطريقة

اجل كثيرا ما يرى اصدقاء الرجل ومخدوموه ان من مصلحتهم التخلص منه فلا يردهم شيء عن ذلك ما لم يكن ذلك الرجل قد ضمن حياته بوجود اوراق في حيازته لا يتفق ظهورها وكشف امرها مع مصلحة خصومه .

الفصل الثالث

في الشرق

جلست على كرسي على ظهر الباخرة بيرن من بواخر النور دتشرلويد وهي سائرة في عرض البحر ادخن غليوني وافكر في حالتي . وقد كنت تعرفت على المائدة باحد رفقاء السفر البارون هورا ني الياباني وكنت في تلك الساعة انتظر صعوده الى سطح الباخرة ليأخذ مجلسه على كرسيه الى جانبي غير انه بدلا من ان يحضر البارون الذي انتظره جاء ضابطان روسيان من ضباط جنود سيبيريا وكانا يترنحان في سيرهما مما دلني على انهما زارا مائدة الشراب مراراً على اني لم احفل بهما ولا شأن لي معهما ماداما لا يعكران صفوي ولا يزعجانني غير انه لم يمض القليل حتى اخذت اصواتهما ترتفع ارتفاعا مزعجاً فكدت افقد صبري وزاد الطين بلة ان احدهما جاء متهاديا والقى بجثته الضخمة على كرسي البارون التي الى جانبي وجلس عليها يميل ذات اليمين وذات اليسار يحدث رفيقه بصوت عال ويقهقه ضاحكا ضحكا مزعجاً

والكرسي يميل تحته ويشاركه في صريره وفي تلك اللحظة جاء البارون ورجا منه ان يخلي الكرسي فرفض وكان صبري قد بلغ اقصاه فنهضت ساخطا وقلت له

— عجبا . لم تمتلكوا العالم بعد على ما اظن . واستطردت الكلام بلهجة الشدة وقلت له انه اذا وقع منه اعتداء كهذا مرة اخرى فساقابله بكل شدة . ان الروسي لا يأبه بتبادل البطاقات والجري في المنازعة والمبارزة على طريقتها الرسمية التمثيلية ولكنه اذا شعر ان هناك خطرا من تبادل الكلمات في ساعتها يسلك سلوكا مخالفا . فلما رأى شدة لهجتي نظر الي بدهشة وفاه بالفاظ تدل على الاعتذار ثم انصرف فساد السكون .

اما البارون فابتسم ابتسامة باردة وجلس على كرسيه غير اني لم استحسن نظرة عينيه وما كانت تعبر عنه . ولما كنت اعلم ان البارون من اكبر انصار مبدأ الدفاع الشخصي وهو ذو قوة وبأس — فقد نظرته بنفسي وقد رفع يده رجلا ضخم الجثة كالثور وهو رئيس جزاري الباخرة — نظرت اليه وقلت : —

اني اعجب ايها البارون كيف انك لم تقذف بهذا الغليظ الى الجانب الآخر من الباخرة . فاجابني جوابا لن انساه ابدا . قال

— نحن اليابانيين لا نقاتل ما لم يكن هناك شيء وراء القتال . ان الوقت لم يأت بعد .

حدث هذا في طريقي الى سنغافوره وانا بعيد من برلين وموفد للقيام بعهدتي الاولى في خدمة الجاسوسية الالمانية فان ادارة الفاونات عهدت الي ان ابحث عن الاستحكامات والحصون والحياض الجديدة التي انشئت هناك وتقديم التقارير عنها وهذا العمل يتطلب اعتناء دقيقا واحصاءات طوبوغرافية واخذ رسوم وغير ذلك .

وكانت تلك الباخرة مزدحمة بالركاب لان الغيوم السياسية كانت قد بدأت تتلبد في جو الشرق وكان بين المسافرين جماعة من اليابانيين استدعوا على ما علمت بعد ذلك لاجل الحرب . وعند وصولنا الى بورسعيد ركب الباخرة جماعة من الروسيين بعضهم من الضباط قاصدين بور ارثور ودالني وفلادفستوك ولما كان الخوف من وقوع الحرب بين الشعبين كبيرا فقد وجدت لذة

زائدة في مراقبتهم وسماع احاديثهم والمقارنة بينهم .

وقد سمعت كثيرا من الروس اولا . وكنت الاحظ تغييرا كبيرا في سلوك البارون هوراكي معي فانه اخذ من تلقاء نفسه يحدثني عن بلاده وعدد سكانها ومطامعهم وآمالهم وغير ذلك. وكنا نقضي الليالي الطوال جالسين على ظهر الباخرة نتحدث عن امور الشرق ونتبادل الآراء وقد كان لما سمعته من البارون وما عرفته عن اخلاق اليابانيين ودخائل بلاد اليابان اجل فائدة لي في المستقبل . واني آمل ان البارون هوراكي الذي يشغل منصباً عظيما في خدمة الميكادو الآن لا يزال صديقاً لي وهو يحقق املي هذا باهدائي سنوياً غصناً من نبات ياباني اسمه « شورانيو اريكي » يتخذه اليابانيون دليلا على تجديد المودة

انه وان يكن غير مصرح للجاسوس ان يتخذ اصدقاء له الا انه من واجباته ان يتحدث مع رفقاء السفر ويختبرهم لذلك سعيت في معرفة اليابانيين وعلى الخصوص البارون هوراكي وهو من العلماء المطلعين اصحاب الخبرة الواسعة . وكان هذا البارون قوي الحجة شديد المعارضة يخرج فائزاً في كل جدال يخوض فيه او مبحث يطرقه مع محدثه وهذه مزية رأيتها في كثيرين من اليابانيين الذين قابلتهم وحادثتهم . وقد حاولت مرة اومرتين اثناء احاديثنا الطويلة ان ابحث معه في المسألة الشرقية فكان يتلقاني دائماً بتلك الابتسامة الشرقية المعنوية . وقد كنت قليل الخبرة بعوائد الشرقيين واخلاقهم غير ان الايام التي قضيتها على ظهر الباخرة بيرن علمتني كثيراً . ان الطرق الاوروبية لاتفيد مطلقاً في سبرغور الاسيوي الرزين ومعرفة ما يضمره . ولا يدعه يكشف الغطاء عما يعلمه الا الوداد الشخصي او رغبته في اكرام محدثه وجلب السرور له

اما الروسيون فهم على عكس اليابانيين في كل شيء. اولئك صغار الاجسام صفر الوجوه وهؤلاء كبار الاجسام يكثرون من تعاطي الراح وهم كثيرو الكلام يتحدثون كثيراً باحتقار وازدراء عما قد يحتمل وقوعه في الشرق وكانوا يذكرون اليابانيين بقولهم « القردة الادميين الصغار » ولقد كان من حسن حظي ان الباخرة بيرن

تقل كثيرين من ابناء الامتين فاستفدت من ذلك كثيراً وكان ما علمته من البارون هوراكي عن الاسيويين جليل الفائدة لي في سنغافوره وكذلك احتجت عند ذهابي الى بور ارثور الى ما علمته في هذه الرحلة عن الروسيين .

ولما وصلنا الى سنغافوره نزلت في فندق السلام « اوتل دي لابه » المشرف على ميدان البحرية وقد اوهمت اصحابه اني سائح ميال الى الصيد والقنص ولي ولع في الابحاث النباتية فتعرفت شيئاً فشيئاً بكثيرين من الضباط الانكليز ودعيت الى انديتهم غير ان كل ما قدرت ان احصل عليه من المعلومات عن الميناء الحربي الجديد من هذه المصادر كان نظريا وقد تحققت اني اذا اردت الحصول على معلومات عملية يجب علي ان اختلط بالكتبة الوطنيين فانك تجد في جميع املاك بريطانيا في الشرق ان اكثر الوظائف الكتابية ثم الميكانيكية الصغرى هي في ايدي الوطنيين وقد علمت ان الاختلاط بهؤلاء والحصول على شيء مفيد منهم ليس بالامر اليسير بل هو محفوف بالاخطار ولا سبيل الى النجاح الا اذا توصلت الى ان يكون واسطتي الى هؤلاء الكتبة رجل ذو مقام سام ونفوذ بينهم فان تيسر لي التعرف باحد الكبراء الوطنيين الناقمين على الحكومة فقد انجح في الحصول على ما اريد .

وبينما انا ذات ليلة في احد الاندية اتحدث مع بعض الضباط والموظفين في امور مختلفة ذكر احدهم عرضاً ان احد الامراء — والوفاء يمنعني عن ذكر اسمه هنا — جر على نفسه غضب ولاة الامور فقطعت الحكومة راتبه عنه فحمدت الله وقلت هذه هي الفرصة التي اطلبها « ويأتيك بالاخبار من لم تزود » فبدأت من تلك الليلة ابحث عنه حتى علمت المحال التي يتردد عليها ولما التقيت به مرة على رواق فندق البحرية تقدمت منه بادب وسألته عوداً من الكبريت وقدمت له سيجارة من قبيل المجاملة وقد كان عملي هذا شاذاً عن القاعدة البريطانية في الشرق حيث يعد حطاً للكرامة تبادل المجاملة على نسبة واحدة مع الوطنيين وفي هذا الامر ضرر عظيم على سياسة بريطانيا الاستعمارية فان الوطني المتعلم الذي يعد نفسه في درجة الاوروبيين بعد ان تخلق باخلاقهم

وتلق آدابهم يأنف من نظرك اليه نظر من
هو احط منك مقاما وهذا ماكان يشعر به
هذا الشاب المتعلم

وبعد التحدث قليلا في مواضيع
عامة قبلت دعوته الى كأس من
الوسكي ثم الى العشاء في قصره . وتلت
زيارتي الاولى عدة زيارات ولم يمض زمن حتى
اصبحنا صديقين واستحكمت عرى المودة
بيننا . ولما كان قد اعتاد الاسراف والبذخ
وقد قطع راتبه تمكنت من تأدية بعض
المساعدات المالية له ومجاراتي له — بطريق
التحفظ الكثير — في كرهه للحكومة
توصلت الى اقناعه بما اريد وحصلت بمساعدته
وتأثير نفوذه على الكتيبة الوطنيين على
كل ما ارغب الحصول عليه من الرسوم
والتصميمات والصور الفوتوغرافية عن
المركز البحري البريطاني الجديد في تلك
البلاد ولما شعرت ان صداقتي وكثرة
اختلاطي معه قد افتضح امرهما
وكنت قد حصلت على كل ما اريد الحصول
عليه ركبت باخرة من بواخر النورديتشر
لويد اسمها ساشن قاصدا اوروبا . وعند
وصولي الى كولومبو علمت ان الباخرة
البرنس رجنت ليوبولد تمر بها قادمة من
اوستراليا بعد اسبوع ولما كان لدي متسع
من الوقت استبدلت تذكرة السفر وتركت
الباخرة في كولومبو حيث كان لي اصدقاء
عديدون عرفتهم عند ما قدمتها للصيد في
احدى سياحاتي الاولى . فنزلت في احد
فنادق كولومبو الكبرى وكان اول من
صادفته فيها المستر الن مكوجور مدير
اراضي شركة لبتون لزراعة الشاي في
كاندي ونيوارا اليا . وكان مكرجور هذا
صديقا حميما لي لعبت معه لعبة البردج مرارا
في الايام السالفة وخرجنا كثيراً للصيد معاً
واني اود ان ارى وجه هذا الصديق لارى ما
يبدو عليه من الدهشة والتأثير عند ما يعلم
ان صديقه العزيز كان جاسوساً

وبينما كنت استعد للخروج للصيد
مع هذا الصديق اذا بصاحب الفندق قد
جاءني وناولني رسالة برقية غيرت كل ما
كنت قد رسمته لنفسي من الخطط . وكانت
هذه الرسالة رسالة « رقية » من الكبتن
فون تبكين يأمرني بها ان اتوجه حالا الى
بور ارثور لارى ماقد تم من التحصينات
فيها وارسل تقريراً عن حالتها العمومية . وقد

تولتني الحيرة من هذا الطلب لاني لم ادرك اية مصلحة لالمانيا في الحرب الروسية اليابانية التي كان نشوبها متوقعاً . كذلك لم اسر كثيراً بهذه المهمة الجديدة لاني علمت ان اخطاراً كثيرة تحف بها ولاني كنت اظن ان الروسيين كثيرو الشكوك وشديدو الاحتياط ولكن المستقبل اظهر لي انهم ليسوا على شيء من ذلك

***

سافرت لقضاء هذه المهمة منتحلا لنفسي لقب الدكتور فرتز فون كوستنز دكتور في علم التاريخ الطبيعي والنباتات وقد ساعدتني معارفي الطبية على اتقان تمثيل هذا الدور فاذا ذكر هذا الاسم في ما بعد فليعلم القاريء اني انا صاحبه

هذا وقد كان كل انسان — وعلى الخصوص حكومتي الالمانية — يعلم تمام العلم ان الحرب بين روسيا واليابان واقعة لا محالة ولزيادة البيان اقول : ان اليابان غلبت الصين في حرب ١٨٩٥ واخذت منها بور ارثور ثم انها اضطرت بعد ذلك بالنظر لضغط روسيا ومن خلفها المانيا وفرنسا تعضدانها على اعادة بور ارثور للصين . ويلاحظ هنا ان بريطانيا ظلت ساكنة لا تبدي رأياً في تلك الحادثة . وقد كان ملخص الانذار الروسي ان في امتلاك اليابان لتلك البلاد خطراً على السلام العام في الشرق . وكان في هذه الحادثة السياسية اذلال كبير لليابان والشرقي لا ينسى ولا يغفر . فانتظرت اليابان سنوح الفرصة لتثأر لنفسها فجاءت الفرصة عند سلوك روسيا سلوكها المعروف في ثورة البوكسر واخذها بور ارثور وكانت النتيجة وقوع الحرب الروسية اليابانية

ولما وصلت الى بور ارثور نزلت في فندق اوروبا ثم اخذت العدد اللازمة لمباحثي من آلة صغيرة للحفر وشبكة لصيد الفراش وخرجت اجوب التلال التي حول المدينة . واول امر استرعى نظري كثرة الصينيين المستخدمين في كل مكان وعلمت بعد ذلك انهم لم يكونوا جميعاً صينيين وان بين كل عشرة منهم يابانياً متنكراً او اكثر ولم يكن من الصعب على الخبير ان يميز الياباني عن سواه من اولئك العمال

فكان اليابانيون يطوفون في نواحي بور ارثور امام أعين الروس وتحققت صدق ما قاله لي البارون هورا كي على ظهر

الباخرة من ان ابناء وطنه يشتغلون في تحصينات بور ارثور . وقد تمكن هؤلاء العمال اليابانيون من اعطاء معلومات لا تقدر قيمتها للمدفعية اليابانية . كذلك كان عدد كبير من هؤلاء المتنكرين في خدمة الضباط الروس وجميع حمالي محطة السكة الحديدية في ليواتيه شان وخليج بدجون كانوا من اليابانيين . والخلاصة ان ذلك الحصن الروسي كان مملوءا من الجواسيس اليابانيين

واني على ثقة من ان اعظم اسباب فشل الروس في حربهم مع اليابان وسقوط بورارثور يعود الى غفلتهم هذه وعدم انتباه ضباطهم ثم لاعتقادهم جميعاً ان « الانسان القردي الصغير » لن يجرأ على الدخول في حرب معهم

ان بور ارثور مع عدم اتمام تحصينها معقل من اقوى المعاقل . وكانت تصميمات تحصينها عظيمة جداً ولكن معظمها لم يتمم

وقد رأيت اثناء تجولي من أجل ابحاثي النباتية امثلة كثيرة من ذلك النقص فان سلسلة القلاع على تلال شبه جزيرة كوانج تونج والى الجنوب والغرب من دلني كانت جميعها غير تامة . كذلك قسم كوانج لنج من سكة حديد بورارثور ودلني لم ينشأ ما يحميه من هجمات العدو

وقد سهل لي اهمال الروس في المراقبة التجول حيث شئت دون ان التقي اية ممارضة واختلطت كثيراً بالضباط والجنود وبانفاق بضع روبيات على مشروبات « الفودكا » اصبحت معروفاً منهم جميعا وقد علمت منهم ان مؤونة بور ارثور كانت في اسوأ حالة فقد كان فيها نحو مليون و ٤٢٠ الف رطل من الدقيق تطرق التعفن الى اكثر من نصفها ونتج عن ذلك تفشي امراض عديدة بين الحامية .

وفي زمن الحرب كان نحو ٤٥ في المئة من رجال الحامية مرضى بسبب تناولهم اغذية غير صحية . وسمعت ان ٥٠٠ الف رطل من الذرة كانت مصابة بالدود ونحو ٧٠٠ الف رطل من اللحوم المجففة قد تطرق اليها الفساد . اما النساء فكن موجودات بكثرة و كذلك الخمر

ولم ار مكانا في العالم اجتمع فيه من النساء العدد الذي اجتمع في بور ارثور او كثرت فيه مخزونات الخمر كثرتها في بور ارثور وقد شاهدت مرارا ضباط فرقة تومسك الاولى وضباط الفرق السيبيرية

وقد جلسوا يقلبون مسدسات موزر ويتندرون امام مائدة صفت عليها الخمور الفاخرة وقد كان في المدينة اكثر من ٦٠ منزلا للقمار وعدد لا يحصى من الملاهي وقاعات الرقص فيها الالوف من بنات الهوى .

وعند هجوم النسافات اليابانية على الاسطول الروسي كان اكثر من نصف رجال هذا الاسطول سكارى في المدينة بمناسبة احد الاعياد

وقد وجدت محطات نور الاستكشاف وخطوط الالغام في الميناء على اسوأ حال وفي كل محل كان المشاهد يرى دلائل الاهمال والنقص وقد كان كثير من الغواصات طافياً على وجه الماء يدل على مواقع الالغام التي كان يجب ان تكون مستترة وكان نظام الالغام ناقصا نقصا عظيما بحيث تمكن اليابانيون من ازالة كثير منها وهذا الامر يوضح سراً عظيما من اسرار هجوم اليابانيين على بورارثور ويبين السبب في ان اسطولهم لم يفقد في هجومه على الميناء غير بارجة واحدة هي « هاتسو » التي مست لغما

وقد بحثت في طبيعة الارض المحيطة بمدينة بور ارثور وطبقاتها بحثاً مدققا ولذلك لم اعجب ابداً من سهولة سقوط اعظم قلاعها القائمة على أعلى هضباتها وقد كان الجنرال سميرنوف قائد الحصون يبذل غاية الجهد في اتمام التحصين غير ان ما قام بينه وبين الجنرال كوندراشنكو قائد الدفاع العام جعل كل اقتراحاته تذهب سدى .
ان المبالغ العظيمة التي انفقتها الحكومة الروسية على تحصين بور ارثور لو انفقت كلها بامانة لجعلت ذلك الميناء من احصن المعاقل لا يؤخذ ابدا . ولا ابالغ اذا قلت ان اكثر من ٦٠ بالمئة من المال المخصص لتحصين بور ارثور ذهب حيث لا يعلم احد

ولم يكن كل الضباط الروسيين على هذا الحال بل ان بينهم من كان عاقلا يزن الامور ويدرك الخطر المحيق بهم غير ان اكثرهم اعتاد عدم المبالاة بهذه الاخطار .
لقد كانت محطات نور الاستكشاف القائمة في اعالي التلال على اسوأ حال حتى انه في المساء الذي هجم فيه الاميرال توجو هجمته الثانية كانت القوة المحركة للنور مخربة وبدلا من ان ترسل تلك المحطات اشعتها وتنير الفضاء وتكشف البوارج

المهاجمة كان الظلام سائداً . وقد اصلحت هذه الآلات فيما بعد ولكن اصلاحها لم يفد كثيرا فان جواسيس اليابان كانوا يعلمون مواقع هذه الالات كلها وموضع القوة المولدة للنور فارشدوا رجال المدفعية اليها فأمطروها بالقنابل . لقد تحدث الناس كثيرا عن مهارة اليابانيين في تسديد المرمى غير ان الفضل في ذلك عائد الى المعلومات التي ابداها جواسيسهم عن المواقع والابعاد وغير ذلك.

ومع ان القواد والضباط كانوا على العموم مهملين لا يفكرون في شيء الا ان رجال الحامية كانوا من طبقة حسنة بين الجنود ممتازين بالامانة والطاعة .والمعروف عن الفرق الروسية ان رجالها يحاربون حتى يفنوا دون ان يخطر لهم الفرار ببال وقد كان اكثر ضباط حامية بور ارثور اقوياء الاجسام ولكنهم مهملون ومبالغون في الاعتقاد انه لا يجرأ احد على منازلتهم فلم يكونوا يقدرون عدوهم قدره

وقد كان الكولونل ديس قومندان (الذخائر) الضابط الوحيد الذي اختلف عن سواه في هذا الامر فانه كان وحده دون غيره — ولا يستثنى الجنرال ستوسل — يدرك قيمة الخطر وحرج الموقف وقد ذكر امامي مراراً اسفه الشديد للحالة التي كانت عليها ذخيرته ولما سألته لماذا لا تتدارك الحكومة الروسية هذا الامر هز اكتافه وقال لي ان القيصر بعيد عن هذا المكان . وقد ذكر امام كثيرين من الضباط ان عددا كبيرا من اكياس الذخيرة لم يكن فيها نصف وزنها ومعظم مركبات الذخيرة لم يكن فيها اكثر من صف واحد من اكياس البارود وبقية الاكياس كانت مملوءة من الرمل. والنقود كانت تذهب الى جيوب المتعهدين وقد قابلت الجنرال ستوسل مرة فلم ار فيه دلائل الجندي الذكي . فانه كان كبير الهامة قوي العضل . شجاع القلب ولكنه بليد. وقد ذكرني وجهه الاحمر ولحيته الكثيفة برجال البوير اصحاب الاجسام الضخمة والعقول الصغيرة

والطف من قابلت مدة اقامتي في بور ارثور مصور المواقع الشهير فرستشاجن واني افتخر بان اقول ان هذا الرجل كان يدعوني صديقا وقد تيسر لي ان اعين هذا الصديق واعتني به عند ما كان مصابا بالملاريا

فهذه الصدفة واتفاق الاميال والاذواق احكمتا عرى المودة بيننا . ولقد قابلت كثيرين من رجال الاقلام والفنون الجميلة وارباب السياسة ولكن لا اذكر اني اعجبت بواحد منهم من اجل علومه وافكاره الراقية اعجابي بهذا المصور

واني اذكر انا جلسنا مرة على رواق الكازينو المشرف على ميناء بور ارثور العجيب وكان السكون مخيما في ذلك الليل والجو صافياً والنجوم لامعة وسفن الاسطول الروسي الراسي في الميناء تتبدى امامنا كأشباح على وجه ذلك البحر الهادي. وكنا ندخن سجائرنا ونتحادث احاديث مختلفة اخصها عن « الفن » و « القوت » و « الفندال » وقد ظهر لي ان صديقي ذو خبرة تامة وعلم كبير في هذه المواضيع ولما انتصف الليل اردت الذهاب معتذراً لاني اطلت الاقامة فقال لي :

« انك تؤدي لي اعظم خدمة بمجالستي اني قلق هذا المساء واشعر شعوراً غريباً . ان هذه التلال الجميلة ستسمع في وقت قريب دوي المدافع وتشاهد تساقط القنابل » ثم اردف كأنه يخاطب نفسه قائلا : وستدور الدائرة على روسيا ولكني لا ارى ذلك اليوم » ثم نهض واقفاً وعاد الى كرسيه كمن ازعجه حلم مكدر ثم قال « هل تصدق بالشعور ايها الدكتور . اني اشعر باني سألقى حتفي في هذه البلاد » فتأثرت من كلامه وشعرت بقشعريرة لم اكن اشعر بها كثيرا ثم هدأت روعي وقلت له مطمئناً « ان ما تشعر به اوهام ناتجة عن تأثير الحمى التي كنت مصابا بها وتأثير الكينا التي شربتها » فضحك وهز كتفيه وقال « لا شك انك مصيب فيما قلت » وقبل ان انصرف اهداني صورة زيتية لميناء بور ارثور من صنع يده وهي لا تزال محفوظة عندي حتى اليوم .

***

وقد تم ما توقعه وشعر به فرستشاجن فانه مات موت الابطال اذ غرق مع الاميرال مكاروف في بارجته بعد مضي ستة اسابيع على حديثنا المتقدم

اقمت في بور ارثور مدة خمسة اسابيع ثم جاءني تلغراف يأمرني بالسفر وكان ذلك قبل هجوم الاميرال توجو على الميناء بسبعة ايام . وقد كانت الرسالة التي

جاءتني مكتوبة بالارقام امرت فيها ان ابرح بور ارثور لانه يخشى ان تسد في وجهي طريق السفر منها لان الحرب قريبة وانه لمن المستغرب ان ادارة المخابرات في برلين كانت تعلم ان الحرب واقعة لا محالة وفي بور ارثور لم يكن احد يتوقعها لذلك الاوراق الروسية في بورصة نيويورك سقطت قيمتها كثيراً قبل ان يعلن خبر الحرب رسميا بساعات وكان سبب ذلك ان بعض الاخبار عامت من السفارة الالمانية في وشنطون . وبعد ما تركت بور ارثور بسبعة ايام هاجمها توجو للمرة الاولى وعطل البوارج الروسية زارفتش ورتفيزان وبلاد

على اني قبل ان اركب الباخرة من بور ارثور ذهبت الى المستعمرة الالمانية في كيوتشاو وارسلت تقريراً وافياً بالارقام وبعد ذلك بستة اسابيع كنت اتحدث مع رجال اركان حرب الجيش الالماني وقد سمعت مدحا كثيرا وشكرا جزيلا على صدق اخباري ودقة تقاريري وصدق تقديراتي .

***

وقد علمت في ما بعد السبب الذي جعل المانيا تهتم بامر بور ارثور فانها ارادت ان تعلم قوة الدفاع في بور ارثور والمواقف الروسية في الشرق الاقصى للاسباب الاتية

ان الدولة الوحيدة التي من عهد نابليون الكبير كانت المانيا تحسب لها حسابا وتخشى محاربتها هي روسيا فالصدمة التي اصابت روسيا في حربها عام ١٩٠٥ في الشرق الاقصى افقدتها كثيراً من نفوذها في البلقان اما المانيا فانها اقدرت نتيجة الحرب الروسية اليابانية احسن تقدير فسعت في دس الدسائس للنفوذ الروسي في جنوبي الحدود النمسوية وانكسار روسيا في الشرق الاقصى اضعف التوازن الدولي واعطى المانيا والنمسا الفرصة التي تبغيانها والحرية التي كانتا تريدانها في البلقان وتركيا . ولو علمت المانيا بواسطة ادارة مخابراتها ان روسيا ستفوز في حربها مع اليابان لكانت خريطة البلقان على غير ما هي عليه الان كما سترى

الفصل الرابع

في الباب العالي

وصلت برلين عائداً من الشرق

الاقصى يوم ١٠ مارس من سنة ١٩٠٥ فصرفت فيها اربعة اشهر مرت دون ان يقع في اثنائها من الحوادث ما يستحق الذكر .

وفي صباح اليوم الخامس من شهر يوليو تلقيت خطاباً من الكبتن فون تبكين يطلب فيه ان اوافيه في مكتبه فذهبت مسرعاً وسمح لي بالدخول دون امهال فاستقبلني بجنان مضطرب ثم قال

— انا آسف اشد الاسف لانا سنحرم من خدماتك وتفقدك هذه الادارة. فقد طلب مني اولياء الامر في ولهلمستر ان ادعك لهم ومع اني لا اود ان تترك هذه الادارة فلا يسعني الا الطاعة

فابديت اسفي ببعض عبارات متقطعة ثم عاد الى الحديث فقال : —

ارى ايها الصديق انك قد بدأت بان تحسن مركزك وترقي . انه يندر جدا ان يلتفتوا اقل التفات الى احد هنا او يطلبوا منا احدا ولكن اعمالك الحسنة قد الفتت انظارهم . وساطلب ان لا تحرم هذه الادارة من خدماتك وهاهو الهر ستمر سيرافقك الى حيث يجب ان تذهب فاستودعك الله وادعو لك .

ثم انه صافحني بتودد وكان ذلك اخر عهدي بادارة المخابرات الحربية .

ركبت مع الهر ستمر سيارة وتوجهنا الى ولهلمستر س حيث اجرى حارس الباب معي المعاملات المعادة فاخذ اسمي وقيده وقدم ستمر الى الحارس بطاقته فسمح لنا بالدخول الى غرفة حيث امرنا بالانتظار وكانت خبرتي قد زادت فلم اسأل شيئا مع اني كنت شديد الشوق لمعرفة ماقد خبئ لي ثم لم تمض برهة حتى دخل الغرفة رجل طويل القامة نحيف الجسم سار مسرعا الى مكتبه في صدر تلك الغرفة بعد أن رد تحيتنا باحناء راسه ثم التفت الى ستمر التفاتة المستفهم كمن يقول ماوراءك فاجابه ستمر : —

— هذا هو الدكتور جرافس

فأبدى اشارة تدل على الاستحسان ثم قال :

بلغ الكبتن فون تبكين شكري له .

فانحنى فون ستمر باحترام وانصرف ثم اقترب مني احد كتمة الاسرار واخبرني ان ذلك الرجل الطويل النحيل هو جراف

بوذوفون ودلي نائب مستشار امبراطور المانيا . ولم اكن رأيته قبل تلك المرة الا اني كنت قد سمعت به كثيرا فهو مستشار الامبراطور ويده اليمنى ورئيس ادارة الجاسوسية السياسية. فبدأت ادرك مركزي واشعر ان امامي امورا ذات بال وسأبدأ عملا كبيرا وبينما انا افكر في هذه الامور عاد الكونت الى الغرفة ودعاني الى الجلوس ثم نظر الي بامعان وقال

— كم بلغت من العمر ايها الدكتور

وهنا يجب ان اعترف ان مسألة السؤال عن السن كانت تغيظني كثيراً ولكنني قلت في الحال — ٢٥ سنة

— انك صغير . صغير جداً . ثم اعاد النظر الي وقال . ومع ذلك فان عملك قد كان تاماً ومرضياً وقد ابديت حكمة ودراية بتصرفك في جميع الاعمال التي عهد اليك بها. فاحنيت راسي احتراما وشكراً على اطرائه

— انك من هذه الساعة تكون تابعاً لهذه الادارة وستؤتمن على امور خطيرة وتتلقى جميع اوامرك مني رأساً وتقدم تقاريرك الي رأساً ولا يجوز مطلقاً ان تقابل اي موظف او اي شخص مهما يكن مركزه بدون اذني الخاص. افهمت ما اقول

— نعم ياسيدي

— اما ما يلزمك من المال فتطلبه من كاتم اسراري وتقدم حساب نفقاتك شهراً فشهراً والان قل لي متى تستطيع السفر

فاجبته اني على استعداد تام للسفر بعد ساعتين اذا اراد

— ان تعجيلك بالسفر هو ما تقضي به المصلحة والغرض . وهذا بيان ما ارغبه منك . تسافر في الحال الى الاستانة وتبحث لتعلم من من موظفي المابين يخدم مصلحة روسيا او فرنسا . ثم يجب معرفة خليلات اولئك الموظفين والقواد ولاية جنسية ينتمين ولا اعطيك خطابات توصية او ما اشبه ذلك فان هذه قد تدعو الى الاشتباه بك . انك ستكون بين قوم شديدي الحذر فكن حكيما وتأن ولا تعجل في امر فان في تلك البلاد لاتفيد العجلة ولا يتم شيء بها

ولما انتهى من سرد اوامره هذه تباحثنا قليلا في بعض الامور ثم قال .

« ان الرقم الرسمي الذي تعرف به عندنا منذ الان هو ١٧٣٤ فاستعمل الرقم ١٧

في التوقيع على الرسائل السرية الخصوصية التي ترسلها الي واستعمل رقم ٣٤ في التوقيع على التقارير والبلاغات الرسمية

ثم انتقلت الى غرفة سكرتيره لتسوية مسألة نفقاتي الاولى وسائر النفقات اللازمة لهذه الرحلة ثم انصرفت الى منزلي اعد عدتي للسفر وافكر في وضع الخطة التي اتبعها في مهمتي هذه.

ولقد سررت بالانتقال من خدمة الكبتن فون تبكين لاني كنت اعلم اني في خدمة « ولهامسترس » اكون اكثر احتكاكا بالشؤون السياسية العليا. وكان فون تبكين قد اشار الي بان اصحاب الامر في ولهامسترس قد سروا من اعمالي فتذكرت عندئذ حادثة وقعت بعد عودتي من بور ارثور كانت بلا شك سبب التفات نظرهم ورضاهم. اما الحادثة فاني ارويها باختصار.

ان المانيا تراقب جميع ضباطها فاذا لوحظ ان احدهم ينفق ما يتجاوز ايراده يبدأون بتحقيق ذلك حالا. وقد حصل ذات يوم ان رجال ادارة المخابرات لحظوا ان ضابطا من ضباط الذخائر في حامية سبانداو ينفق اموالا طائلة بسخاء عظيم ولما كان هذا الضابط ملحقا في احد معامل السلاح في سبانداو استنتج بالبديهة انه يتحصل على المال الذي يبذره ببيع اسرار يطلع عليها بحكم وظيفته. فندبت للتوجه الى سبانداو والبحث في امره

فذهبت الى سبنداو وبعد ان قضيت بضعة ايام اوالي البحث الدقيق لقيت امراً يختلف جداً عما كان يظن وتحققت ان الضابط بريء من كل خيانة على ان هناك اميرة مفتونة به تبذل له المال بسخاء. وقد اكتشفت اسم تلك الاميرة فاذا هي من اكبر بيوت الامارة فادركت انه لا يجوز ذكر اسمها في تقريري الى الكبتن فون تبكين وان المسألة دقيقة تحتاج الى يرو وتدبير.

وبعد اعمال الفكرة حللت هذا الاشكال بتقديم تقرير الى فون تبكين قلت فيه ان الضابط بريء من خيانة وطنه واكتفيت بذلك ثم كتبت تقريراً خاصاً اودعته حقائق المسألة ودخائلها وارسلته الى من هم اكبر منه مقاما واعظم سلطة ومسؤولية. فبقي بذلك اسم الاميرة مكتوما لم يطلع عليه احد من صغار الموظفين وانتهت المسألة

فكان من جراء حسن تصرفي في هذه الحادثة اني نلت نعمة وحظوة في اعين كبار ولهامسترس فقوي مركزي عندهم وكان ماكان من امر استدعائهم لي والحاقي بخدمتهم .

والان اعود الى امر سفري الى الاستانة فان ذلك كان يحتاج الى استعداد كبير ثم الى ترو كثير في اختياري الزي الذي اتزيا به والصفة التي اتظاهر بها فخطر لي اولا ان ادعي اني سائح ثم عدت فرأيت ان ذلك لا يوافق مطلقاً لان السائح لا يقيم في موضع واحد طويلا وانا كنت اقدر ان اقامتي في الاستانة ستكون من ثلاثة الى اربعة اشهر . كذلك خطر لي ان اكون تاجراً كبيراً ولكن عدت وعدلت عن هذا الرأي لان التجارة تحتاج الى اختلاط كثير ثم الى ايجاد علاقات عديدة في المعاملات وذلك يستغرق زمنا طويلا واخيراً قررت ان اسافر كطبيب او مايدعوه الترك « حكيم » فان الحكيم دائماً موضع احترام واجلال عند الترك والعرب

ولما قررت هذا الامر ذهبت الى ادارة المخابرات السريه وطلبت كتب توصية وتعارف الى المستشفى الالماني بالاستانة والى مستشفى بيرا الكبير فجاءتني هذه الكتب بعد ظهر ذلك اليوم وهي موقعة من جمعيات برلين الخيرية وقد جاء بها اني طبيب ارغب درس الامراض الاسيوية وامراض البلاد الحارة وقد طلب من رجال تلك المستشفيات مساعدتي في ابحاثي هذه

ولما تم لي كل ذلك امرت (كيم) خادمي الزنجي الذي كان قد نما سنا وعقلا واصبح خادما ماهرا ان يجهز معدات السفر لمغادرة برلين باكسبرس الشرق في ذلك المساء ثم جاءني رسول من الكونت فون ودل يحمل بعض الاوامر الشفوية وغلافا مختوما به اوامر خطية ومبالغ من المال واعاد علي ماامرني به من قبل الكونت نفسه من وجوب تجنب الاختلاط بالدوائر الرسمية الالمانية في الاستانة ورجالها . ولو علم الكونت بطباعي ومعرفتي باخلاق الشرقيين وعوائدهم لكفى نفسه مؤونة الاهتمام باعادة اوامره هذه فاني كنت اعرف اخلاق الوسط الذي سأكون بينه تمام المعرفة وادرك وجوب تجنب كل ما يوجد الشبهة في امري . واذا كنت افتخر في شيء فذلك الشيء هو

خبرتي التام باخلاق الشرقيين واهوائهم

ولما جاء موعد سفر القطار كنت في انتظاره على المحطة و « كيم » برفقتي وبجيبي الف مارك نقداً وتحويل على البنك العثماني بالاستانة بمبلغ ٥٠ الاف مارك اودعت فيه باسمي

وقد يعجب بعض القراء من استصحابي « كيم » في مهمتي هذه الى الاستانة غير اني كنت اعلم علماً اكيداً ان وجوده معي يسهل مهمتي كثيراً وقد يعينني في قضائها . فانه كان يعرف اللغة العربية والعبد الذي يعرف هذه اللغة يستطيع ان يعرف كل شيء في بلد كالاستانة كثر عدد السود فيها كثرة عظيمة وقد يجد « كيم » بين خدم كل منزل عدداً من زملائه يستطيع ان يعرف منهم اموراً يستحيل على الاوروبي ان يتوصل الى معرفتها

وصلت الاستانة ونزلت في فندق براسيري كور وقد اخترت هذا الفندق الذي يعد من الطبقة الثانية وهو كائن في شارع عثمانلي لاني اردت ان اكون في موضع بعيد عن مظاهر العظمة كي لا يلفت وجودي انظار احد ولو اخترت فندقاً من فنادق الاستانة العظيمة لكان البحث عني بدأ من ساعة وصولي وكان الناس يتساءلون من هذا الغريب ؟ يظهر انه صاحب مال وان لم يكن المال ماله فمن اين ينفق وهلم جراً واني اعلم انه من الخطأ اثارة شكوك التركي.

ولما كنت غريباً عن الاستانة لا اعرفها من قبل قضيت الاسبوع الاول في التجول فيها ودرس طرقها فقد كان من اللازم لي ان اعرف مواقع دور سفارات الدول ومنازل كبار موظفي المابين وغيرهم

وفي الاسبوع الثاني انتقلت الى غرفة استأجرتها في القسم الذي تكثر فيه سكنى موظفي المابين والحكومة وبدأت ابحث عن المحال التي يترددون عليها ومساكن النساء والمحظيات اللواتي يتردد عليهن اولئك الموظفون وكنت في اليوم التالي لوصولي الى الاستانة قد قدمت الخطابات التي احضرتها معي الى المستشفى الالماني والى مستشفى بيرا وسجل اسمي في الاثنين كطبيب شرف وبدأت من ذلك التاريخ اذهب يومياً واصرف وقتاً معيناً في كل من المستشفيين المذكورين واوقع على دفتر الحضور واني اظن ان توقيعي موجود

اكثر من مئة مرة في الدفترين . ولا غرو ألم اكن طبيبا يدرس الامراض الاسيوية ويجب علي ان اقوم بمباحثي واؤدي واجباتي؟

ثم انتقلت الى منزل في حي بيرا وكان المنزل الذي استأجرته صغيرا مرتبا لطيفا من نوع المنازل التي يقطنها الراقون من رجال الطبقة الوسطى في الاستانة وفي الوقت نفسه يتفق مع مركزي . ولو اتخذت منزلا افخم او اكبر لاثار ذلك القيل والقال والشبهات لانه لا يوجد بلد في العالم كله يسهل فيه اثارة الشكوك والشبهات مثل بلاد تركيا

ان الشاعر الروائي كبلنج الذي يعرف بلاد الشرق تماما وصف بورسعيد بانها بؤرة فساد . ولقد اصاب غير اني لا اظنه زار الاستانة وعرفها كما هي . فان الاستانة قد حوت خليطاً من الناس لم يحو مثله بلدة من بلدان العالم . وليس هناك فقط جنسيات متعددة بل ان الاختلاط في الزواج وتوليد الذرية كثير فيأتي النسل غريبا يصح ان يكون موضوعاً للابحاث العلمية . تصور ايها القارئ رجلا من سكان جبال البانيا متسلسلاً من اصل يوناني يتزوج امرأة غربية من دم فرنسوي فكيف تكون الذرية ؟ هل يمكن ان يكون هنالك وسط يصعب العمل فيه على الغربي الغريب اكثر من هذا الوسط ؟

ولقد وجدت الاستانة اثناء مباحثي الاولى فيها مدينة غريبة في تناقض احيائها واختلافها فالاحياء التي يقطنها العثمانيون الحقيقيون نظيفة الى حد التمام وبديعة النظام في كل شيء اما باقي المدينة — ماعدا الاحياء الاجنبية — فقذر جدا .

ان السائح الذي يزور الاستانة يخطئ كثيرا في خلط التركي الاصيل بالدخيل وبالمهاجرين الذين يقطنون الاستانة . ان العثماني الاصيل لطيف لبق نظيف حسن الهندام ذو هيبة ووقار ورزانة .

ان مهمتي في الاستانة كانت مهمة صعبة جدا ولم يتيسر لي الاهتداء الى الطريق التي توصلني الى ما ارغب الا بعد ان قضيت اكثر من شهر اعمل بجد واجتهاد واتحمل كل المشاق في مراقبة المعيشة في المدينة والاختلاط ببنات الهوى وسواهن — وقد كان اكثر هذه النسوة من الفرنسويات والروسيات والشركسيات وكن جميعا

معروفات لدى رجال المابين العثماني والموظفين

ان العمل الذي اتممته في شهري الاول عمل شاق جدا غير انه لازم حتما لمن اراد الوصول الى الغاية التي كنت اسعى وراءها . وقد يصرف عدة شهور في طريق لا توصله الى غايته . كذلك يجب ان يكون متحفظاً كل التحفظ في ابحاثه ولا يوجد مخاوق في العالم سريع الشك كنت الهوى التي تكون في خدمة سرية لدولة من الدول

وقد كان « كيم » اكبر مساعد لي في عملي ولولاه لما نجحت مطلقا . ان منازل الموظفين العثمانيين مملوءة من امثاله السود وكذلك منازل خليلاتهم . فالرجل الابيض لا يستطيع ان يعلم شيئا والمال لا يفيد كثيرا في اطلاق لسان هؤلاء الخدمة في الشرق غير ان « كيم » بصفته سودانيا مثلهم تمكن بطريقة غريبة مشهورة بين السودانيين من الحصول على معلومات في غاية الخطورة والفائدة لي

وقد كانت خطتي التي رسمتها للعمل هي ان اعرف اسم محظية من محظيات الموظفين الكبار ثم اعرف منزلها ثم اترك معرفة الباقي لخادمي « كيم » . وهكذا كنت اذا عرفت واحدة منهن وعرفت اسمها وسكنها النادي « كيم » واوصيه ان يبحث اولا عمن يزور هذه المراة وهل يأتي الزائر نفسه دائماً وما هي مواعيد زيارته وكم مرة يزورها في اليوم وهل ترد عليها خطابات ومن اين يرد عليها المال وهل لها مورد آخر من خارج الاستانة وغير ذلك مما استطاع معرفته عنها . وكان « كيم » يذهب فيختلط بالخدمة ويعود الي في غالب الاحيان بمعلومات مفيدة .

لحظت ان هناك شابة جميلة اسمها مدموازيل بافيو رايتها تكثر من مرافقة « عبد الله » وهو رجل من اكثر مستشاري الصدر الاعظم نفوذاً وكنت قد علمت من برلين ان الصدر الاعظم في العهد الاخير قد قلب ظهر المجن لالمانيا واعار صوتها اذناً صماء — وكانوا في ولهامستراس يعلمون ان فرنسا وروسيا تعملان في الخفاء ولكنهم يجهلون نهاية الطرق وهذا ما ارسلت خصيصاً لاكتشافه —

بدأت عملي بارسال « كيم » الى منزل هذه المراة ليبحث عما اذا كان عبد الله يزورها فيه واوصيته ان يعرف مواعيد

زياراته والوقت الذي يقضيه معها كل مرة

ان مجالسة عبد الله لها في المحال العمومية قد لا تكون دليلا على شيء فان امثالها دائماً يلتف حولهن عدد من الضباط والكبراء العثمانيين فذلك يدخل ضمن عملهن . وطريقتهن في السير هي ان يسحرن الضباط الشبان والموظفين ويتحببن اليهم ثم بعد ان يكتسبن منهم مبلغا من المال يبحثن عن غيرهم وقد لاحظت مدة وجودي في الاستانة ان المال الذي ينفقه الضباط على امثال هؤلاء النسوة عظيم جداً بالنسبة لرواتبهم وايرادهم وهم لا يترددون مطلقا في مشترى المصوغات باثمان باهظة لاهدائها الى امثال هذه المراة . وليس من الصعب معرفة النتيجة فانه لا يمضي زمن حتى يجد الضابط نفسه مدينا بمبلغ عظيم من المال فلا يجد امامه الا احد امرين اما ان يفي دينه او ينقل الى احد البلدان النائية ويفارق الاستانة وملاذها وملاهيها. غير ان التركي الذي اعتاد معيشة الاستانة يفضل الانتحار على تركها . فعند ما يقع الضابط في مثل هذه الورطة تأتي المراة وتدفع عنه الدين مشترطة معرفة بعض اسرار الحكومة ثمنا لعملها هذا لذلك قد يكون عبد الله احد هؤلاء الناس

ذهب « كيم » في مهمته وتعرف بخادم مدموازيل بلنيو فلم يمض زمن حتى عرفت ما اريد فاحضر لي قطعاً من خطابات اعطاه اياها خادم مدموازيل بلنيو ونقل الي الاحاديث التي تسقطها خدمها من حين الى آخر واخبروه بها فدلني كل ماسمعته على اني قد اهتديت الى العامل الاعظم في تلك الدسائس التي كنت ساعياً في اكتشافها وذلك العامل هو المدموازيل بلنيو . ولما كان الشخص لا امل له بمشترى السر منها عزمت على البحث لمعرفة الشخص الذي يستخدمها ويمدها بالمال في عملها . فذهبت ابحث عن صديقاتها وعشيراتها

ولما كنت قد رايت مدموازيل بلنيو عدة مرار برفقة شابة اخرى سمراء اللون ترقص في ملهى اسمه «فولي اراب» عزمت ان اتقرب من هذه الشابة فعلمت ان اسمها سيسيليا كورسان ثم بدات اتردد كل يوم على ذلك الملهى

ان هذا الملهى يختلف كثيرا عن امثاله من الملاهي الانكليزية او الاميركية .

تصور ايها القاريء ناديا متسعاً فرشت ارضه بنفيس السجاد وقد جلس حول ذلك البهو المتسع عدد كبير من الضباط والموظفين الاتراك هذا متكيء على ديوان وذاك جالس فوق كرسي صغير وذلك يدخن في غليون والاخر بنرجيلة وقد قامت النساء حولهم يبسمن لهم . هذه تركية يبرقعها الشفاف وملابسها الحريرية الناعمة وتلك باريزية قد ارتدت ثوبا على احدث زي باريزي . وهنا ضابط بثوبه المقصب وقد اختلط احمره بازرقه وهناك الباني طويل القامة وقد تدلى الى جانبه زوج من المدى الذهبية المفضضة والمسدسات المزخرفة . وبعبارة اخرى تصور مجلساً من المجالس التي جاء وصفها في روايات الف ليلة وليلة وكفى

ولما ترددت على هذا المكان يوماً بعد يوم ادركت ان الشابة قد اعتادت التحبب اليها من كل من في المكان فاصبحت تستقبل الابتسامات ولا تحفل بها ولذلك عزمت على ان اعاملها بالبرود البريطاني لاسترعي نظرها فلم اخطيء في خطتي هذه لان الراقصة الجميلة ساءها ان يكون في الملهى رجل لا يحفل بها ولا ينظر اليها

ففي ذات ليلة اقتربت مني وخاطبتني بالافرنسية فابتسمت لها وتظاهرت باني لا افهم ما تقول فتكلمت باللغة الالمانية فتظاهرت كذلك بعدم فهمها واخيراً لجأت الى مخاطبتي بالانكليزية وكانت تتقن الكلام بهذه اللغة وظهر لي بعد ذلك انها اقامت في لندن زمناً طويلا

وهكذا بدأ الحديث بيننا واخذ التعارف يزداد يوماً فيوماً . وفي ذات ليلة جئت الملهى فوجدتها تستشيط غيظاً لنفور وقع بينها وبين مدموازيل بلينو وبينما انا احاول ان استفسر منها عن سبب كدرها اقترب ضابط تركي قد امتلأ رأسه خمراً والقى اليها عبارة باللغة الفرنسوية ساءني سماعها فاستأت منه واجبته باللغة نفسها ان لا شأن له معها والاولى ان يتركها وينصرف وبعد جدال قليل دار بيننا باللغة الفرنسوية انصرف ذلك الضابط معربداً مهدداً فنظرت الي سيسليا بعد انصرافه نظرة استغراب ثم قالت

ظننتك لا تعرف اللغة الفرنسوية واذا بك تتقنها اتقاناً تاماً ولهجتك باريزية فادركت عند قولها هذا خطأي واني قد

فضحت امري بيدي . ثم اتمت حديثها وقالت انها تشعر بانقباض وقدمات الجلوس في ذلك الملهى واقترحت علي ان استصحبها في عربة للنزهة فوافقتها على ذلك وخرجنا

وبينما نحن في العربة قلت لها : —

— هل انت مسرورة بهذه المعيشة الا تجدين مضايقة امثال هذا الضابط مما لا يطاق .

فظهر عليها الاستياء وقالت : —

— لقد اعتدت هذا . واني لا اجد الجاف العثماني اثقل روحاً من الانكليزي والالماني

وبعد ذلك المساء كنت اخرج معها كل يوم بعد انتهاء دورها في الملهى ونذهب لنزهة طويلة في العربة وكنت اجمع ما اسمعه منها من الحديث الى ما يبلغني اياه «كيم» فادركت ان تلك الشابة لا تقيم في الاستانة تحتمل ما تحتمل من تحرش الضباط لمجرد الرغبة فيما تكتسبه من مالهم فعزمت ان امثل الدور الثاني من روايتي معها فانقطعت فجأة عن الملهى بضعة ايام

فبعد تلك الغيبة ارسلت تستدعيني فذهبت اليها فوجدتها قد اعدت اهبتها للسفر فبادرتني بالحديث قائلة :

— لماذا انقطعت عن الحضور الى الملهى في الايام الاخيرة

فاجبتها بان كثرة اعمالي في المستشفى حالت دون حضوري

— انا مسافرة الى باريس . . . . فما قولك ؟

— ان هذا امر يسيئني جداً

— أهذا فقط ؟

— لو قلت غير هذا لزدت في اثارة آلامي يا عزيزتي سيسيليا

— لا حاجة بنا الى التكتم . لماذا لا نجعل هذه الفرصة فرصة سعيدة . لماذا لا تأتي معي الى باريس . قالت هذا ونظرت الي بابتسامة واطراق

— ايتها العزيزة الصغيرة . انا لست رجلا غنياً كما تعلمين ولا استطيع ان اصرف وقتي في التنقل من مكان الى مكان في اوربا وعدا ذلك فان لدي عملا هنا في المستشفى لا ينتهي قبل شهر كامل

فبدت على ملامحها دلائل الكدر ثم نظرت الي بتمعن وظهر التغير على وجهها وخاطبتني بعبارة جدية قائلة [illegible]كية .

— ان رجلا مثلك يأنف أن يضيع اوقاته سدى في زوايا مستشفى كهذا بالنظر لمعارفه وخبرته الواسعة . ان معارفك هذه تجعلك نافعاً جداً لرجل اعرفه في باريس

فشعرت بما سيتلو قولها هذا غير اني طلبت منها ان توضح غرضها . فكان ما قالته لي انها عرضت علي رسمياً ان انخرط في سلك خدمة فرنسا السرية . سمعت اقوالها واني اعترف باني لقيت مشقة في محاولة اخفاء عواطفي ومنع نفسي عن الاغراب في الضحك . ثم طلبت منها باهتمام ان تزيدني ايضاحاً عما تعلمه عن تلك الخدمة وشروطها فاخذت تشرح لي ذلك وتريني الخطابات التي لديها من باريس فعلمت من عنواناتها وتواقيعها اسماء الاشخاص المشتركين في العمل ضد النفوذ الالماني باستخدام نساء مثل مدموازيل بلنيو ومن على شاكلتها . كذلك استنتجت انسيسيليا كورسان هي الواسطة بين الحكومة الفرنسوية ومدموازيل بانيو وهكذا تابعت الحديث معها مظهراً ان اقتراحها يهمني كثيراً . واستوضحتها اموراً كثيرة كان يهمني الاطلاع عليها

ثم تظاهرت بالاهتمام بامر المكافأة المالية التي قد تعطى لي لو قبلت الدخول في خدمة الجاسوسية الفرنسوية . فاكدت لي اني انال مكافأة حسنة والحت علي بالاسراع في السفر الى باريس . فاجبتها باني عندما انهي عملي في المستشفى اتبعها فاوصتني بان ارسل اليها ما يرد باسمها من الخطابات بعد سفرها فعملت بوصيتها ولكن بدلا من ان ارسلها اليها ارسلتها الى ... وطمسترس

ان هذه الحادثة هي واحدة من الحوادث التي لا افتخر بها وقد مرت بي في مدة خدمتي بالجاسوسية — على اني كنت اجد ما يريح ضميري قليلا بالاعتقاد ان سيسيليا كورسان لم تكن امرأة يجب ان اسلك معها سلوك الرجل نحو الجنس اللطيف بل هي موظفة سرية لدى حكومة غير حكومتي والامر بيني وبينها على غير ما يكون بين الامرأة والرجل . وبهذا التعليل اسكت صوت الضمير في سلوكي معها

***

وبعد مرور نحو ثلاث سنوات على الحوادث المار ذكرها قابلت هذه المرأة في احدى قهوات انفرس الصغرى وكانت قد

تركت خدمة الحكومة الفرنسوية . فاستنتجت ان الخطأ الذي ارتكبته في الاستانة في ركونها الي ادى الى سقوطها ووصولها الى تلك الحالة . وكان من حسن حظي انها لم تعرفني ولما رأيت انها في ضيق شديد وجدت طريقاً لمساعدتها والتكفير عن ذنبي نحوها وذلك باعانتها بمبلغ ٥٠٠ فرنك ارسلته اليها بامضاء مستعار

والآن اعود الى مهمتي في الاستانة فاقول .لما تم لي اكتشاف جواسيس فرنسا في الاستانة ومعرفتهم ومعرفة من يدير حركتهم في باريس نفسها عمدت بكل ترو واحتراس الى التعرف بالضباط العثمانيين رجاء ان اعرف الاميال السائدة بينهم

قابلت ضباطاً وتجاراً وحكاماً وطلبة علم واستنتجت من احاديثي معهم انهم قد ملوا الدسائس السائدة في الاستانة وعرفت كذلك باستياء رجال تركيا الفتاة من الحالة العامة وانهم جميعاً يعتقدون ان الوقت قد حان لقلب الحكومة . فذكرت كل ذلك في التقارير التي كنت ارسلها الى برلين وابديت رأيي في الامر وما اقدر وقوعه ملفتاً النظر الى انور بك الذي كان قد بدأ بالظهور وكان الصدر الاعظم يحسب له اكبر حساب . فابعد الى مكدونيا بسبب آرائه الحرة غير اني علمت من جميع الضباط ان له مقاماً سامياً بينهم

ولا شك عندي ان تقاريري مع تقارير فون درغولتز باشا منظم الجيش العثماني ساعدت وزارة الخارجية الالمانية كثيراً في رسم خطة لسياستها

وقد ظهر لي كذلك ان السلطان عبد الحميد لم يكن سوى آلة صماء وان الصدر الاعظم قد باع نفسه لفرنسا وروسيا فهو يدير الحكومة على عكس اغراض المانيا مقاوماً نفوذها ما امكن .وان للنساء اللواتي في خدمة فرنسا وروسيا تأثيراً عظيماً في نفوس كبار الموظفين يستخدمنهم لتنفيذ اغراضهن .وهذه الامور جميعها ذكرتها في تقاريري وبعد ان قضيت اربعة اشهر في عاصمة آل عثمان عدت الى برلين

ولكي يتيسر للقاريء ادراك الغرض الحقيقي من مهمتي. اوضح بعبارة وجيزة الحالة السياسية في الشرق الادنى في ذلك الحين ..

ان السياسة الحديثة التي اتبعتها المانيا

في شرقي اوروبا والتي وضع قواعدها بسمرك لمقاومة نفوذ روسيا كان اساسها التودد الى الاتراك واكتساب صداقتهم وثقتهم وذلك لاسباب بديهية ستتضح فيما بعد. وقد حصل بعض الفتور في العلاقات بين الحكومتين على عهد المستشار كابريفي غير ان الامبراطور غليوم الثاني ادرك بعد نظره في الامور الخطأ في ذلك وسعى الى تلافيه. فسافر مع قرينته الامبراطورة لسياحة الى فلسطين مبتدئاً بزيارة السلطان في عاصمته. فاستقبل استقبالا عظيما في البلاد الاسلامية سيبقى مسجلا في بطون التاريخ. وقد كان عمل الامبراطور هذا صفقة سياسية رابحة مع ان كثيرين انتقدوا ذلك العمل في وقته

ان فرنسا كانت حتى عهد تلك الزيارة تعد نفسها صديقة للاسلام. غير ان ذلك تغير من تاريخ تلك الزيارة. فان نتيجة زيارة الامبراطور الاولى كانت سبب وجود التفاهم التام بين «ولهامسترس» والباب العالي وظهرت على اثر ذلك حركة غير اعتيادية في مشترى المدافع الالمانية وذخائرها واقبال عظيم على البضائع الالمانية على اختلاف انواعها ثم استخدام ضباط من البروسيين لتدريب الجيش العثماني وتنظيمه

فاتقدت بذلك نار الحسد في قلب فرنسا وروسيا على ان بريطانيا العظمى ظلت على الحياد التام لاتبدي اقل اهتمام في هذه الاحوال السياسية

ان انكلترا انفقت اموالا طائلة وبذلت كثيراً من مهج رجالها ولاسيما في حرب القرم لتبقى روسيا بعيدة عن تركيا ولذلك لم يكن من مقتضى سياستها تعضيد النفوذ الروسي والفرنسوي في المابين الهمايوني. ومن المعلوم ان روسيا اقدمت على حروب كبرى من عهد كاترين الملقبة بالعظيمة رجاء ان تكون صاحبة السلطة على مضيق الدردنيل..

ان الدسائس كانت ولم تزل كثيرة جداً في الاستانة فدسائس المانيا قضت على النفوذ الروسي في تركيا وآسيا الصغرى وقد حاولت روسيا كثيراً بعد النكبة التي اصابتها في حرب اليابان ان تستعيد نفوذها في الشرق الادنى متخذة حكومات البلقان الصغيرة آلة لاغراضها وسترى تفاصيل ذلك كله فيما يلي

اما المانيا (وهذا يشمل النمسا دائماً

لان سياسة الحكومتين واحدة إلا انها رأت ان النفوذ الروسي والفرنسوي يزداد نمواً وتمكنت بواسطة ادارة نظاراتها المنظمة ان تعرف زعماء تلك الحركة وهم الصدر الاعظم وبعض موظفي الباب الذين كانوا اصحاب نفوذ عظيم لدى عبد الحميد

فبعد زيارتي للاستانة علمت الحكومة الالمانية ان الوقت قد جاء لاحداث تغيير عظيم فسعوا لاتمامه. وكانت النتيجة ثورة رجال تركيا الفتاة وفي مقدمتهم انور بك وتوفيق باشا وابرهيم منذر وامثالهم من الشبان المتربين تربية المانية محضة يديرون حركاتها . فاستعادت المانيا لنفسها اعظم نفوذ في تركيا . وسأبحث في فصول تالية في تأثير هذه الحوادث في السياسة الاوروبية العامة .

الفصل الخامس

﴿ خطاب الغراندوق ﴾

شعرت بعد القيام بمهام عديدة بانحطاط عظيم في قواي فاني كنت قد اصبت في حرب البوير برصاصة اخترقت رئتي اليسرى فبدأت عقب الضعف الذي اصابني اشعر ببعض نتائجها . فاصابني نزيف شديد بسبب تعرضي الكثير للبرد القارس اثناء اسفاري واضطررت ان الجأ الى استشارة الاختصاصي الشهير الاستاذ باير اشهر طبيب في برلين فاشار علي ان انقطع عن كل عمل مدة شهر كامل على الاقل ووصف لي هواء احراج الصنوبر.

ان احراج الصنوبر كما لا يخفى كثيرة في المانيا ونروج ولي اصدقاء كثيرون في البلدين كل منهم يسر ان يضيفني في اي وقت والى اي اجل غير ان قبولي ضيافة احدهم يضطرني الى امور كثيرة واجبة على من يختلط باهل الهيئة الاجتماعية الراقية بينما كنت ارغب ان الجأ الى مكان منفرد اتمتع فيه بالسكون التام والراحة الكاملة والانفراد الكلي . وبعد ما فكرت طويلا تذكرت صديقين استطيع ان اتمتع عند نزولي في ضيافة اي منهما بحريتي التامة . وكان احدهما يقطن مدينة بورتا في هنغاريا

غير اني كنت ارجح انه غائب في الصيد في بلاد بعيدة لانه مولع بذلك كثيراً وزد على ذلك ان هنغاريا بعيدة . اما الثاني فكان صديقاً حميماً لي عرفته من ايام المدرسة

وهو يقطن فرستنولد على بعد نحو ٥٨ كيلو متراً من برلين لذلك عزمت ان اذهب اليه فان بلدته مع انها قريبة من برلين فهي ساكنة هادئة يتمتع المقيم فيها بكل مزايا الانفراد والوحدة . وهي واقعة في احسن احراج بروسيا واكثرها اتساعا. وهكذا توجهت الى اهرنبرج وهي مركز عائلة صديقي فون اهرنبرج

قضيت ثلاثة اسابيع عند صديقي في سكونوراحة وقضيت بعض وقتي في صيد السمك والقنص واكثره في الاستراحة تحت ظلال الاشجار الباسقة وما كاد الاسبوع الثالث ينتهي حتى جاءني ساعي البريد بالخطاب الآتي

« عزيزي جريفس

« املي ان تكون صحتك قد تحسنت تحسناً كافيا تقدر معه ان تعير الامر الاتي الفاتك . وارجو منك قبل كل شيء ان تتأكد ان خطابي هذا ليس امراً رسمياً . غير اني لا ارى حاجة لان اصف لك الفوائد التي تنالها انت بمساعدتك في هذه المسألة . وهي بوجه الاختصار كما يأتي : لقد رجاني الغرندوق.. ان اساعده في امر شخصي يهمه كثيراً ومع ان هذا الامر يخرج عن دائرة اعمالنا الرسمية فاني اجد من الواجب والمفيد ان نساعده فيه . ان المهمة دقيقة تحتاج للسفر الى انكلترا ولاجل هذا قررت ان ارجو منك القيام بها اذا رغبت . واذا قبلت تعطى لك الاجازة اللازمة ثم اني اعيد القول بان هذا ليس امراً رسميا مني اليك ولكني اكرر القول اني استنسب قبولك . هذا وارجوك أن تقبل تحية المخلص

فون ودل

قرات خطاب الكونت ولما كانت راحة الثلاثة الاسابيع قد افادتني اكثر من كل اطباء برلين . وكنت قد بدأت امل الوحدة واضجر من الخلوة التي انا بها وقد فهمت من خلال سطور الكونت فون ودل ان هناك املا بان انال مكافأة حسنة قررت القبول وكتبت له اني اقوم بالمهمة بشرط ان تكون من نوع استطيع القيام به فاني كنت الى تلك الساعة اجهل نوعها . وكنت اعلم انه ليس من اللائق ان اسأل عن الامر وادخل في خصوصيات الدوقية

واني اقول بهذه المناسبة اني افضل السفر الى البلاد الخارجية مراراً في مهام

سياسية عن ان اتداخل في شؤون العائلات المالكة الخصوصية

وبعد مرور يومين على ارسال خطابي جاءني كتاب آخر من فون ودل يطالب به مني ان اكون في .... في يوم عينه

فاستأذنت اصدقائي وشكرتهم على حسن ضيافتهم وسافرت الى عاصمة الدوقية فاستقبلتني على المحطة مركبة من مركبات الفرندوق ثم سارت بنا الى قصر الفرندوق. ولما بلغناه ادخلت الى قاعة بسيطة وما انتظرت الا القليل حتى دخلها رجل تدل ملامحه على العظمة والكمال . فعلمت من نظري اليه انه الفرندوق ...

وبعد ان نظر الي كثيراً . قال

— « انك صغير جداً غير اني اعلم انك ماهر في عملك ولا نشك انهم يعلمون مايفعلون في ولهامسترس ثم تذكر على ما يظهر انه لم يدعني للجلوس فتدارك ذلك حالا ورجاني بلطف ان اجلس مكرراً ذلك فجلست

ولم يفعل الفرندوق ما يفعله موظفو « ولهامسترس » من طرق باب الموضوع حالا بل بدأ حديثه معي في امور عامة ثم تطرق بالحديث الى زيارتي له وسببها فقال

— هل تستطيع القيام بهذه المهمة

فاجبته اني لا استطيع ان ابدي رايًا قبل ان اعلم ماهي تلك المهمة ونوعها ورجوت منه ان يبقي لي الحق برفض العمل اذا رايت اني لا ارجو نجاحًا .

فوافق على طلبي قائلا انه عدل . ثم التفت الي التفاتة خاصة كمن يقول انه لا يصدق اني صغير في السن بعد ما رأى من دهائي واحتراسي في القول

ثم قال

— ان في بيتي حادثة سيئة جداً تدعو الى انشغال البال والكدر . فان الفرندوق الصغير ابن اخي قد استهوته سيدة انجليزية احبها حبًا شديداً وعلق بها وهو يرغب ان يتزوجها وهذه السيدة لسوء الحظ من طبقة عالية في الهيئة الاجتماعية يصعب اهمالها وعدم الالتفات اليها وفي الوقت نفسه ليس من المستطاع مشتراها بالمال . غير انها مع ذلك ليست بحالة الكفاءة للدخول الى هذا البيت وهنالك اسباب اخرى عدا عن الاسباب السياسية تجعل زواجها بفرد من افراد عائلتي امراً مستحيلا

ثم ابرقت عيناه واستمر في الحديث فقال ان هذه السيدة قد هددتنا مؤخراً باحداث متاعب لنا بسبب اصراري على رفض الموافقة على زواجها بابن اخي وان لديها لسوء الحظ بعض الخطابات والاوراق السرية التي يضر بنا نشرها كثيراً سلمها اليها ابن اخي عن جهل واني ارغب ان استعيد هذه الاوراق ولا ابالي مطلقا في امر المال الذي انفقه في سبيل ذلك . ولقد جربت كثيراً الضغط واستعمال النفوذ مع ابن اخي والسيدة فلم يجدني ذلك نفعاً لذلك دعوتك واني اترك لك اختيار الوسائط التي تؤدي الى بلوغ الغاية بشرط ان تتجنب استعمال القوة وكل ما يدعو الى افتضاح الامر وانتشار خبره بين الناس . واني لا استطيع ان اساعدك كثيراً في رسم الخطة التي تتبعها او في اعطائك معلومات اخرى غير ما تقدم فما رأيك في الامر وهل ترى هناك املا بالنجاح ؟ »

سمعت اقوال الغرندوق ولما كنت قد اعتدت الحرص في ما اقول وعدم الافراط في الوعود قلت :

— اسمح لي يا صاحب السمو ان لا اجيبك على سؤالك الاخير فقد اعتدت ان لا ابدي رأيي في حادثة حتى اكون قد بلغت حداً معيناً في بحثي فيها »

فبدت على وجهه دلائل الرضا عن خطتي فنهض وقال

— اني رهين اشارتك . اجعل مفاوضتك مع رئيس حجابي واذا رأيت موجباً لمفاوضات برقية فسأتفق مع رؤسائك على ذلك والان ارجو منك الانتظار حتى ارسل اليك كاتم اسراري . ثم وضع يده على كتفي وقال « واني اؤكد لك انك لن تندم على مساعدتك لنا في هذه الحادثة وانتشالنا من هذه الورطة »

وقد صدق الغرندوق في قوله فاني لم اندم

وبعد ان خرج الغرندوق دخل حاجب فدعاني الى غرفة مائدة صغيرة حيث جلست وتناولت الطعام ولما انتهيت دخل علي كاتم اسرار الغرندوق وناولني غلافاً مختوماً وابلغني تحيات سيده مع رجائه ان اتوجه حالاً في مهمتي فاكدت له اني ساكون في الطريق في مساء ذلك اليوم بعينه وعدت الى برلين فلما بلغتها خاطبت الهر ستمبر بالتلفون

طالبا اجازة شهرين وركبت قطار هولندا قاصداً لندن

فتحت كتاب الفرندوق في الطريق فوجدت في داخله ثلاث اوراق مالية قيمة كل واحدة منها الف مارك ثم امراً الى احد بنوك لندن بان يدفع لي نقداً حال الطلب مبلغ ٥٠٠ جنيه ومهما طلبت بعد ذلك يعطى لي بعد الطلب بثلاثة ايام . وعلى هذا استطيع ان احصل على كل ما يلزمني من المال في لندن

قضيت مسافة السفر في الباخرة بين هولندا ولندن افكر كعادتي في ما يجب علي ان افعله لاصل الى غرضي . ان تلك السيدة كانت من سيدات الهيأة المعروفة في لندن ولذلك كان اول امر يجب ان افعله هو الوصول الى المجالس التي تتردد عليها او الوسط الذي تختلط به وهذا امر قد يكون صعب المنال في بلد اخر غير لندن اما في لندن فصاحب المال والادب والمظهر الحسن يستطيع اذا عرف كيف يسير ان يدخل اعظم مجالسها ويختلط باكبر رجالها

واول امر اهتممت به كان رسم الخطة التي يجب ان اسير عليها في تمثيل دوري . فقد كنت متردداً في ذلك لا اعلم باي مظهر اظهر .

ان الانسان قد يترك الامر عادة للظروف وهي ترشده الى ما يجب ان يفعل فقد تحدث حوادث بنت ساعتها تدله على احسن طريق يسلكها . وكنت ارغب ان انجح في اول الامر في احداث بعض التأثير بين الناس فاثير اهتمامهم واجعلهم يتحدثون بي ولم اشأ ان اظهر في لندن كرجل حديث النعمة بل اردت ان اعرف باخلاق شاذة فيكثر اهتمام الناس بي وتشوقهم الى الاطلاع على امري .

ان البريطانيين رجالا كانوا او نساء يهتمون كثيراً برجال الاسفار والصيد والقنص والتجول في انحاء القارة وليس هناك شيء يلفت انظارهم بسرعة مثل العادات الشاذة المقرونة بالادب وحسن الخلق والسلوك

ولما رسمت الخطة الاولى لسيري تركت ما بقي من الامور الدقيقة في تمثيل دوري الى وقتها ونزلت حال وصولي الى لندن في فندق رسل سكوير ثم انتقلت منه الى لانجهام بعد بضعة ايام وبدأت عملي بالبحث

واشتريت جرائد الهيئة الاجتماعية الراقية وكنت اقرأها من الغلاف الى الغلاف ثم سألت هنا وهناك لاعرف الوسط الذي تختلط به هذه السيدة المقصودة . فعلمت من الاشخاص الذين تعرفت بهم في الفنادق ومن مخبري الجرائد الاجتماعية وغيرهم من هم اصدقاء السيدة وسكنها والمحال التي يترددون عليها . والامر الثاني الذي رأيت من الواجب ان اصرف اليه اهتمامي هو معرفة اخلاق تلك السيدة الشريفة وعوائدها وما تحبه وما لا تحبه ونحو ذلك . ولما علمت انها تذهب يوميا راكبة جوادها الى هيدبارك فعلت مثلها وصرت كل يوم اركب جوادي واتجول في تلك الجهة . في اليوم الخامس رأيتها قادمة مع اصحابها فعلمت من ذلك اليوم موعد حضورها وصرت كل يوم في مثل تلك الساعة احضر فارقبهم . فكنت اراهم قادمين فاسرع بجوادي نحوهم وامر بهم ملاعباً جوادي قاصداً الفات انظار السيدة . ولم تكن غايتي من ذلك التعرف بها على هذه الصورة بل اردت ان الفت نظرها الي ليصبح وجهي مألوفاً لديها ولدى اصحابها فتسهل المعرفة بعد ذلك

ثم علمت ان السيدة قد اعتادت الذهاب مع اصحابها الى فندق سافوى بعد ظهر كل يوم حيث يجلسون ويأكلون ثمر «الفراولا» وفندق سافوى مشهور في موسم «الفراولا» يتردد اشهر رجال لندن ونساؤها اليه حيث يجلس الجميع الى موائد جميلة مشرفة على نهر التيمس بمناظره الحسنة يأكلون «الفراولا» ويمتعون انظارهم بمشاهدة المناظر الطبيعية .

ذهبت الى هذا الفندق وتمكنت بمساعدة خدمة الموائد ان اجلس الى مائدة قريبة من المائدة المحجوزة للسيدة واصحابها وكنت دائماً أؤخر حضوري الى ما بعد وصولهم وجلوسهم ثم ادخل ماراً بهم . والقوم في فندق سافوى يقدمون «الفراولا» في اطباق من الفضة الجميلة والى جانبها قليل من «القشطه» ويأخذون ثمن الطبق الواحد نصف جنيه . وكان زبائن المحل يأكل الواحد منهم طبقا واحداً اما انا فكنت آكل خمسة اطباق في كل جلسة

وتابعت الحضور الى سافوى في الموعد المناسب مدة عشرة ايام كنت في كل يوم اتناول من اطباق « الفراولا » ما قيمته

جنيهان ونصف جنيه ثم انفح خادم المائدة بنصف جنيه فتبلغ نفقتي اليومية على الفراولا ثلاثة جنيهات. وكنت دائماً اتصرف نفس التصرف دون ادنى تغيير فادخل الفندق في الوقت المعتاد واطلب المدد المعتاد من الاطباق وانفح الخادم نفس القيمة فما مضى زمن حتى بدأ تصرفي هذا يلفت الي الانظار ورايت ان كثيرين من المترددين على الفندق قد بدأوا ينظرون الي ويستغربون امري. وقد سمعت احد اصحاب السيدة ذات يوم عند دخولي يقول لرفاقه « ها قد جاء عفريت الفراولا » . فسرني قوله هذا كثيراً وعلمت انه اصبح من السهل علي الدخول في زمرة معارف السيدة واصحابها فقد تم لي ما اريد واصبح زوار الفندق ينظرون الي نظرهم الى شيء غريب لم يعتادوه ان امرأة مثل السيدة المقصودة لا تسهل مغازلتها غير انه اذا نظر اليها الانسان في ظروف معلومة مثل الظروف التي اوجدني بها غرامي « بالفراولا » فهي ترد النظرة بمثلها فيبتسم الاثنان ابتسامة خفيفة ثم لا ينظر احدهما الى الآخر مرة اخرى في ذلك اليوم. وهذا لا يعد مغازلة بل نسميه تبادل التفات. وكان مدير الفندق ذات يوم اخبرني ان بعض الناس يتساءلون عني وبالاستفهام منه علمت ان احد المتسائلين رجل من زمرة السيدة فادركت ان السؤال صادر منها

وكنت في نفس الوقت كتبت للغراندوق عدة مرار الح عليه بوجوب الاصرار بعدم السماح لابن اخيه الشاب بالحضور الى لندن كذلك ان لا يسمح له مطلقاً بمكاتبة السيدة حتى يأذن هو له بذلك.

وكان موسم لندن قد اصبح في اكبر ادواره وامها كبار القوم كعادتهم. فبدأت اطوف الملاهي ودور التمثيل والاندية والمجتمعات العامة كلها فاجتمعت في بعضها بكثيرين من معارفي بينهم اثنان او ثلاثة بيني وبينهم رابطة وداد متينة احكمنا عراها في اجتماعات عديدة اجتمعناها في جهات اوروبا ومصايفها الشهيرة فعرفني هؤلاء بكثيرين من اصدقائهم وهكذا بدأت الدعوات تتوارد علي لسهرات او حفلات في منازل قوم معروفين تجتمع بهم السيدة ويزورونها وتزورهم.

ففي ذات يوم دعيت الى منزل كانت

السيدة مدعوة اليه وحصل التعارف بيننا بواسطة صاحبة المنزل . وكانت السيدة طويلة القامة جميلة الصورة نقية البشرة بيضاء اللون سوداء العينين كبيرتهما فصيحة اللسان خفيفة الحركة رشيقة القد حرة في حديثها بدون تقيد شأن شريفات انكلترا فلم اعجب بعد رؤيتها عن قرب والتحدث معها من افتتان الغراندوق الشاب بها بل وجدت له عذراً كبيراً في ذلك واستحسنت ذوقه

وعند ماقدمتني صاحبة المنزل لها بشت لي وعطفت علي وبادرتني بقولها

— كيف حال صديقنا الشاب الغريب . الم تزل مغرماً «بالفراولا» تأكل منها عدة اطباق كالماضي

فضحكت وضحكت معي ثم قالت

— اذن كنت يا سيدتي تلاحظين اعمالي وترقبين اطواري

— كنت افعل ذلك دون شك

وتلا هذا حديث طويل عن امور مختلفة ما انتهيت منه حتى ازددت اعتقاداً بحسن ذوق الغراندوق الشاب وغبطته على حب هذه السيدة الجميلة الفاتنة

ومن ذلك اليوم جعلت في مقدمة اعمالي المواظبة على الحضور في اي مجلس او محل من المحال العمومية كدور التمثيل والمطاعم وغيرها اذ كنت اعلم انها ستحضر اليها وتمكنت بالتدريج ان اكتسب ثقتها .

ولما دعيت مرة الى مأدبة في الغرفة الهندية من فندق وندزر دعيت انا كذلك . وكان الناس قد بدأوا يعلمون شيئاً عني واشتهرت بينهم باني رحالة اجوب بلاد الدنيا واني رجل ذو مال قد شغف بالابحاث الطبية على سبيل التسلية .

وبعد ان عاشرت السيدة زمنا يسيراً اكتشفت ان العلاقة التي بين الغراندوق الشاب وبينها كانت سراً معروفا بين اصدقائها يتحدثون به في ما بينهم بدون تحفظ . كذلك علمت انها تنتظر قدوم الغراندوق الى لندن يوما بعد يوم فاغتنمت احدى الفرص ولمحت امامها اني اعرف الغراندوق ولما رايت ان ثقتها بي قد زادت بدأت اروي لها روايات غرامية متعددة عنه وتمكنت بهذه الطريقة ان احل عقدة لسانها واستدرجها للكلام عنه واخيراً توصلت الى ايغار صدرها عليه معتمداً في ذلك على عدم حضوره الى لندن حسب وعده لها — والقارىء يعلم ان

الغراندوق الكبير منه الغراندوق الشاب من ذلك بناء على الحاحي

ومضى شهران قبل ان ادعى الى منزل السيدة في ناحية «مايفير» وكنت في ذلك الوقت قد اكتسبت ثقتها التامة . فعلمت منها انها قابلت الغراندوق عند ما كانا في دعوة الارل ... للصيد والقنص في مقاطعة «شروبشير» ثم اوضحت لي ان تلك المقابلة كانت المقابلة الرسمية بينهما على اعين الناس غير انها عرفته بالفعل قبل ذلك بكثير عند ماكانا في سياحة في سويسرا . تلك البلاد التي تجمع كثيرين من اصحاب المقامات العالية يأتونها متنكرين

كذلك علمت بعد حين انها تقامر بلعبة البردج وان تلك اللعبة قد كلفتها مبلغا طائلا من المال . فلما بلغني ذلك اردت ان ابحث لارى ما اذا كانت مديونة فلم يكن ذلك امراً سهلا فاستعنت بخادمتها لمعرفة ذلك وكنت كلما وجدت فرصة انفح تلك الخادمة بمبلغ من المال حتى ملكتها فلما علمت ذات يوم ان سيدتها غائبة عن المنزل زرتها وتظاهرت باني سانتظر حضور سيدتها وجلست احادثها فعلمت من خلال حديثها ان سيدتها في ضيق مالي فسررت بهذا النبأ لانه يفتح امامي باباً جديداً للعمل

ومن ذلك اليوم اخذت بالمواظبة على حضور مجالس لعبة «البردج» التي تحضرها . ان سيدات الانكليز يقامرن بمبالغ طائلة وقد رايت من ملاحظاتي ان صديقتنا في غالب الاحيان قليلة الحظ في اللعب تخسر خسائر كبيرة . فساعدني الحظ يوما ما ان اكون الرابح منها ولما كانت عادتهم في اللعب ان الخاسر لا يدفع نقداً بل يعطي سنداً بالقيمة تحت الطلب كان من نصيبي ان اخذ ورقة مثل هذه منها فذهبت بها الى منزلي وفي صباح اليوم التالي بحثت عمن بيدهم اوراق مثلها ودفعت قيمتها وجمعتها كلها ثم ذهبت بها الى رجل اسرائيلي يشتغل بالربا واتفقت معه ان ياخذ تلك الاوراق ويضايقها بالطلب متجنبا — بالطبع — ذكر اسمي وقد لجأت الى هذا الاسرائيلي لانه من البديهي انه ليس من الحكمة ان اذهب اليها بالاوراق بنفسي بينما انا ابذل جهدي لاكتسب ثقتها وانال رضاها

فذهب الاسرائيلي اليها في اليوم نفسه وطالبها ملحا ومهدداً بان يتخذ

الاجراءات القانونية اذا لم تدفع له و كرر امثال هـذه الزيارة كثيراً في الايام التالية حتى جعلها في حالة اليأس الشديد

ولما بلغت المسألة هذا الحد زرتها وبعد التودد والاستفسار عما يكدرها واظهار العطف عليها ومشاركتها في كدرها اظهرت ما اخفت وقالت لي بتأثر شديد انها مديونة كثيراً وان جميع معارفها واصدقائها مديونون مثلها وانها في حيرة لاتدري ماتفعل

فجلست اليها نتباحث في امورها وننظر في حساباتها فوجدت انها بالفعل في حالة ارتباك شديد ثم تحدثنا عن الغراندوق فأقنعتها بانه لا يجب ان تأمل ان يتم الزواج بينهما ولكن بالنظر لعلاقته بها وعقد خطبته عليها فان لها حقاً عظيما على الغراندوقية التي هي بلا شك ملزمة بالتعويض . ولما كنت اعلم انها شريفة المبادئ عزيزة النفس اردت اذا اودع كلامي معنى يجعلها لا تنظر الى المسألة كانها مسألة جزئية لصوصية تؤخذ بالضغط والتهديد فاني اعلم تمام العلم انه لو تبادر الى ذهنها فكر كهذا او لو نظرت الى المسألة هـذا النظر فهي بلاشك ترفض السير بنصيحتي ولو فقدت كل مالها واضطرت ان تلتزم الوحدة وتترك لندن ومجتمعاتها . وبعد ان بلغت غايتي من تصويب هـذا الامر في نظرها قلت :

— « ألا يوجد لديك شيء تستندين اليه يعينك في الضغط على عائلة الدوق لكي تعترف بحقك وتعطيك العوض اللائق »

فنظرت الي صامتة وبعد تردد طويل نهضت وخرجت من الغرفة ثم عادت وبيدها رزمة من الخطابات . فرأيت على بعضها شعار الغراندوق فان الشاب تهور الى هذا الحد . ثم تناولت الكتب بيمينها وقالت : —

— اود ان اعلم ما يقول الغراندوق عن هذه . اني اقدر ان اضطره الى الزواج بي

هنا وجدت فرصة اخرى فان السيدة كانت محتدمة غيظا فاشرت اليها بالجلوس لنتحدث في الامر فجلست فقلت لها : — تأكدي اني واثق بما اقول ولا القي الكلام على عواهنه . انا انتسب الى عائلة عظيمة في المانيا وقدجئت لندن متنكراً فانا اكلمك بصفتي صديقا لك لا صديق اسرة الغراندوق ولكن معرفتي بهم تجعلني قادراً على ان

اساعدك كثيراً . انه يسوءني جدا اذا قول
ما سأقول ولكني اعلم انه لا امل هناك مطلقا
في الزواج حتى ولا الزواج السري . اني
اعد معاملتهم لك خطأ وظلما . وانك بلا
شك تستحقين تعويضا كبيرا نظرا لعلاقتك
به والتفاهم الذي بينكما فلو ذهبت الى الحاكم
تستطيعين اخذ هذا التعويض غير اني اعلم
شعورك . وطريقة كهذه تمس شرف عائلة
كبيرة شريفة مثل عائلتك . فظهر عليها ما
يدل على استحسان قولي فقالت :

— ولكن ماذا افعل

— اني لما لي من الصداقة مع اسرة
الفراندوق اعد سماحك لي ان اتوسط في
الامر بينكما شرفا عظيما فانا استطيع ان
افاوض مع الفراندوق الشاب واعدك بانه
يعدل في الامر واني ادرك دقة هذا الامر
وارى من الواجب ان يكون بجانبك رجل
يعينك بالفكر والعمل

فهزت راسها . وتناولت الخطابات
بيدها وقالت : لا . لا . ان هذا امر
لا يطاق ولا استطيع ان افكر به

فرأيت انه من الواجب علي ان استعمل
الالحاح الزائد واتخذ حجة اقوى من الاولى
فبدات اختلق افظع الحكايات عن الفراندوق
الشاب وصورته لها في خمس دقائق بصورة
من اقبح الصور وانه من ادنى الخلق ثم
ختمت اكاذيبي بما يأتي

امعني النظر في الامر . الم يعدك
بانه سيجيء الى لندن ليصرف هذا الفصل
معك . وها هو لم يحضر وقد اخبرني انه
لم يجبك على خطاباتك العديدة . هذه
طريقته معك . صدقيني ياسيدتي انه يستحق
هو وعائلته اعظم عقاب تستطيعين ان
توقعيه بهم . فاثرت باقوالي هذه على كبريائها
وغضبها فوافقتني على كل ما اريد
واطلقت لي الحرية في التصرف
فتركتها وذهبت رأساً الى غرفتي حيث
زورت خطابين على لسان الفراندوق لي
ووقعتها بتوقيعه ثم ذهبت الى البنك وطلبت
١٥ الف جنيه فلم تمض اربعة ايام حتى
قبضت المبلغ — وكان ماجرى بعد ذلك
امراً طبيعياً . ذهبت اليها وسلمتها المال
واستلمت رزمة الخطابات . واني اعلم اليوم
ان هذه السيدة الشريفة لاتزال تطوف
في انحاء اوروبا تعيش عيشة النعمة والبذخ
والاسراف منفقة من الراتب السنوي

الذي عينه لها الغرانندوق . غير اني لا اعلم ماذا كانت لا تزال تختلف الى فندق ساغوي لاكل ثمر « الفراولا » التي كانت واسطة التعارف بيني وبينها

وقد اتخذت الاحتياط اللازم عند اتمام الاتفاق بيننا في انها ختمت كل الخطابات ختما متينا قبل تسليمها الي فوضعت الخطابات في جيبي وسافرت الى المانيا حيث قصدت رأسا قصر الغراندوق وقابلته شخصيا فتناول الرزمة مني وفتحها بحضوري . وقد لحظت عندما كان يقلب الخطابات انه لم يهم الا بواحد منها يشبه في شكله الاوراق الرسمية فلما وقع نظره على هذا الخطاب تنفس بارتياح كمن زال عن صدره ثقل كبير

وقد كانت هذه الورقة تشبه بلا شك في شكلها رخص الزواج التي تعطى في سويسرا — اني لم ارها الا لمحة واحدة ولكن اذا جمعت اهتمام الغراندوق بها واهماله سواها الى بعض تلميحات فرطت من السيدة نفسها ثم اضفت الى ذلك ما سمعته من الاشاعات في سويسرا لا يبقى عندي ادنى شك في انه قد كان هناك زواج سري بين هذه السيدة والغراندوق الشاب

ويظهر ان صاحب السمو الملكي الغراندوق الكبير سر كثيرا فانه دفع لي ٥٠٠٠ مارك وبعد ذلك ببضعة ايام جاءتني هدية بواسطة الكونت فون ودل هي دبوس من الالماس الغالي وساعة ذهبية جميلة مع سلسلتها وقد نقش عليها شعار الغراندوق وتحته الجملة الآتية : — « من اجل الخدمة التي اداها بامانة لاسرتي »

الفصل السادس

السائس في مونت كارلو

بينما كنت مساء ذات يوم بعد عودتي الى برلين من مهمة في فينا اعد نفسي لسهرة جميلة في احد الاندية وقد ارتديت ملابسي وهممت بتناول عصا مذهبة اليد جميلة . اذ دخل الخادم علي وقال ان في الباب رسولا من قبل الكونت فون ودل

دخل رسول الكونت فانحنى امامي مسلما ثم ابلغني امر الكونت بالتوجه اليه حالا ولا مندوحة عن الطاعة

لم تمض ٢٠ دقيقة حتى كنت مع الكونت وبعد ذلك بعشر دقائق فارقته بعد تلقي

اوامره وسرت الى منزلي افكر بها وهذا ملخص ما قاله لي :

« يجب ان تستعد للسفر بقطار نصف الليل الى مونت كارلو . وهناك يجب ان تراقب اجتماعاً يحتمل عقده بين وزراء روسيا وفرنسا وانكلترا الذين يتجولون الان في امارة (رفيرا) وتبلغنا بما يكون . وتساعدك — اذا لزم الامر — في مهمتك الكونتس شيشاني فاذا احتجت اليها ارسل لها هذه البطاقة (وناولني بطاقته السرية) . واذا عقدت اجتماعات اومؤتمرات فعليك ان تعلم ما يدور فيها . ثم اعطاني ٣٠٠٠ مارك . وقبل ان انصرف سألني عما اذا كان هناك شيء اريد ان استفهم عنه او استوضحه اياه .

ولما كنت لا اعرف الكونتس التي اشار اليها طلبت منه وصفها فنادى كاتم سره واسر اليه امرا فعاد بعد دقائق معدودة يحمل صورة الكونتس الفوتوغرافية وتوقيعها بخط يدها فاخذت نسخة منها ثم انحنيت مسلما وانصرفت لاستعد للسفر الى مونت كارلو واختار الشكل الذي اظهر به

فاخترت الظهور بمظهر احد اصحاب المناجم في جنوبي افريقيا فاني كنت اعرف شيئا عن المناجم والتعدين واعرف بلاد الراند والترانسفال معرفة جيدة . ان الجاسوس يجب عليه ان يعتني في اختيار دور يستطيع اتقان تمثيله ويعرفه تماما فانه قد يلتقي عاجلا او اجلا بكثيرين من الناس الذين يعرفون الحرفة او الصنعة التي يتظاهر بها فان لم يكن واثقا تمام الثقة باتقانها فلا شك في افتضاح امره

ولما اخترت الظهور بمظهر صاحب المناجم في جنوبي افريقيا كنت اعلم تمام العلم ان مونت كارلو لا تخلو من بعض رجال المناجم القادمين من تلك البلاد

وبعد ان جلت في المدينة وجمعت بعض الجرائد والمجلات المخصصة للابحاث في المناجم والمعادن وكذلك بعض الصور الفوتوغرافية وبعض جرائد جنوبي افريقيا ذهبت الى منزلي وامرت خادمي بان يعد لوازمي للسفر وفي الساعة الثانية عشرة كنت جالساً في احدى مركبات الدرجة الاولى في الاكسبرس المسافر الى مونت كارلو افكر في ماقاله الكونت فون ودل لي وفي المهمة العظيمة التي امامي

ان المهمة التي طلب مني قضاؤها من

اكبر المهام واصعبها . فاذا اردت ان اصادف اقل نجاح يجب ان اقترب من الوزراء المقصودين واذا امكن اختلط بهم فما هو السبيل الى ذلك . ان التعرف بهم صدفة ليس من الامور السهلة لا بل قد يكون مستحيلا .

ثم جعلت افكر بشخصية الوزراء الذين ذكرهم الكونت ودل وهم البرنس ... الذي كان ذا نفوذ عظيم في ذلك العهد لدى قيصر روسيا والمسيو دلكاسه الفرنسوي والسر ادوارد جراي الانكليزي .

هؤلاء السياسيون الثلاثة كانوا يتنقلون في انحاء « رفيريا » بحجة صحتهم ولكن قد يكون لاسباب اخرى وعلى كل حال فان امبراطور المانيا كان على مايظهر كثير الاهتمام بامر صحتهم

ان سفر اكثر من سياسي واحد في جهة واحدة وفي زمن واحد امر يدعو الى الريبة ويستحق البحث . خصوصاً اذا صادف حصول ذلك في وقت ازمة سياسية شديدة كالحالة في عام ١٩١٠ الذي جرت فيه هذه الحوادث اذ كان جو السياسة كثير الغيوم والمانيا لا تعرف عدوها من صديقها

والآن اعود الى البحث في شخصيات السياسيين المذكورين . فقد كنت اجهل عادات السر ادوارد جراي وطباعه جهلا تاماً اما دلكاسه فكنت اعرف عنه بعض الشيء . اما البرنس ... فهذا كنت اعرفه تمام المعرفة وهو محب اللهو والمعاشرة يفتتن كثيراً بكل وجه جميل ويستغويه كل شكل حسن . فلما وصلت بافكاري الى هذا الحد بدأت ارى نوراً ضعيفاً يدعو الى الامل فهنا يأتي دور الكونتس فانها — على ما رايت من صورتها — فاتنة حسناء . ان الصور بعض الاحيان تكون افضل من الحقيقة غير اني ساراها بعيني عند وصولي

***

في الساعة الخامسة والدقيقة ٤٥ بعد ظهر اليوم التالي وصل القطار بنا الى مونت كارلو فنزلت في فندق متربول وبعد ان ابدلت ملابسي وتناولت طعام العشاء ارسلت في طلب دليل الفندق وهذه حيلة من حيل المعتادين الاسفار والتجول فان ادلاء الفنادق او تراجمتها هم بلا شك دائرة معارف متحركة فانهم يعرفون اللغات نبهاء اذكياء يلاحظون كثيراً ويمتلكون موهبة عظيمة في اكتشاف

كل امر لا يجب ان يعرفوه وهم فوق ما تقدم اساتذة عظام في كتمان كل مايعرفونه وسد افواههم الا اذا عرف الانسان كيف يفتحها — وذلك بالرشوة

وكان يجب ان اعرف دسائس مونت كارلو ومن فيها من الناس وماذا يفعلون ومن هن اشهر نسائها والمقامرين فيهـا . وهل هناك جواسيس الخ .وهذه امور لا يعرفها الا دليل الفندق ولحسن الحظ كان الدليل في فندق متربول سويسريا اعرفه جيداً من قبل فلما طرق الباب امرته بالدخول واستقبلته باسماً ومظهراً كل انعطاف ثم ناولته سيجارة من اجود السجاير التركية التي كنت ادخنها ولما رايتـه قد تناولها بادب واهفاها بيده احتراماً لي الححت عليه باشعالها وتدخينها وقلت له اني اشعر بوحدة عظيمة لهذا اسر كثيراً اذا جلس قليلا ودخن وشرب كأساً من الخمر معي

وبعد ان جلس وهدأ روعه وتحدثنـا قليـلا في امور اعتيادية وفي موسم ذلك العام قلت

— هل يوجد احد تهم معرفته ؟

قلت هذا وغمزته بطرف جفني فسره على ما يظهر انـ يتبادل السر مع سواه فقال .

— ان في فندق « جراند اوتل دي لوندر » رجلا لا تخدعني ظواهره

فاسرعت بتقديم سيجارة اخرى له وناولته كأساً آخر من الخمر . فعـاد الى حديثه قائلا :

« لقد قيد بدفاتر الفندق باسم الكونت تشلو غير انه لا يستطيع ان يخدعني فهو بلا شك البرنس . . .

— وماذا يفعل هنا ، هل يقامر كثيراً (وكنت اعلم ان البرنس لا يقامر)

— لا . فهو محافظ على السكون التام

— وهل هناك من تدعى « الكونتس تشلو »

فهز الدليل رأسه علامة النفي فسرني ذلك كثيراً فاني كنت اعلم ان من اصعب الامور واشدها خطراً محاولة مزاحمة امراة وخصوصا في مونت كارلو

وبعد ان تحدثت قليلا مع الدليل صرفته وعزمت على ان ارى الكونتس في صباح اليوم التالي

وفي نحو الساعة الحادية عشرة قبـل

الظهر قصدت فندق اللوفر حيث اخبرني الكونت فون ودل ان الكونتس تقيم فيه فارسلت اليها بطاقتي وقد كتبت عليها

الهر فون ويت

دورن كلوف

الترانسفال

وكذلك بطاقة الكونت فون ودل وتوقيعه .

انتظرت طويلا . ثم استقبلتني الكونتس في غرفتها الخصوصية وهي متشحة ببرنس يزيدها جمالا على جمال . لقد كنت من رؤية صورتها اعددت نفسي ان ارى امرأة جميلة ولكن التي قابلتني لا تمطى حقها اذا اقتصرنا على القول انها جميلة . فهي فينوس وجونو ومنرفا في شخص واحد . او قل ان آلهة الجمال عند اليونان وغيرهم قد تمثلت فيها . طويلة القامة رشيقة القد زرقاء العينين كبيرتهما ذات شعر اسود ناعم وشفتين رقيقتين بلون الياقوت الاحمر . ولكن لماذا استرسل في وصفها فقد اخدع القاريء اذ ان جمالها لا يدرك ولا يوصف وكنت اعلم ان الكونتس مولودة من احدى عائلات هنغاريا الشريفة وهي ارملة كونت من كونتية طولنا من اكبر اكابر هنغاريا فاشارت الي بيد بيضاء مجدولة قد طوقها سوار جميل وبدت بين اناملها سيجارة مذهبة رقيقة وقالت

— تفضل واجلس يامستر فان ويت القادم من الترانسفال

وابتسمت لي ابتسامة معنوية كانها تقول « انا اعرف من انت » فضحكنا معاً

انها كانت بلا شك تعلم من انا فان بطاقة فون ودل تدلها على ذلك ولكن ظهر لي من حديثها التالي انها كانت تعلم اكثر مما كنت اظن فانها قالت

— لقد سقطت البارحة وصدعت قدمي ايها الدكتور . فهل تستطيع ان تفعل شيئاً من اجلي

فدهشت من كلامها وبدت الدهشة على ملامحي . ولا عجب اذا دهشت من معرفتها امري لاني لم ارها قبل تلك المرة وما كان احد يعرفني بين موظفي الادارة السرية ماعدا واحدا او اثنين ثم ان قانون الخدمة السرية لا يبيح للاعضاء ان يتحدثوا في امور بعضهم الشخصية لذلك لم يسرني

سلوكها مطلقاً خصوصا لاني اكره ان ارى احداً يعرف اكثر مما اعرف انا وخصوصاً اذا كان ذلك الشخص امرأة . فعزمت ان لا اظهر التعجب او الاهتمام ولكني كنت اريد ان اعرف كيف علمت بامري فاجبتها ببرود :

— حقاً ايتها الكونتس اعترف لك بالسبق واذا كان باستطاعتي ان أؤدي خدمة لك فانا على تمام الاستعداد فمري بما تشائين

فكان جوابها لي انها وقفت ومشت قليلا في الغرفة ثم قالت

— لماذا نستعمل الرياء والمكر فيما بيننا ؟ فاذا سلكت سلوكاً حسناً سأخبرك عن كل شيء فيما بعد

ولكنها لم تخبرني شيئاً فانها مع كل خفتها كانت من احرص الناس يصعب جداً استكشاف شيء منها

وبعد ان تحدثنا قليلا فاتحتها بموضوع زيارتي فقلت

— هل تعلمين ايتها الكونتس غرضي من هذه الزيارة

— لا اعلم شيء سوى انك ستحضر واني مأمورة بان اساعدك في مهمتك اذا احتجت الي فالاوفق اذن ان تنير بصيرتي ايها العزيز

فاخبرتها بالامر بكل تحفظ واحتراس لان من اعظم مبادئي انلا ابوح بالكثير لاحد خصوصاً للسيدات . وذكرت لها ان اول عمل يجب علينا عمله هو التعرف بالبرنس ولما كان سموه يقطن فندق لندره اتفقنا على تناول طعام العشاء فيه في تلك الليلة . وبعد ان شربت معها القهوة فارقتها عائداً الى منزلي ومررت في طريقي بفندق لندره وتمكنت بحسن السياسة اذا احتكر المائدة التي اردتها وهي الاولى بعد مائدة البرنس

ثم ذهبت الى الفندق فابدلت ملابسي وحملت باقة من الورد وخرجت للقاء رفيقتي الجميلة .

ولما وصلت الى فندقها ارسلت الورد اليها مع الخادمة وجلست انتظر

وقد دخنت السيجارة الاولى فالثانية فالثالثة ولم تحضر واني لم اقابل بعد امرأة تعرف كيف تحافظ على الموعد وتحضر في الوقت المعين . فبعد انتظار طويل سمعت حفيف ثوبها الحريري واذا بها مقبلة في اعلى السلم تتهادى بثوب جميل والجواهر تبرق

حول عنقها اللطيف ومعصميها العاجيين .
ان جمال هذه الكونتس جمال يصعب وصفه ولكنه يحوز الرضاء والاعجاب في كل مكان
— هل مللت الانتظار ايها العزيز .
اني اكافئك على انتظارك الطويل بالتزين بالورد الذي احضرته

ثم ركبنا مركبة وذهبنا الى فندق لندره وكنا اثناء الطريق نتحدث في الدور الذي سنمثله وكنت اتساءل هل نتمكن يا ترى من اقتناص الدب الروسي .

وصلنا الفندق واذا به مكتظ بالجموع . فكل ذي حيثية ومقام كان هناك . وقد رأيت بين الجموع عدداً كبيراً من نخبة السيدات الاميركيات

ان الاختبار علمني ان هناك ثلاثة اماكن في العالم حيث يقابل الانسان بلا شك اما عاجلا او آجلا كل انسان معروف في العالم وهذه الاماكن هي : — متنزه بيكادلي — فندق شبرد في مصر — ومونت كازلو .

ولما وقع نظر مدير الفندق علي تذكر هبتي له بعد ظهر ذلك اليوم فاقتحم الجموع وجاء يدعونا الى مائدتنا وقد زينت بالورد الجميل الذي تحبه الكونتس « على قائدة النفقات السرية » .

وبينما كنا نسير مخترقين تلك الجموع نحو مائدتنا كانت الانظار تتطلع الينا والاعناق تشرئب نحونا . اما الكونتس فانها كانت تسير بجلال لا تسير ما حولها اقل التفات على انها كانت بدون شك اجمل امرأة بين تلك الجموع الكثيرة .

ولما جلسنا الى مائدتنا ساد سكوت تام بين الجلاس على الموائد المحيطة بنا وتلا ذلك السكون همس وكلام منخفض يشبه ازيز النحل بين اولئك الناس المهتمين بمعرفة سيدة الجمال التي جاءت من حيث لا يعلمون

اما البرنس فكان جالساً الى يميننا وقد لاحظت انه من حين دخولنا لم يحول نظره عن الكونتس فراقبته من طرف خفي وما هي الا برهة حتى تبادل مكان الجلوس مع شخص كان جالساً الى جانبه كانه رأى ان مجلسه الاول لا يساعده على النظر اليها كما يريد ولما استوى في مجلسه الجديد وضع نظارته على عينيه وظل ينظر اليها

لا حاجة بي ان اقول انساو كهسرني وبدأت ارى بارقة امل بالنجاح فان سموه

بدأ يلتهم « الطعم » المعد لاقتناصه . غير اني رأيت الافضل ان اظهر بعض الانفة كي انفي كل اشتباه في ان المقصود من جلوسنا هناك نصب الشرك له ولا سيما ان الجميع لحظوا ان البرنس قد افتتن بالكونتس اي افتتان حتى انه بدأ يبدي افتتانه بها بطريقة واضحة تسترعي الانظار وهذه هي الفرصة التي كنت انتظرها فناديت مدير المطعم وقلت له بصوت واضح يسمعه الجلاس على الموائد المجاورة :

— ارجو ان تقنع السيد الجالس الى يميننا بان يقلع عن نظراته المغيظة . وحالما اتممت الجملة علمت ان البرنس سمعها وفهمها لان الخجل صبغ وجهه بلون قرمزي فنهض وانحنى للكونتس وخرج من المطعم . فحمدت الله لان كل شيء سائر على ما يرام

اتممنا عشاءنا وخرجنا الى الحديقة لتناول القهوة التركية والتدخين . ان هذه الساعة كانت عندي ألذ ساعات النهار وخصوصاً في بلد مثل مونت كارلو ملابس حسنة وبطون ملأى ومجالس جم خليطاً من الناس ومناظر جميلة وموسيقى مطربة . ان هذا لمنتهى ما ترجوه النفس

جلست ادخن سيجارتي التركية وقد تهت في ميادين الافكار وكنت انتظر البرنس لاني علمت انه لاشك قادم . وكانت الجموع تسير ذهاباً وجيئة . اناس من جميع الطبقات فهنا امير كبير من بيت شريف وهناك مضارب قد امتلأت جيوبه من الذهب وهنا امرأة من بنات الهوى وهناك جميلة من اللواتي يقصدن بلدان العالم التي يؤمها المسافرون والاغنياء هنا زمرة اشهر الممثلين والممثلات وهناك اثنان او ثلاثة من كبار رجال السياسة وبالاختصار فان هذا المجلس كان يجمع اكثر طبقات الناس

وماذا ترى يكون لو ان الغطاء يكشف عن ماضي بعض الحاضرين

لقد عرفت كثيرين ولما كانت وظيفتي تقضي بان اعرف شيئاً عنهم بدأت اتذكر حكايات عديدة — « كلنا في الهوى سواء » فاني كنت اعلم ان المرأة التي امامي تتجنب ان يعرف احد من هي وان يكشف الستار عن ماضيها مثل تجنبي ذلك او اكثر

هذا وبينما انا جالس جاء احد الذين

كانوا جالسين مع البرنس وناولني بطاقة باسم البرنس ثم خاطبني قائلا

— سيدي اني موفد من قبل سمو البرنس لابلغكم سفه اذا كان قد سبب لكم او للسيدة كدراً وسموه يطلب الاذن له بان يقدم اعتذاره للسيدة شخصياً.

فاجبته بان السيدة حرة في ماتشاء واني اترك لها ان تقرر ماتشاء

اما الكونتس فانها اكتفت باحناء رأسها دلالة على الموافقة وبذلك انصرف مندوب البرنس ليبلغ مولاه

ثم عاد بعد دقائق معدودة يصحبه البرنس وبعد عبارات التعارف والمجاملة بدأ الحديث في امور عامة وكان البرنس منصرفاً بكليته الى الكونتس مقتصراً في حديثه معها وبعد نصف ساعة دارت في اثنائها احاديث مختلفة وتناولنا بعض المرطبات دعانا البرنس الى الغداء معه في اليوم التالي

فاضطررت الى قبول الدعوة مع الكونتس وبالغ البرنس في اكرامنا

وقد اتفقا على الذهاب الى التياترو وفي ذلك المساء ولكن لم اكن بين المدعوين ثم ذهبا الى العشاء بعد التمثيل ولم ادع كذلك . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل اني عند ماقابلت البرنس في اليوم التالي في الطريق نظر الي نظرة تيه وكبرياء واستمر في سيره دون ان يتكلف التحية . وهذا كله سرني وزاد املي بالنجاح لانه دلني على انه قد اصبح في يد الكونتس

وكنت اراقبه من بعيد واراه يزيد افتتانا بها يوما بعد يوم فانهما كانا كل يوم معاً يتنزهان في مركبة ويذهبان الى دور التمثيل وقد امطر البرنس على الكونتس هداياه يميناً وشمالا

وبينما هذه الامور تجري بين البرنس وبينها جاءني الخبر بان دلكاسه قد وصل الى نيس ولما كنت اعلم ان الكونتس تعتني بالبرنس كما يجب عزمت ان التفت الى دلكاسه بنفسي وكان علي ان اعلم ما اذا كان الوزير الفرنسوي قد اجتمع بالوزيرين الانكليزيين اللذين كان ينتظر وصولهما الى نيس . فذهبت الى نيس وبدأت اتتبع المسيو دلكاسه اينما ذهب ولكن لم يحصل شيء من مما كنت انتظر . فان الوزيرين عدلا عن السفر لانه حصل في

مجلسي العموم واللوردات بعض الامور التي لم تكن منتظرة فحال ذلك دون تمكن السر ادوارد جراي والمستر ونستون تشرشل من مغادرة لندن ولذلك اوفدا رسولا يحمل اوراقاً هامة الى المسيو دلكاسه ولما كان مساء ٩ نوفمبر تلقيت تلغرافاً من الكونتس تقول فيه : —

«احضر ديكامب هنا مجتمع بصديقنا» وكان المقصود بديكامب بلاشك دلكاسه وصديقنا هو البرنس... فاستأجرت سيارة وسافرت بسرعة البرق الى مونت كارلو فوصلت الى الفندق في الساعة الثالثة من صباح يوم ١٠ نوفمبر وهناك وجدت خادمة الكونتس بانتظاري فابلغتني حديثاً هاما حصل بين البرنس ودلكاسه ساجيء على خلاصته وايضاحه فيما بعد فامرت الخادمة بان تخبر سيدتها اني ارغب ان اجتمع بها في الساعة العاشرة في الكازينو في قاعة الغرباء ثم صرفتها وقد اخترت قاعة الغرباء لان الناس يذهبون اليها كثيراً ولذلك فالذهاب اليها لا يثير شبهة او يوجد شكوكا

التقينا طبق الاتفاق وابدت الكونتس حديث خادمتها وملخص ذلك ان دلكاسه الفرنسوي والبرنس... الروسي عقدا اجتماعا في مساء ٩ نوفمبر دام نحو ثلاث ساعات وذلك في غرفة البرنس في فندق لندره ولما كانت الكونتس قد انتقلت بمصادقتها مع البرنس الى ذلك الفندق واتخذت غرفة بقرب غرفته تيسر لها ان تتسقط معظم حديثهما وقد كان بالطبع في تقريرها بعض اماكن يضاهي موضع جهل لم تسمعها غير ان ملخص ما تمكنت من سماعه دل على ان حديثهما ذو شأن عظيم

وفحواه على ما لاح لي عقد اتفاق بين فرنسا وروسيا بموافقة انكلترا على جعل المانيا في عزلة تامة وقد كانت هذه الدول الثلاث تحاول فوق ذلك ان تعرقل مساعي المانيا السياسية في سبيل التوسع وبعبارة اخرى ان يجعل الفشل نصيبها في كل سياستها وقد اخبرتني الكونتس ان البرنس ودلكاسه كانا على موعد للاجتماع مرة ثانية بعد ظهر ذلك اليوم عند الساعة الخامسة . ولما كان من الاهمية بمكان عظيم ان اعرف تمام المعرفة ما يدور في هذا الاجتماع الثاني رجوت من الكونتس ان تبذل غاية جهدها لكي تعرف تفاصيل هذا الاجتماع الهام

وان تقابلني بعد ذلك في زاوية قاعة الفرباء في الساعة السابعة مساء

ثم عدت الى الفندق ودفعت ما علي وارسلت امتعتي الى المحطة واخذت تذكرة الى ميلان

ان من الحكمة ان يحتاط الانسان دائما للطوارىء وان يكون قادراً على الفرار بسرعة في حالة وقوع ما لم يكن في الحسبان

ان ايطاليا كانت اقرب البلدان الموالية لالمانيا فلو ذهبت بطريق فرنسا ثم وقع خلاف بينها وبين المانيا فقد يصعب علي الافلات منها كذلك لو ذهبت بطريق سويسرا فحكومة تلك البلاد قد تمنعني عن السفر حفظاً لحيادها اذا طلب منها ذلك رسمياً . اما في ايطاليا فاكون بامان تام من جميع الوجوه فان اشارة واحدة من قصر ولهمسترس تمهد كل الطرق امامي وهنالك لاخوف مطلقاً من حجزي او تأخيري وهذا سبب اخذي التذكرة الى ميلان

صرفت وقتي بين تلك الساعة وساعة الموعد مع الكونتس متنقلا في ضواحي مونت كارلو فلم اترك حانة لم ادخلها ولما خيم الفسق دخلت قاعة الغرباء وجلست في الزاوية المتفق عليها انتظر مجيء الكونتس. ولا اقدر ان اصف صعوبة ذلك الانتظار .

بقيت هناك من الساعة السابعة حتى الساعة العاشرة والنصف ادخن السيجارة بعد السيجارة وكنت اشعلت سيجارتي الاخيرة وقد احترت كيف اصرف وقتي واسلي نفسي .

ولكي لا اثير ظنون الحاضرين واوجد شيئاً من الشبهة في امري بدأت اغازل احدى نساء القاعة وهي امرأة كبيرة الجثة غليظة العنق بعيدة عن الجمال بعد السماء عن الارض وكانت ابتساماتها الغرامية لي تلفت انظار الحاضرين وتكلفها الدلال يلذ لهم ويطربهم وقد سرني ذلك لان الناس في هذا الكازينو ينظرون الى الرجل الذي يجلس بدون ان يقامر او يغازل نظر الريبة ويعتقدون انه بلاشك جاسوس سياسي

وفي تلك الساعة دخلت خادمة الكونتس واشارت الي من باب القاعة فخرجت مهرولا بدون ان استأذن من فاتنتي الحسناء .ولما قابلت الخادمة بادرتها بالسؤال عما اذا كانت قد جاءتني بشيء فقالت:

— لا ياسيدي غير ان مولاتي تريد

ان تقابلك وهي ترجو ان تضرب لها موعداً للقاء

فسرني حذر الكونتس وعلمت انها بلا شك قد حصلت على اشياء ذات اهمية عظيمة فطلبت الى خادمتها ان تبلغها ان توافيني الى قهوة قريبة من محطة السكة الحديدية ثم نفحتها بجنيه . وركبت مركبة واسرعت الى مكان اللقاء . وبعد برهة قصيرة وصلت الكونتس وقد اتشحت بوشاح ليلي ثمين فاسرعت بالجلوس الى جانبي ثم اخرجت من القفاز الذي تلبسه ورقة ملفوفة والقتها في جيبي ثم عمدت الى وردة جميلة اخذتها من صدرها ووضعتها في عروة ثوبي وقالت :—

هذا كل ماقدرت ان احصل عليه غير انك ستجده كافياً — انا مسافرة الى رومة هذا المساء — فقلت رافقتك السلامة

وهكذا افترقنا

نظرت الى ساعتي فوجدت اني لا استطيع اللحاق بالقطار الذاهب الى ميلان فخرجت مسرعاً وما جلست مطمئناً في مجلسي حتى اخرجت اللفافة التي ناولتني اياها الكونتس وتأملتها ملياً . فكانت تلك اللفافة ورقتين من ورق الخطابات عليهما شعار البرنس وقد كتبت عليهما عدة اسماء وجمل مختصرة وتواريخ ثم رسم طريق وكل ذلك بخط دلكاسه والبرنس . فكانت نتيجة ماالتقطته من الاحاديث وتلك الورقة ان هناك تدبيراً سريا لزيارة سرية يؤديها المسيو بوانكاره رئيس جمهورية فرنسا لقيصر روسيا وقد كتب على تلك الورقة اسماء الموظفين الذين يقابلونه وموضع المقابلة واسم يخت القيصر « ستاندارد » غير ان هذه المقابلة لم تتم لان الامبراطور تداركها بما اتاه من سرعة العمل في حادثة المغرب الاقصى

ولما وصلت الى ميلان توجهت منها الى برلين وبعد ٤٨ ساعة كانت تلك الاوراق بين يدي فون ودل ثم بين يدي الامبراطور وقد ترتب عليها ماياتي

ان مشكلة المغرب الاقصى كانت في اشد ادوارها وكانت المانيا في مركز يضطرها ان تعمل عملا عاجلا اوآجلا فقبل مهمتي هذه لم يكن الامبراطور يعلم شيئاً . فان فرنسا وروسيا وانكلترا لم تكن قد ابدت مالديها فهو لم يكن يدري اي البلاد

تبقى على الحياد في حالة نشوب الحرب بينه وبين فرنسا. وقد كان يخيل اليه ان هناك اتفاق يدبر ضده فايدت نتيجة مهمتي بعد ان سمع برسالة السر ادوارد جراي الى دلكاسه ثم باجتماع دلكاسه بالبرنس. كل شبهاته وحققت ظنونه

غير انه بقي لا يعلم قوة ذلك الاتفاق والى اي حد تحافظ انكلترا على اتفاقها مع فرنسا وكل ماعامه كان ان هناك اتفاقاً ولكي يعلم قوة ذلك الاتفاق بين انكلترا وفرنسا ومتانته لعب لعبة سياسية هي لعبة استاذ ماهر. ذلك انه اوصل مسألة المغرب الى دور الشدة واوجد الازمة قبل الزمن الذي كان ينتظر حدوثها فيه بوقت طويل فارسل البارجة بانتر الى ميناء اغادير واضطر بذلك انكلترا وفرنسا الى الظهور وابداءما اخفتا. ولم يعلم احد كم كانت الحرب قريبة يوم تلك الحادثة وكيف منعت وتيسر تجنبها الا اربعة اشخاص وهم قبطان البارجة بانتر والكونت فون ودل والامبراطور وانا

وسأظهر كيف نجت اوروبا في اخر لحظة من الدخول في اعظم الحروب هولا عند ذكر مهمتي التي منعت الحرب بعد ان كان كل شيء يدل على انها واقعة لا محالة

❀❀❀

وقد كدت انسى ان اخبر القارىء ان قيصر روسيا كافأ البرنس .... على حسن تدبيره في مونت كارلو ومحافظته على التكتم في مهمته السياسية بانه ابعده الى احدى ولايات سيبيريا

الفصل السابع

الامبراطور يمنع وقوع الحرب

كان الطقس في المانيا جميلا وقد بدت برلين لناظري كانها جنة الفردوس فوعدت نفسي براحة تامة وملاذ كثيرة فان محفظتي كانت ملأى بالاوراق المالية وقد عودت نفسي ان احاول التمتع بكل ما في المدينة من سرور وملذات بعد الغياب عنها طويلا

قضيت بعض يومي في احدى قهوات المدينة ولما انتصف النهار نهضت ودفعت ما علي وسرت الى المنزل لاستعد لاتمام جدول الملاذ الذي رسمته لنفسي في ذلك اليوم .

فما كدت اصل الى باب المنزل واخرج

مفتاحه من جيبي حتى فتح امامي كان نادمي « كيم » كان بانتظاري يرقب حضوري عن بعد ولما وقع نظره علي بادرني قائلا : —

— سيدي : انك مطلوب بالتلفون فادركت ماوراء هذا الطلب وتحققت مخاوفي عند ماقال الخادم ان الرقم الذي طلبت به هو رقم ١١

فاستعذت بالله وقلت « قطعت جهيزة قول كل خطيب » فالسلام على الملاذ التي وعدت نفسي بها والسلام على كل مافكرت بعمله فان رقم ١١ هو رقم وزارة الخارجية الالمانية وهذه لا يجوز التأخر او التواني في اجابة طلبها .

فبادرت الى التلفون وطلبت ذلك الرقم فتلقيت الامر بان اكون في « ولهامسترس » في الساعة العاشرة والنصف من مساء ذلك اليوم كذلك طلب مني اكون على استعداد للسفر السريع

فناديت « كيم » واوصيته ان يوقظني لارتدي ملابسي في الساعة العاشرة تماما وعزمت ان انام قليلا لاني كنت اعلم ان مقابلات ولهامسترس الليلية يتلوها غالباً سفر طويل غير منتظر . غير اني قبل ان استسلم لسلطان الكرى راجعت في ذاكرتي مجرى الحوادث الاوربية لعلي ادرك علة طلبي

ان شهر يونيو من سنة ١٩١١ كان شهراً تاريخياً اشغل اكثر وزارات اوروبا فان المانيا وفرنسا كانتا تزأران وتهمان بالوثوب وكانت فرنسا على نوع خاص تبدي روح العداء الشديد والرغبة في الحرب وذلك بلا شك ناتج عن تعضيد بريطانيا العظمى لها فانه قد كان « لجون بول » اليد الطولى في تلك الحوادث . وكنت اعلم ان هناك حزباً كبيراً في المانيا يحاول ان يدفع الامبراطور لخوض غمار الحرب وهذا الحزب كان مؤلفا من رجال الجيش والاسطول واصحاب المصالح في معامل المدافع والاسلحة يعضدهم جميعاً الراي العام وينادي طالبا اشهار الحرب على فرنسا . فماذا ترى كانت الاخبار الاخيرة في « ولهامسترس » ؟

وصلت الى القصر في الساعة العاشرة والنصف صباحا وابلغت حارس الباب اسمي ورقمي فغاب قليلا ثم عاد وقادني الى غرفة

المستشار الامبراطوري الخاص جراف فون ودل. فطلب مني ومن شخص آخر كان هنالك مرتديًا ملابس المساء السوداء الرسمية ان ننتظر في الغرفة الخارجية. فتبادلت مع رفيقي التحية باحناء الرأس دون ان ينبس احدنا بكلمة تبعًا لقوانين الخدمة السرية . وبعد مضي نحو نصف ساعة ادخلنا الى غرفة الكونت الخصوصية فدهشت من هذا الامر لان العادة الجارية في «ولهلمسترس» هي ان يقابل كل شخص على انفراد لذلك دلني هذا السير على ان هنالك امراً غير عادي ولما اصبحنا داخل الغرفة نظر الكونت الينا وحيانا ثم سأل عما اذا كان بيننا تعارف ولما اجبناه سلباً قدمني الى رفيقي وقدم رفيقي الي فعلمت انه الهرفون سندن احد ضباط الحرس سابقا. ثم حدثنا الكونت قائلا

انكما ستؤخذان الى غرفة خاصة في نحو الساعة الحادية عشرة والنصف فتتقدمان الى وسطها ثم تتجهان الى اليمين وتقفان بانتباه ونظام. ثم عليكما ان تجيبا على كل سؤال يوجه اليكما ولكن يجب ان لا تبديا انتما اقل ملاحظة او تلقيا اي سؤال . ولا الح عليكما بوجوب الصمت التام. أفهمتما قط ؟

فأشحنا علامة الاجابة ثم سمعنا جرساً يقرع فنهض الكونت وكان آخر ماقاله لنا « استعدا ». ثم عاد مسرعا واشار الينا باتباعه فنزلنا على سلم ثم سرنا في سرداب طويل رأينا في آخره حارسين ثم بابا كبيراً وقد وقف امامه احد اصحاب البلاط الامبراطوري. فاشار الينا الكونت بالوقوف فوقفنا ثم تقدم هو نحو الباب وطرقه ففتح له وظهر منه ضابط من فرقة الحرس فتذكرنا ما امرنا الكونت به وتقدمنا حتى توسطنا الغرفة ثم التفتنا يمينا ووقفنا بانتظام تام . وكانت الغرفة التي وقفنا فيها كبيرة متسعة وقد انيرت جيداً وامامنا غرفة اخرى صغيرة لا نور فيها سوى نور ضئيل منبعث من مصباح في جانب مكتب كبير وقد ظلل زجاجته قماش شفاف اخضر اللون. فلما وقع نظر رفيقي سندن على ذلك المكتب ظهر على وجهه الذهول والارتباك ولم ابطئ في ادراك سبب ذهوله فهنالك امامنا على ذلك المكتب الكبير جلس ولهلم الثاني امبراطور المانيا .

وقفنا لا نبدي حراكا وتكاد لا نتنفس

نحو خمس دقائق والرجل العظيم الذي امامنا لا يبدي اقل اشارة بل استمر يكتب

اني لست عصبي المزاج ولا ضعيفا فان الخدمة السرية التي كنت اشتغل بها تجعل الانسان جريئا في امور كثيرة غير ان هذا الموقف بدأ يؤثر بي وكنت كلما زدت نظرا الى ذلك الرجل الكبير الجالس بسكون الى مكتبه رجل المانيا العظيم وسيد الحروب وددت لو اني على نهر الفلدت في جنوبي افريقيا على بعد الوف من الاميال عن موقفي هذا

ثم تحرك جلالته وسمعناه يقول

— «ودل احضر الاول منهما»

فاخرج الهرسندن على الاثر وامرت بالتقدم حتى اصبحت على قيد ثلاث خطوات من الامبراطور. ولما عاد الضابط الذي اخرج فون سندن الى الغرفة صدر اليه الامر بمغادرتها حالا ولم يبق فيها سوى ثلاثة الامبراطور والكونت ودل وانا.

لقد رأيت الامبراطور مرارا ولكني لم اقترب منه مرة مثل هذه المرة. فتأملته فاذا به منهمك انهماكا عظيما بورقة كانت في يده. وقد ظهر لي اكبر من هيئته في كل صوره وقد دهشت من الشبه العظيم بينه وبين فردريك الكبير وقد زاده الشيب الذي بدأ في رأسه شبها بسلفه العظيم. واهم ما استلفت نظري عيناه المتقدتان وقد بدا لي انه ما من صورة من صوره تمثلهما حق التمثيل. اذ لعيني الامبراطور غليوم نظراً يصعب جداً تحديده ووصفه وقد خطر لي في تلك الساعة ان هنالك اربعة في العالم قد امتازوا بمثل هذه العيون — عيون رجال يشعرون بانهم خلقوا ليحكموا ويسودوا — وهم اللورد كتشنر وتوفيق باشا وسسل رودس ولي هانج شانج —

وبينما انا واقف افكر في مثل هذه الامور رفع الامبراطور رأسه وخاطبني قائلا : —

— كم من الزمن مضى عليك في الخدمة ؟

— ثلاثة اعوام يامولاي

— هل تعرف بلاد المغرب الاقصى

— نعم اعرفها

— هل صرفت فيها زمنا طويلا

— نحو اثني عشر شهراً

وهنا ظهر على جلالته بعض التردد

اما انا فكنت شديد التأثر والانفعال فبدلا من ان افكر في تلك البلاد لاحظت ان الامبراطور كان مرتديا ثوب كولونيل في فرقة « جرانديرجاردس » الانكليزية وقد زين صدره بنيشان الامتياز وبعد ان فكر قليلا نظر الي كمن عقد العزم على امر ما ثم قال :

— هل تعرف القائد مكلين

— نعم اعرفه

— كيف عرفته

— ساعدني الحظ ان اؤدي خدمة ذات يوم للسر هري مكلين الذي كان في ذلك الوقت قائداً عاما لقوات سلطان المغرب ومدبراً لاموره

— هل تظن انه يتذكر خدمتك له

فترددت قليلا ثم قلت

— لا استطيع يامولاي ان اضمن ذاكرة رجل آخر وعدا ذلك فلا يهمني ان اجرب القائد مكلين في ذلك

فنظر الامبراطور الي نظرة استغراب مقرون بالرضاء ثم التفت الى الكونت ودل وقال له :

— انه يصلح العمل . اعدوا الرسائل فانسل الكونت مسرعا الى غرفة مجاورة . اما الامبراطور فابدى حركة سريعة من الحركات التي اشتهر بها ثم القى نفسه على كرسيه ونظر الي محدقا وقال

عليك ما عدا الاوامر الرسمية ان تحفظ في ذاكرتك هذه الاوامر لقبطان البارجة باتر ثم ناولني ورقة مكتوبة على اني لم انظر اليها حالا لانه استمر في حديثه قائلا : — يجب ان لا يعلم احد شيئا عن مهمتك عدا الكونت ودل اما الرسالة الشفاهية التي تحملها لقبطان البارجة باتر فهذه يجب ان لا يعلم امرها احد . افهمت ؟

— نعم ياسيدي

ثم انحنى الى مكتبه واسند رأسه بيديه وجلس يفكر كمن يدرس امراً هاما وقد ظهرت عليه في تلك اللحظة دلائل التقدم في السن وكانت تبدو على وجهه ملامح الرجل الذي يحمل على عاتقه مسؤولية كبرى ..

اذن هذه هي المهمة التي دعيت لاجلها لان البارجة كانت راسية في مياه اسبانيا على تمام الاستعداد لان تجتاز البحر المتوسط

الى المغرب وعلي ان انقل اوامر سرية من الامبراطور نفسه الى قبطانها

فتحت الورقة التي ناولني اياها الامبراطور وبدأت احفظ في ذاكرتي الفاظها واني لا اشك ان علامات الدهشة مما حوته بدت على وجهي . لا عجب اذا كان ولهلم الثاني يفكر . ولا غرابة في اصراره على ارسال هذه الاوامر شفاهاً لا كتابة . وبينما انا احفظ تلك الاوامر دخل الكونت ودل الى الغرفة وذهب رأسا الى الامبراطور وبدأ الاثنان يتكلمان همسا . ثم نظر الامبراطور الي وقال

— هل حفظتها

— نعم يا مولاي . فتناول الورقة واوقد عوداً من الكبريت وظل ممسكا بها حتى صارت رماداً . ثم اشار الينا بالانصراف فتراجعت الى الوراء والكونت ودل بجانبي حتى بلغنا الباب . وكنت اشعر بعبء الحمل فاني كنت مطلعا على سر من الاسرار السياسية تدفع وزارات انكلترا وفرنسا وكبار اصحاب المصالح المالية في العالم الالوف بل مئات الالوف من الجنيهات لمعرفته

خرجنا كما تقدم من حضرة الامبراطور متراجعين الى الوراء دون ان ندير ظهورنا نحو جلالته ولا يزال يتمثل في مخيلتي وهو جالس الى مكتبه والنور ينير وجهه والظلام والسكون سائدان حوله في منتصف الليل . في غرفة تحت الارض من بناء وزارة الخارجية جلس امبراطور المانيا العظيم يشتغل على انفراد — بينما اكثر رعيته نيام — يعالج اطراف سياسة معقدة ما كان يجسر ان يتناقش بشأنها مع احد سوى الكونت ودل ونجاه الاكبر

ولما بلغنا القاعة الخارجية اخذني الكونت ودل الى مكتبه وهناك ناولني رزمة مختومة وقال :

— ان هذه ايها الدكتور مهمة من اخطر المهام واجلها فان هنالك خطراً عظيما من وقوع حرب كبرى وعندنا بعض الشبهات في الدولة التي تدبر هذه الحالة من وراء ستار غير اننا نود ان نبحث لنتحقق من شبهاتنا هذه

انت على علم تام بالحالة العمومية فلا حاجة لوصفها لك كذلك تعلم المساعي العظيمة المبذولة هنا لدفع جلالة الامبراطور للحرب . ان هذه الاوراق لسفارتنا في باريس تسلمها

اليها غدا وصولك ويجب ان تصل الى باريس غداً الظهر ولكي يتيسر لك ذلك عليك ان تسافر في الساعة الثالثة والنصف من صباح اليوم . وستسلمك سفارتنا في باريس رزمة اخرى تأخذها معك الى مدريد وبعد تسليمها الى سفارتنا هناك تستطيع السفر الى برشلونه حيث تجد البارجة بانتر كذلك يجب ان تزور جبل طارق وتتحقق من حالة ذلك الموقع وقوته واستعداد الاسطول البريطاني هناك ثم سكت قليلا وعاد فاستطرد الحديث قائلا : هذه المرة لا تذهب الى الخزانة العامة بل ان نفقاتك كلها من الجيب الامبراطوري الخاص وبعد بضع ساعات اهيء لك مبلغاً من النقود الفرنسوية والاسبانية وارسلها الى منزلك واني آمل ان تنفذ الاوامر التي صدرت اليك حق الانفاذ وعسى ان لا تنسى الرسالة الخصوصية التي كلفك بها الامبراطور ووعيتها في ذاكرتك فاكدت له اني لم انس شيئاً وبعد ان ودعني متلطفاً اسرعت الى منزلي فوجدت خادمي الامين « كيم » قد اعد كل شيء كما اريد

ومن المعلوم ان المسافر في رحلة كهذه لا يأخذ معه امتعة كثيرة بل كل ما يأخذه ملابس النوم وبعض ادوات الزينة وهذه ادوات رافقتني في رحلات عديدة في انحاء العالم . واني اذكر هنا اني ما حملت مطلقاً مسدساً في حياتي بل كل ما كنت اتسلح به بعض المواد الكيماوية من نشوق ونحو ذلك فانها افتك سلاح يلقى في وجه اي شخص يهاجمك ولم يطل الوقت حتى جاء رسول الكونت ودل يحمل النقود التي كان قد وعدني بها وهي الف فرنك عملة فرنسوية والفا « بيسو » عملة اسبانية وكانت قد حانت الساعة الثالثة ولم يبق لموعد القطار الا نصف ساعة فسرت الى المحطة وكنت اعلم ان قطار باريس يكون غالباً مزدحماً واذا لم يصل المسافر قبل موعد السفر يصعب عليه ان يجد مجلساً مريحاً . فلما وصلت الى المحطة جريت على العادة المعلومة في مجاملة العمال فتيسر لي مجلس حسن في وسط المركبة بقرب النافذة فوضعت ما احمله من الامتعة وزرت سائر المركبات فان عادتي ان ارى رفاقي في السفر وقد كان ذلك واجبا بنوع اخص في رحلتي هذه

سار القطار بنا من برلين ولم يقع ما

يستحق الذكر حتى وصلنا الى المحطة الاخيرة قبل محطة الحدود الالمانية فهناك نظرت من النافذة فرايت رجلين وامرأة دخلوا الى الغرفة المحاذية لغرفتي وكانت كل الدلائل تدل على انهم مسافرون معا . غير انه ما كاد القطار يتحرك حتى دخلت المراة الى غرفتي وطفقت تشكو من مضايقة الرجل الذي في الغرفة الثانية لها وطلبت مني ان ارد عنها شره فنهضت مسرعاً لمساعدتها في نقل امتعتها وكنت الى تلك اللحظة لا يخامرني ادنى شك في امرها ولم يتبادر الى ذهني ان في الامر دسيسة وذلك لاني ما كنت اقدر انه يخطر لاحد التداخل في امري لانه لم يكن هنالك احد يعلم بهوتي الا الامبراطور نفسه وفون ودل على انه كان هناك بلاشك كثيرون لو علموا بحقيقة الامر لبذلوا اقصى المجهود لمنعي من الوصول الى حيث اقصد .

ما كدت اتوسط الغرفة واتناول الحقيبة التي اشارت السيدة اليها حتى نهض احد الرجلين ساخطا وقال

— كيف تجرأ ياهذا ان تمس امتعة زوجتي. وكانت السيدة المشار اليها عندئذ واقفة في الممر بين الغرفتين وقد ادرت ظهري لها ولكن كنت استطيع رؤيتها في المرآة التي امامي فلاحظت انها تشير اشارة معنوية للرجل فادركت حالا ان وراء الاكمة ماوراءها وان الامر مدبر ومتفق عليه بينهما غير اني لم ادرك مايستفيدان من هذه المناورة .

ولكن لما جاء حارس القطر اتضح لي قصدها فان الرجل نظر اليه وطلب منه ايقافي بتهمة الاعتداء على امتعة امرأته وعضدته السيدة التي كنت قد اتيت لمساعدتها في هذه التهمة فحاولت عبثاً ان اشرح الامر للحارس ولكنه لم يشأ ان يسمع كلامي وسجنني في غرفتي مقفلا ابوابها لتسليمي الى ناظر المحطة في كولون عند الوصول اليها

فجلست في سجني افكر في الامر وقد تملكني الغيظ الشديد خصوصاً من نفسي لاني مع خبرتي الطويلة وقعت في هذا الفخ البسيط الذي نصب لي — ان بساطته هي التي اوقعتني فان الانسان عنده مايستعد للكبائر تتغلب عليه الصغائر على اني حتى الساعة لم ادرك غايتهم فانهم لم يكن بوسعهم ان يوقفوني بتهمة تافهة كهذه . ثم ان برقية واحدة الى برلين تنهي الامر ولكن لا بد

من وقوع بعض التأخير فلا اصل الى باريس حتى الساعة السادسة مساء والكونت ودل الح علي بوجوب الوصول عند الظهر

ان التأخير في ظروف كهذه ذو خطر عظيم فان التأخر ست ساعات قد تكون عاقبته وقوع الحرب التي كانت حديث الكبير والصغير وما كان يلزم لاضرام نارها اكثر من خطأ صغير يرتكبه موظف من موظفي احدى الحكومات فان فرنسا كانت على ما يظهر متعطشة للحرب . وكان يجب ان تصل رسالتي الشفهية الى قائد البارجة باتر في الوقت المعين والا يحدث الانفجار

ولما مرت كل هذه الامور بذاكرتي بدأت ادرك سبب رغبتهم في تأخيري على اني لم استطع ان اعرف كيف عاموا بمهمتي ويظهر انهم اتبعوني من منزلي الى «وطامسترس» وراقبوا كل حركاتي

ولما وصلنا الى كولون اسرعنا جميعاً الى غرفة ناظر المحطة حيث تقدم الكائدون لي وابلغوه التهمة فانفردت به واريته بطاقتي السرية ثم اخرجت من جيبي الرسالة الرسمية التي احملها الى السفارة الالمانية في باريس وعليها ختم وزارة الخارجية بالشمع الاحمر

فظهر على الناظر بعض التأثر ثم زدت على ذلك قولي : « ان هذه التهمة غريبة لا معنى لها . فاوض «وطامسترس» على نفقتي اما اذا اردت تأخيري فالويل لك . هذا كل ما عندي . قد اخبرتك بالحقيقة انا لا اعارضك في اداء واجباتك غير اني اعتقد انك تستعمل الحكمة »

فكان ما اردت وعمل ناظر المحطة بالحكمة وإني اتخيل ماكان يدور في ذهنه في تلك الساعة كما يأتي :

ان هذا الرجل يقول انه رسول الامبراطور فالقطار لا يخرج من حدود المانيا قبل ثلاث ساعات فان لم يكن كما يدعي نستطيع القبض عليه قبل خروجه من الحدود . اما اذا كان كما يدعي واوقفته هنا واخرته عن السفر فسأجلب على نفسي بلا شك شراً عظيما »

وبعد ان فكر قليلا نظر الى الآخرين وقال لهم ان التهمة تافهة وليس هنالك ما يثبتها فاسرعوا بالخروج من مكتبه اما انا فاسرعت الى القطار ولم ار لهم اثراً بعد ذلك واوصاني ناظر المحطة بنفسه حتى مجاسي فيه

ولما وصل القطار الى باريس اخذت سيارة الى شارع ليل حيث السفارة الالمانية فقابلني احد الوكلاء واستلم رسائلي واعطاني خطابين الى السفارة الالمانية في مدريد فذهبت حالا الى مكتب البريد وارسلت الوصل الذي اخذته منه الى «ولهامسترس» طبقا للاوامر المستديمة التي لدى المندوبين السريين الذين في خدمة المانيا ثم سافرت الى مدريد

ولما كان وصول القطار متأخراً ببضع ساعات عن موعده لم اذهب الى السفارة ذلك المساء بل قابلني مندوب منها على المحطة واستلم مني الرسائل واعطاني وصلا بها فارسلت الوصل الى «ولهامسترس» وواصلت السفر الى برشلونه وهناك تجاه تلك المدينة في عرض البحر رست البارجة باقتر . فوجدت صعوبة عظيمة حتى تيسر لي استئجار زورق ينقلني الى البارجة ولما وصلت اليها كان الليل قد ارخى سدوله فاوقفنا الحارس عند الاقتراب منها ورغما عن قولي له اني ارغب ان ارى القبطان اصر على وقوفنا بعيداً . وبعد النداء عدة مرار جاء الضابط النوبتجي الى حافة السفينة وسأل عما نريد . فاجبت قائلا :

— ان لدي اوامر امبراطورية للقبطان

فاكتفى الضابط على مايظهر بقولي هذا واذن لي بالصعود الى البارجة واخذت راساً الى غرفة القبطان فاذا به رجل في الاربعين من العمر وضاح الجبين عريض اللحية . فنظر الي طويلا ثم قال :

— ماوراءك وما هو الرقم التي تعرف به في ولهامسترس

— رقم ١٧

فبدت على وجه القبطان دلائل الارتياح فاني كنت اعلم انه جاءه تلغراف من «ولهامسترس» ينبئه ان رقم ١٧ قادم اليه على انه ظل على حذر وقال :

— ممن تلقيت اوامرك في اول الامر

— من الكونت ودل

— وبعد ذلك

— من الامبراطور نفسه وجلالته امرني ان ابلغك الرسالة الآتية وعليك عند سماعها ان تبيدها للكونت ودل رأساً بالارقام السرية

فلما قلت هذا وقف القبطان وتوجه الى الباب واطل منه ثم عاد واقفله من

الداخل وعاد الى كرسيه وقال

— قل ما عندك

فاعدت عليه ما كان الامبراطور قد كتبه على الورقة التي احرقها بعد ان حفظت في ذاكرتي ما بها وهو

« يجب عليك — على اية حالة من الحالات ومهما يكن لديك من الاوامر الرسمية او ما يرد عليك منها — ان لا تستعمل القوة عند وصول باتر الى اغادير . ومهما تكن الظروف ومهما يقع من الاعتداء عليك ويعد مهيناً لشرفك بموجب القانون البحري لا يجب مطلقاً ان تستعمل القوة ضد فرنسا وانكلترا »

فلما سمع قبطان باتر هذه الاوامر دهش لها مثل دهشتي عند ما قرأتها امام الامبراطور — ان هذه الاوامر كانت على خط مستقيم على عكس ما امر به رسمياً بان يتوجه الى اغادير ويقوم بمظاهرة عدائية نحو المصالح الفرنسوية والانكليزية فيها .

ان الاوامر الاولى كان القصد منها اثارة الحرب وهذه الرسالة الشفهية يقصد بها منع الحرب . ولو سمعني المتحمسون الالمانيون واصحاب معامل المدافع والذخيرة ورجال الجيش والبحرية ابلغ هذه الرسالة الى قبطان باتر لثاروا غضباً وقاموا وقعدوا ساخطين . ان الامة كلها كانت تطلب الحرب غير ان الرجل الساكت في غرفته المظلمة تحت الارض في قصر ولهلمستراسي راى غير ذلك ولكي لا يثير سخط الراي العام بمقاومة اميال ومضادة الاوامر الرسمية الصادرة الى باتر جهاراً فعل ذلك سراً بارسال تلك الرسالة الشفهية عالماً انه بذلك يخدم مصالح امبراطوريته ويحافظ عليها

وحادثة اغادير معروفة في التاريخ والقارئ يذكر ولا شك كيف ان البارجة باتر سافرت يوم الاحد ٧ يوليو الى المغرب ودخلت بالقوة الى ميناء اغادير واقامت قيامة الدول ببقائها في ذلك الميناء اكثر من اسبوعين . كذلك قد يتذكر القارئ ان بارجتين احداهما انكليزية والاخرى فرنسوية جاءتا الى اغادير ووقفتا وقفة الاستعداد للقتال وكانت ضباطهما يشوقون للبدء بالحرب واطلاق النار . غير انه قل من يعلم ان ضباط البارجتين الفرنسوية والانكليزية ارسلوا انذاراً الى قبطان باتر بانه يجب ان يغادر الميناء او يضطرونه الى

ذلك بالقوة. ومعنى ذلك اشهار الحرب

فلو لم يكن قبطان باتر قد تلقى رسالة الامبراطور لكان اضطر بحسب القانون البحري الذي لديه ان يقابل هذا الانذار بالقوة. ولو كان ذهب الى ذلك الميناء بدون سبب الاوامر الرسمية التي لديه دون سراسا لاضطرمت نار الحرب في ميناء اغادير فان اقل شيء كان يدعو اليها ويوقد نارها. غير ان «باتر» خرجت من الميناء بسكون تام

وكان هذا اعظم دور من ادوار خطة الامبراطور السياسية فانه كان يعلم ان فرنسا وانكلترا حليفتان غير انه لم يكن يعلم الى اية درجة من الاخلاص بلغ تحالفهما فارسل باتر الى ميناء اغادير وبذلك علم ان وراء كلمة الاتفاق الودادي معنى اكبر وهو ان انكلترا وفرنسا متفقتان اتفاقا اكيداً على مقاومة المانيا في ميدان القتال كتفاً لكتف. فلعب لعبة استاذ ماهر في السياسة اذ اوصل الحالة الى شفا الحرب ثم بينما الشعب الالماني يلح بها ويطلبها وانكلترا وفرنسا استعدتا لها عاد فتجنبها بعد ان بلغ قصده وعلم ما اراد ان يعلمه

الفصل الثامن

البلقان وحياد اوربا

ان ما اختبرته في الدور الاول من احوال السياسة بين المانيا وانكلترا وفرنسا جعلني على استعداد لتوقع كل ما يكن الحسبان غير ان ما وقع في اواسط اكتوبر عام ١٩١١ تجاوز كل تصوراتي. ان حادثة المغرب الاقصى اثبتت للامبراطور ان الاتفاق الودي كان متيناً وان انكلترا وفرنسا متفقتان على خوض غمار الحرب جنباً الى جنب. ولما كنت قد اختبرت السياسة الالمانية علمت علم اليقين ان «ولهلمسترس» ستخطو خطوة في سبيل مقاومة ذلك والاحتياط له. كذلك علمت انه عند ما يأتي دور العمل اكون من الذين يستخدمون في سبيل ذلك. ومن البديهي ان يقع الاختيار على الرجل الذي شهد ادوار الرواية الاولى واشترك في الدسيسة من اولها

فلم اخطئ في شيء من ظنوني ولم يطل امد انتظاري فقد دعيت الى ولهلمسترس فذهبت وقابلت فون ودل فدعاني الى الجلوس ثم هنأني لنجاحي في مهمتي السابقة

واعطاني تحويلا بمبلغ ٥٠٠٠ مارك او ما يعادل ٥٠٠ جنيه وقال لي ان جلالة الامبراطور سر كثيرا من اعمالي وانه راض عني ثم انتقل سريعا الى الموضوع الذي دعاني من اجله فقال

— اريد منك ان ترافق الهرفون كدلن وختر بصفة كاتم اسرار له وقد اخترتك لهذا العمل نظرا لمعرفتك اللغة الانكليزية ولسعة اطلاعك على الامور الحاضرة . سيعقد اجتماع بين فريق من رجال السياسة في نقطة معلومة في غابة «طاوس» وستكون انت الغريب الوحيد بين المجتمعين وعليك ان تحتاط لكي لا يلم احد من هؤلاء المجتمعين وان تعدم كل كتابة يتركونها بعدهم فتحرق كل ورقة بحضور الهرفون كدلن وختر

ثم اني اريد منك ان تصل الى موضع الاجتماع قبل وصول هؤلاء السياسيين بثلاثة ايام وعليك ان تدبر كل ما يلزم لاجل طعامهم ونحو ذلك . وستكون انت كما تقدم الشخص الوحيد الذي يحضر اجتماعهم وقد اتخذنا التدابير اللازمة للمحافظة على السر والتكتم في تلك الجهة . وعليك ان تفهم اننا نود ان يبقى امر هذا الاجتماع مكتوما كل الكتمان واني اقترح عليك ان تدبر كل شيء مما يظهر ان المجتمعين ذهبوا الى تلك الجهة للصيد والقنص واترك لك الحرية في تدبير كل ما يلزم . اما الاشخاص الذين سيحضرون هذا الاجتماع فقد يكونون ممن تعرفهم وقد لا تعرف احداً منهم على اني ساكتب لك اسماءهم

ثم تناول قلما وبدأ يكتب واغتنمت انا تلك الفرصة لافكر في الامر . ان المانيا كانت مهددة فانكلترا وفرنسا وروسيا قد اتحدت واتفقت على جعلها في عزلة وكان الامبراطور يسعى في سبيل انقاذها من الاخطار التي تهددها على اني مع علمي كل ذلك لم ادرك الى اية درجة من الخطورة وصل الامر حتى ذهبت الى الغابة المعينة

ولما انتهى فون ودل من الكتابة اعطاني الورقة فاذا فيها الاسماء الآتية :

اللورد .... المستر ..... عضو في البرلمان . الامير الفون تربتز الجنرال فون هينجن الجنرال مورتز بتر فون اوفنبرج والهرفون كدلن وختر

واني اعتقد انه لو كانت هذه مهمتي

السياسية الاولى بدلا من ان تكون بعد احدى عشرة سنة قضيتها في الخدمة لكانت دهشتي لا تقدر ولا تدرك

ان اجتماع هؤلاء الاشخاص في غابة طاوس يدل على امر ذي بال . وخصوصا عند النظر الى ما كانت تقوله صحف اوربا فان تلك الصحف كانت تروي روايات تدل على ان المانيا وانكلترا على اهبة الدخول في حرب طاحنة وفي ذلك الحين كثر التحدث بامر الجواسيس الالمان في انكلترا ومع ذلك كنت ارى امامي اسمي عضوين كبيرين من اعضاء البارلمان الانكليزي سيجتمعان بوزير حربية المانيا في مكان واحد اجتماعا سريا. كذلك كنت اعلم ان هذين الوزيرين قد اتيا لزيارة سرية بدعوة من وزارة الخارجية الالمانية. وقد قصدت المانيا ان تري هذين الوزيرين مبلغ استعدادها الحربي ولا سيما استعدادها للحرب في الهواء.

على ان فون ودل لم يكن قد اتم حديثه فاستأنفه قائلا : —

ان هؤلاء الاشخاص سيجتمعون في شلانجنباد في منتصف هذا الشهر. انك بلا شك تعرف هذا الموضع في جبال طاوس فانه احد منازل الصيد التي تخص الامبراطور . واني اقترح عليك ان تذهب الى ذلك المكان غداً وتعد كل شيء لاستقبالهم واملي انك تفهم وتدرك كل ما هو مطلوب منك ايها الدكتور

ولما اجبته بالايجاب صرفني ففارقته واسرعت الى منزلي لاخلو بنفسي وافكر في ما يجب علي ان افعله . ان مهمة كهذه تتطلب تفكيراً طويلا فبعد ان امرت خادمي ان يعد لي امتعتي اخرجت الورقة التي كتبها لي فون ودل واعدت قراءة الاسماء التي كتبها فيها

اللورد . . . . صديق الامبراطور العزيز ثم المستر . . . . من اعضاء البارلمان ومن موظفي وزارة البحرية ثم الهر فون وختر وزير خارجية المانيا وموضع ثقة الامبراطور رغماً عن معاكسة كثيرين من رجال البلاط الامبراطوري. ثم يأتي بعد هؤلاء الاميرال فون تيربيز والجنرال فون هيرنجن رئيسا اركان حرب الجيش الالماني والبحرية الالمانية والاخير منهما عقام فون مولتكي في المانيا ولما وصلت الى اسم اوفنبرج وقفت مفكراً. ان فون اوفنبرج

هو وزير حربية النمسا والميداليمي لمستشار امبراطور النمسا الخاص وبناء على ذلك يكون الاجتماع مؤلفاً من نواب ثلاث دول واجتماع ستة مثل هؤلاء الرجال اصحاب العقول الكبيرة اجتماعاً سرياً في احد منازل الصيد في غابة يدل على دسيسة ضد فرنسا وقد اهتممت بالامر كثيراً غير اني عللت النفس بمعرفة كل دقائقه بعد ان يتم الاجتماع طبقاً لما هو مقرر

وفي اليوم الثاني عند الصباح قصدت منزل الهر فون كدرلن وختر طبقاً للاوامر الصادرة الي فادخلت الى غرفته الخاصة على عجل وبدون اقل تأخير فوجدته جالساً الى مكتبه فاغتنمت فرصة بضع دقائق كان يحدثني في اثنائها بامور هامة — لااطلق لافكاري العنان حاصراً اهتمامي في الشخص الجالس امامي

لو اردنا ان نحكم على الانسان بموجب النظر اليه ومظاهره فلا يمكن مطلقا ان يظن ان الهر فون كدرلن وختر رجل سياسة او ذكاء غير انه رجل عظيم ولا شك ان المانيا وامبراطورها يشعران بفقده كثيراً

ان هيأته ذكرتني بفلاح من فلاحي البوير في جنوبي افريقيا او احد رجال الطبقة العامة من الانكليز وهو ذوق سيء في اختيار الوان صدرته فاني لن انسى شكل الصدرة التي كان مرتديا بها في تلك الساعة فانه شكل مضحك . غير انه عندما يرفع بصره للنظر الى محدثه ينسى الناظر اليه سوء ذوقه وغلاظة شكله وينتقل حالا الى الجد والعمل . اخبرته اني قد جئت لاتلقى اوامره الشخصية فالتفت الي وطلب ان الزم الصمت ثم اعطاني بعض تعليمات هامة قدرت ان ادرك منها بعض ماينتظر حدوثه بنوع التخمين غير انه لم يشر اقل اشارة الى قدر العاصفة المقبلة ومبلغ هولها.

ثم تركته وذهبت لانفاذ اقتراح الكونت فون ودل فاعددت كل ما يلزم من حوائج الصيد وتوجهت الى المحطة حيث ركبت قطار الساعة الثانية عشرة والنصف الى شلانجنباد. ولما وصلتها توجهت تواً الى فندق « كور » حيث كتبت اسمي في سجله الهر بامبرجر من برلين فاذا ذهب احد القراء مرة الى تلك البلاد المشهورة بمياهها المعدنية واراد ان يتحقق صدق قولي فليبحث في سجل ذلك الفندق . ان منابع

شلاجنباد المدنية في « نساو » هي اقرب موقع الى الموضع المعين لاجتماعنا

ظللت بضعة ايام في ذلك الفندق وحدي لا ارى احداً ثم بدأ السياسيون الذين تقدم ذكرهم يصلون الواحد بعد الآخر فجاء اولاً المندوب النمسوي الجنرال مورية ترفورن اوفنبرج وهو رجل رزين بعيد عن مظاهر الفخفخة عرف عنه انه موضع ثقة الامبراطور فرنسوا جوزيف وانه حائز لرضاه التام وقد وجدت هذا الوزير مولعاً بصيد السمك فرويت له قصصاً مختلفة عن صيد السمك في نيوزيلاند جعلته يأنس بي ويعطف علي

ثم جاء بعده الاميرال فون تربتز والجنرال فون هيرنجن. اما الاميرال فكان مثال رجال البحرية الالمانية طويل القامة ضخم الجثة ازرق العينين عريض اللحية وقد وجدته رقيق المعشر لطيف الحديث . اما فون هيرنجن فكان على عكسه في كل شيء نحيف الجسم محدودب الظهر . عبوس عيناه غائرتان ذكرني النظر اليه بمومياء مصرية من عهد رمسيس الثاني وربما كان كثير الشبه برمسيس نفسه

وقد كان موعد الاجتماع المعين على ما اتذكر يوم ١٢ اكتوبر والموضع منزل الصيد المعروف باسم « اهرنكروج » فلما ان يوم ١٢ اكتوبر صباحاً استأجرت مركبة وملأتها بالمأكولات والخمور وغير ذلك من اللوازم وذهبت بها الى ذلك المنزل الكائن على بعد ١٦ ميلاً في الغابة وقد كان الحرج حول هذا المنزل خالياً من المنازل وعلى دائرة تزيد عن سبعة اميال . وقد شيد ذلك المنزل بالحجر وهو يشبه على نوع ما المنازل الانكليزية ويحتوي على خمس غرف اوست غرف للضيوف وقاعة كبيرة للاجتماع وغرفة متسعة للصباح ولما كان المنزل المذكور ملكاً للعائلة المالكة فقد كان فيه حارسان من حراس الاحراج والغابات الامبراطورية فلما بلغت المنزل وجدتهما جالسين الى نار موقدة سررت بها كثيرا وجلست اليهما اصطلي معهما لان البرد كان قارصاً والهواء رطباً خصوصاً في ذلك الحرج الجبلي .

وقد كان يحرس طرق المنزل من الجانبين بعض رجال الجندرمة وقد تفرق آخرون في اطراف الحرج بحيث تكون منهم حلقة لمنع اي كان من الاقتراب من المنزل

ولما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر حضر المندوبان الالمانيان والمندوب النمسوي ما المندوبان البريطانيان فلم يحضرا حتى الساعة الرابعة . ولما وفدا كان الجميع بانتظارهما وقد بدأ كدرلن وشتر يبدي القلق لتأخرهما . لم اكن قد رأيت كبيرهما من قبل وقد وجدته مثالا لطبقة النبلاء الانكليز فهو رزين مهذب تبدو دلائل المهابة والجلال على وجهه وفي حركاته .

اما رفيقه الشاب فكان سريع الحديث عصبي المزاج مع شيء من الغرور والتيه في حركاته فتذكرت عند وقوع نظري عليه اني قابلته في حرب البوير ولما كان يخلع رداء السفر الخارجي نظر الي وقال

— اظن اني رأيتك قبل الآن

— اني قابلت حضرة السيد الشريف في مستشفى الميدان في بلومفونتين اثناء حرب البوير

— آه نعم نعم تذكرت الآن

اما حكاية اجتماعنا فكانت ان العضو المذكور كان قد احضر جريحًا الى المستشفى وتوليت بنفسي امر تضميد جراحه . فدل تذكره ذلك على حسن ذاكرته

هذا وقد ان تناول المجتمعون بعض المرطبات انتقلوا جميعًا الى غرفة «الصباح» الكبرى وجلست انا خارجًا لكي لا ادع احدًا من رجال الجندرمة او سواهم يقترب الى مسافة يمكن من سماع الحديث في المنزل ولذلك لم احضر القسم الاول من المؤتمر على اني دعيت للدخول بعد مرور نحو ساعة على اجتماعهم

ولما فتحت الباب ودخلت الغرفة شعرت بان هناك امرًا خطيرًا وكانت دلائل ذلك بادية على اوجه المجتمعين جميعًا . ولما كان الظلام اخذ يرخي حجابه انرت الغرفة ثم تراجعت الى احدى زواياها وجلست انظر الى اوجه اولئك الرجال الذين التفوا حول المائدة يتحدثون في امور الممالك والعروش . وقد كان امام كل منهم اوراق كثيرة قد امتلأت بخط يده ما عدا فون هير بجن فان الاوراق التي امامه كانت بيضاء لم يخط عليها حرفًا لانه كان يعتمد في كل شيء على ذاكرته العجيبة

وكانوا على ما يظهر قد انتهوا من حديثهم وكان موريتز النمسوي آخر من تكلم فاني سمعت آخر حديثه عند دخولي

وهو «ولكي نستطيع ان نصل الى هذه الغاية يجب علينا ان نحل عقود التحالف البلقاني»

ثم نهض كدرلن وختر من مجلسه على رأس المائدة ونظر يميناً وشمالا باظريه النافذين ثم حدق ببصره في وجه اصغر العضوين البريطانيين والامير الفرنسي ثم التقى نظره بعد ذلك بنظر موريتز الجالس الى الجانب الاخر من المائدة ينتظر بفارغ الصبر ان يرى تأثير جملته الاخيرة. ثم التفت الى هيرنجن وبعده الى العضو البريطاني الاخر وقال :

« ايها السادة ان النقطة التي اشار اليها الجنرال موريتز حقيقة بالاعتبار ويجب الموافقة عليها على ان ذلك يقتضي تصديق رؤسائنا وانها كما قال اللورد ...... تمرقل بعض الامور الى درجة معلومة على ان امور البلقان تهم النمسا اكثر من سواها لذلك ارى من العدل والصواب موافقتها على ما يرغب. (واني اذكر وانا اكتب هذه السطور السكون الذي ساد بين الجميع والاهتمام الذي بدا على وجوههم فانهم كانوا يعلمون ان معنى هذا الاقتراح الحرب في البلقان) . «انا قد اتفقنا على النقط الرئيسية والقصد الاول من اجتماعنا كما قال جلالة الامبراطور وهو التفاهم في ما يتعلق بالتفاصيل الفنية وهذا قد اتممناه وانه لما يستوجب الاسف ان هذه النقطة الاخيرة اي نقطة البلقان لم يجر بحث سابق فيها . واني لذلك اقترح ان نؤجل اجتماعنا الى ما بعد مفاوضة حكوماتنا ثم نجتمع مرة ثانية يوم الاربعاء اذا رأينا موجباً لذلك

(على ان الاجتماع الثاني لم يتم ولم تكن ثمت حاجة اليه لان جميع الحكومات وافقت النمسا على رأيها في المسألة البلقانية)

ولما انتهى كدرلن وختر من حديثه جلس فوافق اللورد .... على اقواله بالقول واكتفى الباقون باحناء رؤوسهم دلالة على الموافقة

وقد ظهر لي ان مؤتمرهم انتهى وكذلك دلني حديثهم على انهم جميعاً على اتفاق تام ولكن ترى ما هي شروط اتفاقهم ؛ هذا ما سأعلمه فيما بعد

ثم نظر كدرلن وختر الي وناداني باسمي المستعار قائلا

— « تقدم يا مبرجر واجمع كل ما تجد من الاوراق واجعله طعاما للنار »

فتقدمت لالبي طلبه. اما هو فالتفت الى الحاضرين وقال :

« ايها السادة ليأخذ كل منكم ما يريد ان يحفظه من الاوراق اما الباقي فيحرق حالاً »

فوقفت ريثما جمع كل منهم ما اراد ولاحظت ان الانكليزي الشاب اخذ اكثر اوراقه وكلها مكتوبة بينما هيربجن لم يخط سطراً واحداً

ولما انتهوا من عملهم هذا تقدمت وجمعت كل ما بقي من الاوراق.

على اني اتممت عملي هذا بكل بطء بحيث كنت انظر الى كل ورقة التقطها واقرأ ما فيها لكي لا احرق ورقة ذات اهمية ولكي اعي في ذاكرتي ما فيها من المذكرات المكتوبة . وكنت اعتني ان لا اخلط بين ورق الواحد والاخر بل كنت اتم النظر الى اوراق كل منهم على حدة فاستطعت بذلك ان ادرك مجرى افكار كل منهم وارائه وقد كان بين تلك المذكرات احصاآت كثيرة عن الجيوش البرية والاساطيل . مثال ذلك ان الانكليزي كتب احصاء دقيقاً لعدد الجيش الذي تستطيع النمسا والمانيا تجريده في حالة نشوب الحرب. وكذلك كتب كدولن وغيره احصاء قوة انكلترا والنمسا بحسب اقوال المستر ..... عضو البارلمان والجنرال موريتز. كذلك موريتز دون بيانا لقوات انكلترا والمانيا .فيظهر من ذلك ان المشروع كان مشروع تحالف ثلاثي بحيث ان كلا منهم بحث في مقدار ما يمكن الاعتماد به على الاخر

على اني لم ادرك حقيقة الموقف والغرض من هذه الاعمال حتى تم احراق الاوراق وتفرق المجتمعون ازواجا يتحدث كل اثنين منهم معاً في جهة من جهات الغرفة فاني عندئذ استطعت ان التقط بعض احاديثهم بينما كنت انتقل بين المائدة وموقد النار وسأحاول ان اروي للقارئ ما استطعت سماعة ووعته ذاكرتي :

سمعت هيربجن وقد خلا باللورد ...... يقول له : — « انا على استعداد تام في كل وقت لتجريد ثلاثة ملايين ونصف مليون من الرجال بدون ان نحتاج الى الاحتياطي — والنمسا بموجب المعاهدة الاخيرة التي بينها وبيننا تقدم لنا مليونين من الجنود . اما الامور المالية التي تتعلق بتجريد هذا الجيش فامرها في يد سواي »

فقال اللورد شيئاً لم استطع سماعه تماما غير انه على كل حال كان يهز راسه دلالة على الموافقة والتصديق على اقوال محدثه

ثم رايت أصغر العضوين الانكليزيين قد انفرد بتربتز ولما كان لا يعرف الالمانية الاقليلا كانا يتحدثان بالفرنسوية واحياناً بالانكليزية . فسمعت تربتز يقول : — « اننا بلاشك اذا حصل حادث خارجي نعتمد على انكلترا في تلافي ذلك فانه من الواضح ان ذلك عمل من شأن اسطولكم الالتفات اليه »

فبدا على وجه الشاب الانكليزي شيء من دلائل الاحتراس ثم اجاب :

« ان هنالك امراً يجب ان يحسب له حساب . فلنفرض ان الولايات المتحدة وقفت في وجهنا في هذا الامر »

فاجاب الامير ال الالماني على ذلك بالاستخفاف ثم قال ان الولايات المتحدة كثيرة الاهتمام بامورها الداخلية وذلك يجعلها لا تلتفت الى هذه المسألة وهي على كل حال اذا حدث حادث تحتاج الى اسطولها لحماية شواطئها على انه ظهر من اقواله انه يميل الى ترك الامر للانكليزي

اما كدرلن وختر ومورتز فكانا في تلك اللحظة قد انفردا وخاضا في موضوع المسألة البلقانية وقد شممت حينئذ رائحة الحرب المقبلة في البلقان

وقد سمعت موريتز يقول « انا بلا شك نستطيع ان نضع حداً لذلك ونصل الى النتيجة المرغوبة . في بضعة اشهر . وقد عامت قصده من ذلك وهو ان النمسا تترك المسألة البلقانية وتوقد نارها . اما كدرلن وختر فكانت تبدو على وجهه دلائل الاهتمام الشديد ثم قال : « لا بد من اتمام ذلك » .

وقد تسقطت الفاظا غير هذه كثيرة حول الموضوع فاوضحت لي حقيقة الحال على اني مع كل ذلك لم ادرك تماما خطورة المسألة التي كانوا يناقشونها الا بعد ان قرأت بعض الاوراق الرسمية وهذه لا استطيع الآن ان اوضح محتوياتها غير اني اقول ان نتيجة ذلك الاجتماع كانت المحافظة على السلام بين دول اوروبا الكبرى اثناء حرب البلقان

الفصل التاسع

في بلاد البلقان

ذهبت بعد قضاء مهمتي في غابة طانوس الى بلدة البك وهي بلدة جميلة يقصدها طلاب النزهة والسرور كائنة على شاطيء بحر البلطيق وقد كنت والحق يقال في حاجة عظيمة للراحة لان اولي الامر في ولهلمستراس كانوا قد احتكروا كل وقتي في السنة الماضية كلها. على اني ما كدت ادبر امري واعد نفسي للراحة المرغوبة حتى جاءتني رسالة برقية من ولهلمستراس يطلب بها مني العودة «في اقرب فرصة» على ان هذه الجملة عندما توجه الى الموظفين السريين يكون معناها الحقيقي «احضر على جناح السرعة» وهم يسبكون عباراتهم في ذلك القالب لان اللغة التي يستعملها الالمانيون مع موظفيهم هي دائماً رقيقة لطيفة واقول بصراحة ان هذه البرقية كدرتني واحدثت عندي استياء عظيماً فانها قضت على كل امالي بالاستراحة في «البك»

على اني ادركت انه لابد من ان يكون هناك امر هام والا لما استدعيت من اجازتي بعد اعمالي الطويلة الشاقة وتلك الاجازة لا تزال في بدايتها لذلك اسرعت بالاجابة باني سأصل برلين في قطار الساعة السابعة والنصف وان كل ما يجب ارساله الي من الاوامر يرسل الى منزلي بعد تلك الساعة. ثم ذهبت الى المحطة وركبت الى عاصمة المانيا .

جلست في مركبة السكة الحديدية اضرب اخماساً باسداس وافكر في الحالة العمومية لعله يبدو لي من خلالها دليل على نوع مهمتي المقبلة وسبب استدعائي فعرضت في ذاكرتي الحوادث المتقدمة ومجرى الاحوال العامة فقلت في نفسي ان لعبة الامبراطور السياسية لحل الاتفاق الودي وعقد محالفة قوية مع انكلترا مهدت الطرق لتنفيذ السياسة الالمانية والنمسوية في ربوع البلقان.

ثم حولت افكاري الى حوادث الشرق الاقصى الماضية فذكرت ان روسيا بعد الضعف الذي اصابها بعد محاربة اليابان شعرت بان نفوذها في الشؤون الاوربية اخذ بالضعف والنقص فهي بلا شك تعلم ان الوقت قد حان لتعمل بجرأة لاستعادة هيبتها . كذلك تذكرت ان النمسا بعد ان

رأت ما اصاب روسيا في الشرق الاقصى اسرعت في ضم البوسنه والهرسك الى املاكها وقد فعلت ذلك بعلم المانيا وتعضيدها فكانت نتيجة ذلك ان روسيا عادت الى الحركة بقصد التداخل في الشؤون البلقانية وقد بدأت تظهر ثمار مساعيها . فان اليونان والسرب والبلغار والجبل الاسود — وجميع هؤلاء كما هو معلوم على عداء مستحكم قديم بينهم — كانوا يتفاهمون ويتم التحالف بينهم ان بلاد البلقان تجمع اقواما من اجناس مختلفة ومشارب واخلاق متباينة مثل الهند ولذلك كابدت روسيا في سبيل التوفيق بينهم وايجاد الاتحاد بين تلك البلدان المختلفة عناء كبيراً وبذلت مبالغ طائلة من المال فان زيارة ولي عهد السرب لصوفيا عاصمة بلغاريا كانت نتيجة مساعي روسيا وقد تكلل ذلك المسعى بالنجاح لانه اوجد تفاهما تاما بين بلغاريا وسربيا واحكم عهود الاتحاد بينهما وهنا يجب ان نسأل ماهو اذن سبب تغير الحال بين سربيا وبلغاريا بعد نجاحهما المشترك ضد تركيا . وهذا ما سأبحث فيه فيما بعد فاري القارئ مبلغ انتشار الدسائس وسياسة الخفاء في كل ما يتعلق بالشؤون البلقانية وقد تذكرت اني طالما سمعت كبار الموظفين السربيين يبدون آمالهم في اعادة مجد مملكتهم القديمة وكذلك كان شأن البلغاريين . ثم اني بعد اتحاد داسيا ومولدافيا سمعت الموظفين الرومانيين يعربون عن رغبتهم في اخذ داسيا بواسطة ضم ترانسلفانيا وبوكوفينا وطمسفار الى بلادهم وقد يدرك القارئ سبب رغبتهم تلك اذا تذكر ان لكل من هذه الولايات جيشاً قويا برهن رجاله على مزاياهم الحربية العظيمة .

وكنت اعلم ان الاستعداد وحشد الجيوش في البلقان قائم على ساق وقدم وقد جهزت تلك الجيوش بعددات تفوق كثيراً مقدرة تلك البلدان المالية . فمن اذن كان يقدم هذه القوة والمال والضباط ؟ ان حكومات البلقان لم تكن الا قطعاً على رقعة الشطرنج تحركها ايدي الدول

●●●

وصلت الى برلين وتوجهت تواً الى منزلي وكانت عندئذ الساعة الثانية صباحا فلما فتحت الباب وجدت خادمي « كيم » مستيقظا وعلى درجة كبيرة من التهيج وذلك لان بالمنزل زائراً في مثل تلك الساعة من

الصباح والذي زاد استغرابه انه يعلم اني لم يسبق لي استقبال اعز اصدقائي في منزلي الخاص فبادرني قائلاً

— سلام يا سيدي . ان في المنزل رجلاً يرغب ان يراك . انا لا اعرفه ولا اعلم اذا كان صديقاً او عدواً . غير انه يقول انك لن تستاء من وجوده ولذلك اضطررت ان اسمح له بالدخول وانطلق يبدي الاعذار خشية ان يكدرني سماحه لهذا الغريب بدخول منزلي . فدخلت المنزل متشوقاً ان ارى من هو هذا الضيف فاذا به رجل قابلته مراراً في «ولهامترس» وهو الهر فون ستمر يد فون ودل اليمنى . ومع انا كنا التقينا مراراً ويعرف الواحد منا الآخر الا اني لا اتذكر اني تحدثت سوى كلمات قليلة تتعلق بالاعمال الرسمية . فعجبت لما رايت من تغيير الخطة السابقة بارسال مندوب الى منزلي بدلاً من دعوتي الى «ولهامسترس» غير ان عجبي هذا زال بعد حديثي مع الهر فون ستمر ومعرفتي الاسباب التي دعت لذلك . فلما توسطت الغرفة بادرني فون ستمر بقوله : —

ان غرفك مخفورة خفارة جيدة ايها الدكتور فان خادمك امتنع عن ان يسمح لي بالدخول

فتبسمت لاني استطعت ان اتصور المعركة التي وقعت بين هذا الغريب وخادمي « كيم » . ثم استطرد فون ستمر الحديث قائلاً : —

— لقد تلقينا برقيتك من « البك » ولما كان الكونت ودل في شغل شاغل يحول دون الوصول اليه فستتلقى اوامرك مني هذه المرة . ان الكونت يرغب ان تذهب الى بلغراد وتختبر الاحوال الحاضرة هناك وكل القصد هو ان تتحقق من دخائل الحالة السرية والدسائس الجارية . ان الحالة الرسمية لا شك معلومة عندنا فالذي نريد ان نعلمه هو الى اية درجة وصل النفوذ الروسي في بلغراد وصوفيا اي مبلغ نجاحهم في عملهم والدرجة التي هم على استعداد الوصول اليها في المشاكل البلقانية .

فاذا لم يتيسر لك الحصول على المطلوب في بلغراد — والمطلوب معرفة كل شيء بالتدقيق — توجه الى صوفيا عاصمة بلغاريا وتمم ابحاثك هناك غير انه من الضروري التعجيل بقدر الاستطاعة وعدم اضاعة الوقت

فانه يجب ان يكون لدي معلومات تامة عن دخائل الحالة في اقرب وقت

واعلم ان بامكانك الاستعانة بالجواسيس النمسويين غير انه لا حاجة بي ان اخبرك انه ليس من الصواب ان تستصحب احداً منهم لان جميع الجواسيس النمسويين معروفون لدى جواسيس الروس في البلقان وانى اقترح عليك ان تذهب الى بودابست وتحصل على كل ما يمكن ان يكون ذا فائدة لك ويعينك في عملك وهذا كله تستطيع الحصول عليه من رجل اسمه كزيير كوالسكي وهو جاسوس نمسوي تجده في منزله في شارع دونستراس نمرة ٧٤ . ولما كنت لا تعرف هذا الرجل فسأزودك باوامر خاصة له . كذلك يجب ان يكون لديك تذكرة مرور . وهل تخشى شيئاً من اثار مهمتك الاولى في البلقان؟»

اشار فون ستمر بقوله الاخير الى الحادثة التي وقعت لي في بلغراد عام ١٩٠٣ بعد مقتل الملك اسكندر وقرينته دراجا وهي حادثة لا اريد مطلقا ان اتذكرها لاني بها وقفت الى حائط انظر الى بنادق موزر مسددة الى صدري كما يذكر القارىء من روايتي التي قصصتها في الفصل الاول

ففكرت في الامر وقلت في نفسي ان هناك رجلين قد يتذكرانني وهما الكولونيل نكايتش وهذا قد مات قتيلاً والثاني رجل اسمه «ستامبول» وهذا لا يزال حياً ولا شك انه يختلف الى الاماكن والمجتمعات التي سأضطر ان اكون موجوداً فيها فاذا عرفني فهناك الخطر العظيم على حياتي. واني والحق يقال لم اجد في نفسي ميلا الى هذه المهمة. فاختباراتي السابقة في البلقان اوجدت عندي كرهاً شديداً لاهله ولم ار في حياتي خليطاً من الشعوب اشد خطراً من البلقانيين فكل رجل منهم بوجه التقريب يخون ويرتكب اعظم الاجرام حتى القتل لقاء مبلغ زهيد من المال ولقد ذقت حلوهم ومرهم فلا اريد ان اجربهم مرة ثانية

هذا ما كان يجول بخاطري ويظهر ان فون ستمر لحظ ترددي فقال :

— هل انت خائف ؟

فاعترفت له بصراحة اني خائف

— نعم . انا اعلم سبب ترددك ولكن انت هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يقوم بهذه المهمة . ثم قال اقو الا رايت فيها

بعض التلميح باني اذا رفضت فلا يكون
ذلك مطابقا لرغبة اولي الامر في
«ولهامستراس» وان الرفض يفقدني رضاهم
وقد يترتب عليه طردي من الخدمة. ولزيادة
ترغيبي وعدني فون ستمر بان المكافأة
ستكون مضاعفة . فهذا والحق يقال
تستوجب النظر والتروي فان مهمتي قد لا
تستغرق اكثر من ثلاثة اسابيع واربعة
وقد ذكر ان مكافأتي عليها تكون ٥٠٠ جنيه
عدا المكافأة الاضافية التي تعطى للاعمال
الناجحة والتي تتم بسرعة — غير ان كل
ذلك لم يجعلني اقرر الذهاب فاني كنت اعلم
ان هناك خطراً من ان اعرف وكذلك كنت
اعلم طباع الرجال الذين قد اقع في ايديهم .
ان هذه المهمة اكثر صعوبة واعظم خطراً
من كل مهمة ذهبت لقضائها سواء في
انكلترا وفرنسا . فلما اصر الهرفون ستمر
علي بالاجابة رجوته ان يمهلني قليلا ريثما
افكر في الامر فطلب الي ان افوضه
بواسطة التلفون في منزله قبل نصف الليل
وابلغه قراري ثم ودعني وانصرف

اني لا اعتقد بالخرافات غير ان اختلاطي
الطويل بالافريقيين والهنود جعل عندي
شيئا من الوساوس

وقد اعتدت عادة غريبة الجأ اليها كل
ما وجدت في ظروف حرجة وهي اني
اتناول ورق اللعب والعب به اللعبة التي
كان يلعبها نابوليون في وحدته فان نجحت
معي مرة في ثلاث مرات اتفاءل خيراً
واتقدم على العمل الذي امامي ولم تخطئ معي
هذه الطريقة ولا مرة واحدة بل اني جربت
مرتين في حياتي ان لا اعمل بها فكانت
النتيجة اني ندمت كثيراً

ولذلك طلبت من فون ستمر امهالي
لاني اردت ان الجأ الى التجربة القديمة .
فناديت خادمي «كيم» وطلبت منه ان يحضر
الورق فنجحت اللعبة معي في المرة الثانية
فنهضت حالا الى التلفون واخبرت فون
ستمر باني اقبل ان افعل ما يريد فطلب مني
ان اوافيه الى منزله ففعلت وهناك تلقيت
الاوامر النهائية واستلمت تذكرة المرور
التي لابد منها للمسافر على الحدود النمسوية
ولما جاءت الساعة الثالثة صباحاً ركبت قطار
الشرق بطريق فينا ونزلت منه في بودابست
حيث قضيت يوما كاملا بمقابلة الجاسوس
النمسوي او السكي فتلقيت منه معلومات

من نقط كانلها عندي قيمة لا تقدر مثال ذلك انه اعطاني اسماء اناس كانوا يترددون على بعض الحال في بلغراد منهم من يفيدني في مهمتي كثيراً – كذلك نبهني الى بعض الاشخاص في خدمة روسيا وخصوصا النساء منهم وفارقته مسروراً بكل ما علمته منه وركبت قطار المسا الى بلغراد

وما جاء ظهر اليوم التالي حتى كنت نازلا في فندق باريس في مدينة بلغراد وكانت غرفي قد حجزت قبل وصولي وهي افخر غرف الفندق وتعرف باسم (غرف الامراء) وظهوري بهذا المظهر الكبير كان واجبا لان المال في البلقان الكلمة الاولى والاخيرة . واهالي بلغراد فيها يفاخرون بتقليدهم للباريزيين والجميع يعيشون عيشة باريزية وضباط الجيش اصحاب الرواتب الصغيرة يعيشون معيشة الامراء وقد يعجب الغريب عنهم كيف يستطيعون ذلك برواتبهم التي لا تتجاوز بضعة شلنات في اليوم غير ان السر هو في الذهب الروسي اما في الجبل الاسود فليس لذلك المال مثل ذلك التأثير لان الوطنية الحقيقية هناك غالبة كذلك قد لا يستطاع بذلك المال استمالة كل رجل بين العثمانيين وهكذا تمكنت باسرافي في الانفاق من الظهور والتف حولي عدد كبير من ضباط تلك العاصمة . وكان بين هؤلاء واحد اسمه الماجور جورسكي وهو رجل محب للهو متآمر .

ومن المعلوم ان الجاسوس المرسل في مهمة مثل مهمتي يود ان يجد رجلا مثل هذا وزد على ذلك اني كنت اعلم ان الماجور في خدمة روسيا وانه في استطاعتي ان احصل منه على كل ما اريد

فانغمست في ملذات بلغراد اطلب صيداً – والماجور طريدتي المنشودة فاقمت مآدب كثيرة في فندق باريز وكان يتناول المأدبة دائما لعب الميسر فكنت دائما اخسر مع الماجور وهو يخسر مع سواي ولكن كنت احاذر ان اربح منه مرة واحدة . ثم استحكمت عرى المودة بيننا فبدأ يتردد علي في غرفي وقد كان هذا الماجور كغيره محباً للخمر وقد حاولت مراراً عندما كنت اراه قد سكر قليلا وانطلق لسانه في الحديث ان اعرف منه شيئاً غير اني ما استطعت مطلقا ان اسمع شيئا يستحق الذكر وقد كان

اذا خامره اقل شك في حديثي يوصد باب فمه مهما بلغت درجة سكره

ولما اعياني الامر قلت لا بد من طريقة اخرى وكنت قد رايته عدة مرات برفقة غادة فرنسوية اسمها مدامو زيل رينه دوفال وقد لحظت ان العلائق بينهما حسنة واستدللت من بعض الحوادث الصغيرة على ان هذه الغادة مفتونة بصديقنا المأجور تحبه حباً شديداً فبذلت الجهد للتعرف بها لان الاختبار علمني ان الاعين النجل تفعل ما عجزت انا والذهب الوهاج عن فعله . وقد كانت هذه الحسناء كغيرها من نسا تلك الطبقة في بلغراد كثيرة الاسراف تقامر كثيراً فساعدني الحظ مرة ان اخدمها باقراضها ٥٠٠ فرنك فتمكنت الصداقة بيننا ..

وقد كنت الى تلك الساعة لا اعلم شيئاً يدل على ان لهذه الحسناء علاقة بحكومة من الحكومات وكان كل سلوكها يدل على ما ينفي ذلك غير ان من كان في مهمة مثل مهمتي يجب ان يكون دائماً متيقظاً يلحظ كل شيء ويرقب كل حركة صغيرة او كبيرة وكانت مدموازيل دوفال تتقن اللغة الفرنسوية كل الاتقان ومظهرها يدل على انها فرنسوية وكل اخلاقها فرنسوية . على ان الحذر مفيد ومن الحكمة ان يكون الانسان كثير الشكوك ولذلك اخذت ابحث عنها مستعملاً كل الطرق فلم اتمكن ان اعرف شيئاً غير ان ذلك لم يقنعني ولم يثبط عزيمتي وقد ظهر بعد ذلك صدق فراستي وتحققت ظنوني

ادبت الانسة دوفال مأدبة في غرفها زمرة من اصدقائها وكنت انا بين المدعوين وبعد العشاء جلسنا الى مائدة اللعب فقلت في نفسي ان هذه فرصة يجب ان لا اضيعها ففي غرفها الخصوصية قد يستطيع النقادة الخبير ان يجد شيئاً يثبت ادعاءها الجنسية الفرنسوية او ينفيه فدققت النظر كثيراً غير اني لم ار شيئاً يدل على اية علاقة بينها وبين روسيا

وحدث في بعض ادوار اللعب انها نهضت ودخلت غرفتها الخصوصية ثم عادت تأكل شيئاً من الحلوى فكانت تلك الحلوى سبباً في افتضاح سرها . فاني رايت حالاً بمجرد النظر الى الحلوى التي بيدها انها تختلف كثيراً عن امثالها في فرنسا او

تركيا فانها كانت نوعا من الحلويات يصنع بشكل الزهور الطبيعية كالورد وغيره وله رائحة خاصة لا يعلم سر صناعتها الا معمل روسي واحد من معامل موسكو وهذا النوع من الحلوى لا يحبه احد غير الروسيين مالم يقطن في روسيا ويعتاد طعمه

ان مداموزيل دوفال كانت غريبة في نظري ولم ارها في غير بلغراد غير ان اكثر من نصف النساء اللواتي مثلها معروفات لدى البوليس السري فاسرعت حالا للسؤال عنها وتمكنت بحيلة غريبة ان احصل على صورتها وعلى مثال من خط يدها وارسلت هذه الى رئيس البوليس السري في فينا وبرلين وما مضى اكثر من ٤٨ ساعة حتى كان الجواب عندي ومؤداه ان هذه السيدة معروفة لدى بوليس النمسا بانها كانت تدير ناديا للميسر في غاليسيا وانها هجرت تلك البلاد بعد حادثة قتل جرت هناك وانها كانت في كراكو تعرف باسم «پاولا» وان البوليس النمسوي لا يزال يطلبها ويبحث عن مقرها

ولما حصلت على هذه المعلومات دبرت طريقة لاجتمع بالانسة دوفال على انفراد ولما التقينا قدمت لها صندوقا من الروائح العطرية ثم باغتها قائلا :

— انك ولا شك تجدين هنا تغييراً كبيراً عن كراكو يا «باولا»

وهنا اقول ان من الحكمة دائما ان يضرب الانسان ضربته مفاجأة ولا ينبه الاخر بكثرة الاسئلة فيجد فرصة للحذر والاحتراس . ان حيلتي هذه اتت بما ارغب فلما سمعت الاسم الذي ناديتها به تراجعت الى الوراء وبدت الدهشة على وجهها . قد لا يعد سلوكي هذا شهامة بل قد تنسب لي الفظاظة في معاملة المرأة بمثل هذه المعاملة غير ان هذه الخطة لم يكن لي بد منها وفوق ذلك فالنساء اللواتي من هذا النوع لا ضمير لهن وقد يأتين باعمال افظع من هذه كثيراً

— يا الهي ! من انت؟

— هذا امر لا يعنيك ايتها العزيزة فاني اعرف هذا الامر عنك واعرف غيره فالنمسا تسر كثيرا ان تعلم شيئا عنك وعن مقرك فهل اخبرهم ؟

وكانت قد استردت شجاعتها وسكن روعها فقالت

— ماهو الثمن الذي تفرضـه لكي لاتخبرهم ؟

— خوفي روسيا هذه المرة واعطني المعلومات التي ابحث عنها وانا اكتم الامر ولا ازعجك فيما بعد

فبدت عليها الدهشة وقالت

— روسيا ؟ انا لا اعرف عن روسيا شيئا .

فابتسمت وتقدمت الى المائدة التي في غرفتها وتناولت قطعة من الحلوى المعلومة وقلت:

— انك ماهرة يا « باولا » ولكنك كثيرة الاهمال . تقولين انك لاتعلمين شيئا عن روسيا وانت مولعة بحلوى موسكو الشهيرة

فعضت على شفتها الرقيقة وقالت :

— ماذا تريد ان تعلم ؟

— قبل ان نبدأ بالحديث يا « باولا » (وقد لحظت ان سماع هذا الاسم يغيظها) دعينا نتفاهم تماما . اني لا اسمح بتمثيل دورين ان من السهل عليك ان تسعي الى قتلي بطريقة مشروعة

وهنا اقول للقارئ انها تستطيع ذلك بالطريقة الاتية وهي انها تخبر احد عشاقها باني اهنتها فينتج عن ذلك اني التقي بذلك العاشق في قاعة الفندق بين جمع من الناس فيقترب مني ويصفعني فماذا استطيع ان افعل ؟ فلا مفر لي من دعوته الى المبارزة ونتيجة ذلك معلومة فرصاصة واحدة تكفي للتخلص مني

ثم عدت الى حديثي معها قائلا:

« تذكري انه اذا اصابني شيء هنا واذا لم يتلقوا اخبارا مني في فينا كل ست ساعات ففي الساعة السابعة يلقى القبض عليك — والقبض عليك يكون بموجب ارادة امبراطورية نمسوية واصدقاؤك هنا وان يكونوا من ضباط الجيش لايحركون ساكنا لانك تعلمين ان الصرب لا تعادي النمسا وتتحمل نتيجة غضبها بعدم مراعاة الارادة الامبراطورية — تذكري يا « باولا » ان هناك جيشا نمسويا على حدود الصرب الان

فنظرت الي نظرة حقد وكره اما انا فعدت الى الحديث وقلت :

— والان اخبرك بما اريد . ان الماجور جورسكي يخدم روسيا وبيده مفتاح النفوذ الروسي هنا وهو يعلم دخائل سياسة روسيا

ومبلغ استعدادها . وانا اريد ان احصل على هذا المفتاح وعليك ان تأتيني به . اني قد خبرت الماجور فالمال يؤثر به كثيراً وهو على تمام الاستعداد لان يبيع روسيا غير انه يخشاك ويحذر مراقبتك فاني اعلم يا «باولا» العزيزة ان روسيا اوفدتك الى هنا لتكوني رقيبة لها على وكلائها والذين في خدمتها وعلى الاخص الماجور جورسكي . واعلم انك لا تعرفين الحالة تماماً كما يعرفها هو ولو كنت تعرفينها لكنت اطلب ما اريده منك . والذي ارغبه هو ان تجعليه لا يخشى منك ولا يحذر بطشك . انك مفتونة به وتحبينه حبا شديداً فاذا كانت لحياته قيمة عندك فافعلي ما اطلب منك والا فالويل لكما فان بيدي سلاحا اجرده عليه امضى من السلاح الذي اجرده عليك

فاصاب سهمي الاخير مرماه فقالت:

— وما الذي يضمن لي انك تحافظ على شروطك

— لا شيء سوى كلمتي . وعقلك وخبرتك يجب ان يدلاك على اني ارغب الوصول الى غايتي ولا يهمني شيء سواها فلا يأتي ذكر حادثة كراكو فيما بعد وستنالين فوق ذلك ثمن عقد من الماس (وقد اوصيت فعلا بعد ذلك باعطائها ٢٠٠ جنيه غير اني اظن انها اعطيت اكثر من ذلك). هل توافقين على كل ما اريده

فاجابت بالايجاب

ولما تم الاتفاق بيننا فارقتها وعدت الى الفندق مسروراً بنتيجة تلك المقابلة

في صباح اليوم التالي دخل الماجور جورسكي غرفتي مضطربا فاستقبلته ببشاشة وبادرته بالحديث قائلا

— اظن ان الانسة دوفال قد قابلتك وباحثتك

فبهت وقال «وكيف عرفت ذلك»

— ايها الصديق العزيز — هذه الزيارة المبكرة ثم وجودك في حالة تدل على انك لم تشرب خمراً ثم اضطرابك لدلائل كافية على ذلك . ان وقتي ثمين ومع ان «باريزكم» الصغيرة هذه جميلة وفيها كل ما يسر الخاطر فاني افضل شواطيء بحر البلطيق فان كان لديك شيء تريد ان تقوله لي فقله حالا واختصر فاسافر الى فينا بعد ظهر اليوم وقد يهمك ان تعلم انك في امان تام واني لا اضع اية عقبة في سبيل خدماتك

الجليلة لروسيا ولا شأن لي في كل ماقد تفعله بعد سفري غير اني اريد الان ان اعلم كل ماتعلمه عن اعمال روسيا هنا وفي رومانيا

— اني لا اعرف الا القليل عن رومانيا

فهززت رأسي وقلت:

هذا لا يفيد ايها الماجور فانت تعلم عن دسائس روسيا في رومانيا بقدر ما تعلم عن دسائسها هنا وانا ارغب معرفة الحقيقة والا فالافضل ان لا اعرف شيئاً. وكما اخبرتك بلاشك — مداموزيل دوفال — «باولا» — ليس من مصلحتك ولا من مصلحتها ان تخفي عني شيئا

فلما راى الماجور ان لا فائدة من المخاتلة طفق يحدثني بكل مايعلمه وهذه خلاصة ما رواه:

ان روسيا بفضل الاموال الفرنسوية قائمة يبذل كل اعانة لبلغاريا وسربيا ضد تركيا ويفد على بلغاريا وصوفيا عدد لا يحصى من ضباط الصف الروسيين والفرنسويين يوما بعد يوم وهم قادمون للدخول في صفوف جيوش الحليفتين. وكذلك كبار ضباط السرب والبلغار ورجال السياسة فيهما في خدمة روسيا يتقاضون الرواتب الضخمة منها في سبيل خدمة اغراضها والخلاصة ان هناك مشروعاً عظيما لجعل كل شيء روسيا او مايبقي ماترغبه روسيا. وقد تسلحت جيوش الحليفتين بمدافع فرنسوية من طراز جديد وروسيا وفرنسا تنفقان على الجيشين السربي والبلغاري وعلى ذلك فنفوذ القيصر وتعضيد فرنسا سيكون لهما شأن كبير في الحالة السياسية وقد رسخت قدم روسيا بحيث اصبح من الصعب زحزحتها

لقد كانت وزارتا المانيا والنمسا — بلا شك — تشتبهان بوجود شيء من هذا القبيل ولكن لم تكونا تعلمان الى اية درجة بلغت سياسة روسيا ولذلك ارسلت للبحث عن ذلك ومعرفته — فاظهرت نتيجة مهمتي وجوب اسراع المانيا والنمسا بالعمل لتقويض اركان النفوذ الروسي في البلقان

هذا ولما علمت كل ماكنت اريد ان اعرفه من الماجور جمعت امتعتي وسافرت بقطار الليل الى برلين ولما بلغتها توجهت راساً الى الهر فون ستمر وقدمت تقريري له وذلك لان الكونت فون ودل كان لا يزال غائبا مع الامبراطور

وبعد ان عرض تقريري على رجال الحل

والمقد بادرت النمسا والمانيا في السعي بكل جد ونشاط لمقاومة النفوذ الروسي في البلقان وتقويض دعائمه فان بقاء بلغاريا وسربيا والجبل الاسود على اتحاد تام تحت تأثير النفوذ الروسي امر يؤثر كثيراً في سياسة المانيا والنمسا ولذلك كان يجب فصم عرى ذلك الاتحاد وايجاد الشقاق بين الحكومات الثلاث .

وكان الخبيرون في احوال الشرق الادنى ينظرون في اثناء حرب البلقان الى رومانيا وهي اقوى الحكومات البلقانية ويبدون دهشتهم واستغرابهم من جمودها ووقوفها موقف الحياد فان الذبذبة التي ابدتها مع ما لهامن النفوذ كانت العامل الوحيد في ضبط الحالة في البلقان .

ترى اية دولة كانت تقبض بيمينها على مفتاح هذه الحالة؟ والجواب «المانيا والنمسا» ولو بدا جيش المانيا على حدودها الجنوبية الغربية لكان احدث تغييراً عظيما في نتائج فوز جيوش البلقان على تركيا. غير ان ذلك الجيش لم يظهر للعيان الا بعد ان انتهى الحلفاء من حربهم مع تركيا وبداوا الحرب فيما بينهم وسأبين للقارىء سبب تأخر ظهور هذا الجيش. ان العائلة المالكة في رومانيا توبطها ببيت هوهنزلرن روابط متينة . ويكفي ان اذكر « كارمن سلفا » (١) ملكة رومانيا والملك كارول فكلاهما الماني المولد. ثم ان العلاقات التجارية بين رومانيا والمانيا عظيمة جداً. ثم ان رومانيا لم تحمل على عاتقها نير ظلم الحكم التركي بقدر ما تحملته جاراتها لذلك لم يكن الرومانيون يكرهون تركيا بقدر شعوب البلقان الاخرى . فالدسائس الروسية والفرنسوية التي صادفت نجاحا باهراً في سربيا وبلغاريا والجبل الاسود والبانيا لم تنجح كثيراً في رومانيا. ولو اثر الذهب الروسي في رومانيا وقادها لخوض غمار الحرب مع الحلفاء ضد تركيا لكانت خريطة الشرق الادنى تغيرت تغيراً كبيرا. فانه لو زحف جيش روماني مهدداً حدود تركيا الشمالية الغربية اثناء حربها مع حكومات البلقان المتحالفة لادى ذلك لاحتلال تلك الحكومات

(١) اسم ملكة رومانيا الحقيقي هو اليزابت فون ويد اما «كارمن سلفا» فهو اسمها المستعار المعروفة به في عالم الادب والذي توقع به كل مؤلفاتها.

للاستانة عاصمة السلطنة العثمانية على اهون
سبيل . غير ان نفوذ النمسا والمانيا وضغطهما
على رومانيا منعا جيوشها من الظهور على ان
تلك الجيوش كانت على قدم الاستعداد
فاستعملتها النمسا والمانيا للاضرار بالبلغار
والسرب . وكان البلغاريون والسربيون
والجبليون يقتنعون بوعود روسيا في انها
تنيلهم ثمار انتصاراتهم والبلاد التي افتتحوها
غير انهم وجدوا اخيرا انهم قد تركوا
يدبرون امورهم بانفسهم وبما لديهم من
الوسائل لان الظروف اضطرت روسيا ان
لا تبر بوعدها في مساعدتهم بنفوذها

ان العالم كله دهش وارتاب بالنتائج
التي ادت اليها الحروب البلقانية غير ان
الذين كانوا خلف الستار لم تدهشهم تلك
النتيجة .

ان بلغاريا وحدها نالت من الانتصارات
على الترك ما كان يجب ان يضمن لها
توسعا كبيراً في املاكها وكذلك كل من
حليفاتها ولو كانت الظروف كلها اعتيادية
لما بقيت الحالة على ما هي عليه . اذن ماهو
سبب ذلك ؟

انه عندما تكون هناك امم بينها عداء
متأصل تتألف وتتحالف . بمساعي دولة
غريبة ثم ينزوي نفوذ تلك الدولة ويزول
فهنالك نتيجة لا بد منها فان العداء القديم
والاحقاد والحسد تبدو حالا وعلى الاخص
عندما يكون هناك يد تحركها وتحرض
عليها كما كانت المانيا والنمسا تفعلان بنفوذهما

ان السرب حسدت بلغاريا وبلغاريا
نفسها حسدت السرب واليونان حسدتهما
كليهما ووقفت رومانيا مسوقة بالنفوذ الذي
يدفعها تمنع اية دولة منها من اخذ شيء .
ولولا انتهاك القوى الذي اصيبت به تلك
الحكومات جميعها ثم انقطاع ورود الاموال
الروسية والفرنسوية والاشمئزاز الذي عم
الشعوب لشهدنا حرب تزاحم لم يشهد العالم
مثلها في تاريخه

على ان التحاسد والاختلاف على كيفية
اقتسام الغنيمة افاد تركيا كثيراً فاستعادت
ادرنه وجزءاً كبيراً من تراقيه

وكان هذا الامر وانفصام عرى التحالف
البلقاني القائم تحت نفوذ روسيا وبارشادها
كل ما كانت ترمي اليه سياسة المانيا والنمسا في
البلقان . ان وجود تركيا في حالة الضعف ثم
بقاء التحالف متين العرى بين حكومات

البلقان التي باستطاعتها ان تجرد مليون مقاتل تكون على الارجح تحت نفوذ روسيا لامر يضر جداً بمصلحة المانيا ويؤثر تأثيراً كبيراً في ماترمي اليه بسياستها في اواسط اوروبا ووقوف مليون جندي بلقاني في صف واحد مع الجيوش الروسية في حالة نشوب حرب اوروبية عامة يستنفد كل قوات النمسا ويترك المانيا وحدها لتقاوم روسيا فتضطر ان توقف لمقاومتها نصف جيشها على الاقل وبذلك تضعف قوتها كثيراً في القتال على حدود فرنسا والجهات الاخرى

***

ان الدكتور ارجارد دارل جريفس غير معروف في البلقان ولكن الكونت ارثور زو ورنجرود رجل معروف تماما في بلغراد بين زمرة الضباط المسرفين والمولعين باللهو والسرور.

الفصل العاشر

مهمتي في انكلترا والفدربي

قضيت عام ١٩١١ اؤدي المهام السياسية الكبرى الواحدة تلو الاخرى فان ذلك العام امتاز عن كل ماتقدمه باشتداد عواصف السياسة فيه واضطراب الوزارات الاوربية والرواية التي بدأ الفصل الاول منها بمهمتي في مونت كارلو ثم بلغت حدها الاقصى بحادثة المغرب والمؤتمر السري بين مندوبي المانيا والنمسا وانكلترا في غابات طانوس والداسائس التي تقدمت حرب البلقان كانت قد وصلت الى دور الهجوع والسكون استجماعاً لقواها واستعداداً للداهية الدهياء — التي يكون بها ختامها — والتي قد تقع هذا العام او في العام المقبل .

وقد كانت الشروط التي اتفق عليها مندوبو انكلترا والمانيا والنمسا في احراج طانوس رهن تصديق الحكومات المذكورة عليها وتوقيعها . تذكر ايها القارئ هذه الحقيقة انها « كانت رهن التصديق والتوقيع عليها» لان هذا الامر يوضح نوع المهمة التي ارسلت بها الى انكلترا في يوم ١٨ نوفمبر عام ١٩١١ . تلقيت الامر المعتاد بالذهاب الى قصر ولهلمسترس ولما وصلته ارسلت بدلا من المثول بين يدي الكونت فون ودل في غرفته الى ادارة

مخابرات وزارة البحرية الالمانية وهناك لقيت صديقي القديم ورئيسي السابق الكبتن فون تبكين رئيس فرع البحرية بادارة المخابرات فاخبرني انه قد استحسن ارسالي بمهمة خطيرة الى بلاد الانكليز . ثم انه اخذني بيدي وعرفني بثلاثة من الخبراء البحريين . وقد كان احد هؤلاء ضابطا في ادارة الانشاآت البحرية والاخر في ادارة الاشارات والثالث خبيرا في امور المواد المتفجرة والالغام . فاخذني كل منهم بدوره وجعل يدربني في الفرع المختص به فكان ذلك بمثابة مراجعة الفنون التي تلقيتها في ادارة الجاسوسية في بدء خدمتي فيها

قضيت اياما اجلس امام رسوم كبيرة وخرائط بحجم حائط الغرفة تبين مقاسات كل بارجة من البوارج الانكليزية بوجه التدقيق كذلك اشكال الطراز الجديد من البوارج الانكليزية ومناظرها وسيرى القارىء فيما يلي سبب كل ذلك .

ومن البديهي ان تدريبي هذا التدريب كان امرا واجبا لانه كان من مقتضى مهمتي الجديدة مراقبة الاستعدادات البحرية البريطانية ومناورات البوارج في القواعد البحرية الكائنة على شواطىء اسكتلندا .

وقد كانت الحالة في ذلك الوقت بين انكلترا والمانيا كما يستنتج القارىء غريبة في بابها : فان المعاهدة السرية التي وضعت في احراج طاوس كانت لا تزال رهن التصديق كما تقدم ولم يكن بين الشعبين ــ البريطاني والالماني ــ اكثر من عشرة افراد يعلمون بما جرى بالقرب من شلانجنباد . وكان السياسيون في البلادين قد اوصلوا الازمة الى درجة اعدت الشعبين اعدادا تاما لخوض غمرات الحرب حتى ان ادنى شرارة تضرم نارها .

ولما كان الامبراطور يدرك حرج الموقف لم ينقص شيئا من دسائسه السياسية بل زادها . ومن المحقق انه وان يكن هناك معاهدة بين دولتين فان كلا منهما تبقى متخوفة من الاخرى وقد حدث كثيرا ان المعاهدات السرية تمزق تمزيقا بلا مراعاة . وحذر الدوائر السياسية في اوروبا يجب ان يدوم ويلازمها في كل الاحوال ومن هنا يدرك سبب مهمتي الجديدة . وقد كان من ضمن التعليمات المعطاة لي ان اراقب حركات البوارج البريطانية على سواحل اسكتلندا

وانقل امرها تلغرافياً الى ادارة المخابرات البحرية في المانيا ولهذا كان من المحتم ان ادرس رسوم تلك البوارج واعرف اشكالها فاني لا استطيع في الليل او في الضباب ان اقرأ اسم البارجة ولكن اذا كنت عارفاً بشكلها ومطلعاً على رسمها اقدر ان افرق بين البارجة الاعتيادية والدردنوط والطراد والمدمرة واستطيع اذ ذاك ان اعرف ما هي السفن التي خرجت الى عرض البحر فلما اتممت درس تلك الخرائط عمد اولئك الخبيرون الى امتحاني فيها للوثوق من خبرتي فوضعوا رقعة على اسماء تلك البوارج وجعلوا يوجهون الي الاسئلة عنها فكنت اجيب ان هذه مثلاً من طراز الدردنوط « الملكة ماري » والاخرى من طراز « اجاكس » وهذه المدمرة من طراز « فيبر » وهلم جرا ومن المعلوم ان كل فئة من السفن الحربية الانكليزية تختص بطراز معروف فجميع هذه الامور درستها درساً تاما قبل مغادرتي برلين

كذلك راجعت الدروس التي كنت قد تلقيتها في فن قياس المثلثات والمساحة فقد كان من جملة المطلوب مني ان اقدم تقارير عن القواعد البحرية الجديدة في « روزيث » بالقرب من ادنبرج وكذلك في « فورث » وسواها واذ اراقب بنوع خاص نوع الاعمال في « روزيث » ودرجة التسليح وانواعه وكل ما قد يفيد البحرية الالمانية من ذلك . فمن المعلوم ان انكلترا كانت تنشئ المواقع البحرية في « روزيث » و « اكرومارتي » لتكون مقابلة لقاعدة المانيا البحرية القوية في جزيرة « هايجولاند » فان شواطئ اسكتلندا كانت اقرب الطرق لهجوم الاساطيل الالمانية على انكلترا اومهاجمة اساطيل انكلترا الشواطئ المانيا الشمالية . ولما كان يخشى من نشوب الحرب بين الشعبين ارادت المانيا ان تكون عالمة كل العلم بما هنالك وبحركات الاساطيل البريطانية ومناوراتها على سواحل اسكتلندا ولذلك طلب مني أن لا ادع بارجة واحدة تفارق « روزيث » او « اكرومارتي » بدون ان ابلغ ادارة المخابرات عنها تلغرافيا . واذكر عدد البوارج التي خرجت من الميناء ونوعها ومن اي طراز هي واذكر ان امكن سبب خروجها وقد تركت لي ادارة المخابرات الحربية في

طريقة السير في مهمتي . واني اقول بصراحة تامة ان هذه المهمة لم تأت طبق المرغوب ولم اجد في نفسي ميلاً اليها بل كنت اوجس خيفة من عواقبها وقد كان هناك اسباب عديدة تدعو الى الخوف فان الانكليز في ذلك الوقت كانوا في يقظة تامة وقد اصدروا قانونا جديدا لمعاملة الجواسيس ولذلك كان امامي في تلك المهمة اخطار جمة من حيث الحرية الشخصية . ولم يكن هناك خوف من القتل كالحال في البلقان ولكن كان الخوف من السجن وظلماته . اما القانون الجديد الذي ذكرت انه صدر في انكلترا فقد كان يختلف اختلافا بينا عن كل القوانين والشرائع الانكليزية فهو مرن قابل للتوسع والتأويل ويستطيع القاضي بموجبه ان يحكم على المتهم بمجرد الشبهة وهذا على ما اتذكر ملخص اهم مواده

«اي شخص يخط او يحصل على اوراق من اي نوع كان تضر او يعتقد انها تضر بسلامة بريطانيا العظمى يعد مذنبا بصرف النظر عن عدم وجود بينة على انه ارتكب ذنباً بالفعل . ويحكم على المجرم في مثل هذه الاحوال بالسجن سبع سنوات مع الاشغال الشاقة »

ولا يحتاج الانسان في فهم مغزى هذه المادة وادراك السلطة التي تخولها للقضاة الى معرفة قضائية وقد عجل في التصديق على هذه المادة في مجلس العموم غير انها كانت بلاشك لازمة والضرورة تدعو اليها وعلى الانسان اذا اراد ان يكون عادلا ان يسلم بانه قبض في انكلترا على ثلاثة جواسيس من الالمان في خلال ستة اشهر

ولما كنت اعلم كل هذه الامور واعلم كذلك كفاءة رجال الحفظ في انكلترا ونزاهتهم كرهت ان ازج بنفسي في هذا المأزق — والسجن سبعة اعوام مع الاشغال الشاقة لا يفرق كثيراً عن الجحيم

كذلك كنت اعلم انه وان لم يكن هناك تدقيق بشأن تذاكر المرور (باسبورت) في انكلترا فان رجال الحكومة يعلمون كل شيء عن القادمين والمسافرين وخصوصاً الغرباء منهم . انه من السهل الدخول الى انكلترا ولكن الخروج منها ..... ثم ان علمي بالتفاهم السري الذي بين الحكومتين جعلني ازداد خوفا واشعر بان في الامر ما

فيه . وقد حققت حوادث المستقبل كل ظنوني ومخاوفي

على اني مع كل ماتقدم اقنعت بقبول هذه المهمة ولما برحت برلين كنت مزودا بكل الاوامر اللازمة وقد اعطيت بيانات اصطلاحية تلغرافية تشير الى كل بارجة من البوارج البريطانية وكل حصن من الحصون وكل موقع بحري وكل مستودع للمؤن او الذخائر . واتفقت مع ادارة المخابرات ان ارسل رسائلي البرقية الى اماكن معينة في باريز وكوبنهاجن وبروكسل فاذا حدث مايجعل المفاوضة باحدى هذه الطرق امراً مستحيلا اعمد الى غيرها

ففي بروكسل كان العنوان المتفق عليه باسم رجل يدعى نيونس في شارع فنيس رقم ٣٤ وقد صدرت الاوامر الى نيونس هذا بان يرسل كل مايرد عليه مني الى المصادر الرسمية في برلين . وكل مايرد عليه من الرسائل من برلين يرسله الى دكان رجل يبيع الدخان في لندن وهذا يرسله الي في اسكتلندا « وقد بحث رجال البوليس البريطاني بعد القبض علي في جلاسكو بست ساعات عن هذا الدخاخني وعن نيونس فلم يقفوا لهما على اثر »

اما في كوبنهاجن فقد كان العنوان المتفق عليه باسم صاحب فندق « ستادت » وهذا الرجل كنت اعلم من قبل انه في خدمة الجاسوسية الالمانية

اما في باريز فقد كانت المداموزيل ماري بلانش (صاحبة مخزن بياضات صغير في شارع تيفولي) الواسطة بيني وبين دوائر برلين

سافرت الى ادنبورج بطريق هوك في هولاندا ثم هارويش وقد اخترت هذه الطريق بدون ان امر بلندن لسبب وجيه وذلك السبب هو ان السفن والقطارات القادمة الى لندن تراقب مراقبة دقيقة وخصوصا في مثل هذا الزمن وحديث الحرب على كل شفة ولسان . وجو السياسة متلبد بالغيوم والمسافر الاعتيادي لا يعلم ان الاكسبرس عند وصوله الى لندن لا يقابله فقط البوليس السري من «سكتلانديارد» بل موظفون منتدبون خصيصاً لهذه الغاية ايضاً . وقل ان يمر مسافر واحد دون ان تقع انظارهم عليه ويعرفونه ويتحققون من امره .

وكل راكب غير انكليزي يرى امامه حال تركه القطار اوالنزول الى البحر رجلا كهلا ابيض اللحية على رأسه قبعة سوداء وبيده مظلة وهيأته تدل على انه ضابط متقاعد. فاذا قرر هذا الرجل ان الاجنبي الواصل موضع للشك يتبعه ولا يفارقه من ساعة دخوله لندن

لذلك تجنبت هذا الامر بالسفر عن الطريق الاخرى الى ادنبورج فوصلتها ونزلت في فندق «بدفورد» وهو فندق كائن في شارع «برنسس» وقيدت اسمي فيه هكذا

الدكتور ا. ك. جريفس
طورو
استراليا

وكان قصدي ان اظهر بمظهر طبيب استرالي جاء يريد زيادة معارفه الطبية ليكون اختصاصياً في بعض الفروع . وبعد ان اقمت بضعة ايام في الفندق انتقلت الى غرف استأجرتها في منزل سيدة اسمها «مسز مكلود» . اما ما كان مخصصاً لاجل اجرة سكني من قبل الادارة في برلين فهو ١٥ جنيها في الاسبوع ولا يدخل في ذلك شيء من النفقات الغير الاعتيادية التي يضطر اليها الانسان

قضيت الاسبوعين الاولين استعد بكل سكون لعملي الذي قدمت من اجله وقد اوهمت الجميع اني طالب راحة وصحة فبعد ان تمرنت على معرفة ادنبورج وضواحيها ذهبت مراراً الى «مضيق فورث» حيث قاعدة روزيث البحرية.

وقد انشأت الحكومة البريطانية جسراً (كوبرياً) طويلا فوق هذا المضيق وذلك بين خليج روزيث والبحر الشمالي وجميع البوارج الخارجة من القاعدة البحرية والداخلة اليها تمر تحت هذا الجسر — على اني سأعود الى ذكر هذا الجسر واقول كلمة لفائدة وزارة البحرية البريطانية

ولما كررت زيارة هذا الجسر استطعت بالتدريج ان اصادق احد حراسه وا كون موضع ثقته

ولا اذكر اسم هذا الرجل لان ذلك قد يؤذيه وهو عن جهل وحسن نية اعطاني ما اعطانيه من المعلومات التي كانت بمثابة مفتاح لكثير من الاسرار التي كنت ابغي معرفتها . ولم يأخذ مني مالا من اجل

ذلك ولم يخطر بباله خيانة وطنه

تمكنت بواسطة معرفته ان ادرس بناء الجسر درساً مدققاً . كذلك عرفني صديقي الحارس ببعض اصدقائه من حراس الماء وقد ساعدتني معرفتي لروبي برنس وواتر سكوت وغيرهما في اسكتلندا على الاختلاط بجميع هؤلاء الحراس واكتساب ثقتهم حتى انهم كانوا ينظرون الي كأني اسكتلندي مثلهم

وقد كانت المعلومات التي علمتها من حراس الماء عن قاعدة روزيث البحرية اوفى وادق مما كنت قد سمعته قبلا وكانت كافية من الوجهة الطوبوغرافية التي لا يستطيع الانسان ان يعرفها تماما الا بالاختلاط مع اناس يعرفون كل شبر من الارض فالخرائط التي في برلين لا تكفي في مثل هذه الظروف لتدلني على كل ما يجب ان اعلم

اما التفاصيل التي تفوق ما تقدم من الوجهة العلمية بشأن قاعدة روزيث فهذه كلها حصلت عليها من اختلاطي بكبار الموظفين والضباط والمهندسين في روزيث الذين كنت اجالسهم واضيفهم واكرمهم مراراً

ولم يمض زمن حتى ظهرت فائدة التدريب الذي تلقيته في برلين ذلك اني علمت من صديقي الحارس ان الاسطول يوقد ناره ويستعد للخروج فصرفت ذلك الليل بطوله على الجسر (الكوبري) منتظراً.

فلما كانت الساعة الخامسة صباحاً تحركت البوارج وكان الضباب كثيفاً والمطر متساقطاً غير اني استطعت ان اعرف ست عشرة سفينة حربية علمت من اشكالها انها من طراز الدردنوط والطرادات ومدمرات الطوربيد

فاسرعت حالا الى مكتب التلغراف وارسلت برقية الى برلين بطريق بروكسل اخبر ادارة المخابرات البحرية ان اسطولا بريطانيا مؤلفا من ١٦ سفينة قد خرج الى عرض البحر. وقد علمت فيما بعد ان وصفي لتلك السفن كان صحيحا لا خطأ فيه الا في ما يختص بواحدة منها

وهنا اريد ان الفت النظر واعطي الحكومة البريطانية هذا الخبر مجاناً جزاء معاملتها الحسنة لي اثناء محاكمتي وهو: «ان في جسر (كيدي) مضيق فورث خطراً عظيما على قاعدة روزيث البحرية»

وذلك للسبب الآتي: — ان وجوده

بين روزيث والبحر خطر مؤكد. فاذا اذا وقعت حرب او بالحري قبل وقوعها لا يصعب مطلقاً نسف هذا الجسر وحبس كل البوارج الحربية داخل قاعدة روزيث فلا تستطيع الخروج منها . وحبسها هذا يدوم بضعة ايام بينما اساطيل العدو تهاجم الشواطئ الاسكتلندية وتفعل ماتشاء

ان وزارة البحرية البريطانية تفهم ما اقصد بهذا - «انظروا الى الجزيرة الوسطى»

فقد وجدت بها كل ما يساعد على وضع الالغام . كذلك علمت ان الى جانب هذا الجسر من جهة ادنبورج قطعتين من الارض ومنزلين حجبا باسم اسكتلنديين وهي بالفعل تخص قوماً من الالمان وعدا ذلك فان في منازل صيد السمك الصغيرة التي الى جانبي الجسر اكثر من شخص واحد يتوهم الناس انه اسوجي ولكنه بالحقيقة الماني اسمه لايزال في كشف رجال البحرية الالمانية

في حالة شبوب الحرب يستطيع هؤلاء الاشخاص باستعمال المواد المتفجرة المخزونة في المنزلين المشار اليهما نسف الجزيرة الوسطى نسفاً تاما على اهون سبيل

بعد ان مر على هذه الحادثة نحو ثلاثة اسابيع بدأت اشعر بان هناك من يتتبع خطواتي . ولما دخلت غرفتي ذات مساء وجدت الثوب الذي البسه في المساء موضوعا بشكل يختلف عن الشكل الذي تركته عليه فناديت صاحبة المنزل وسألتها عما اذا كان الخياط جاء في غيابي . ولما اجابت سلباً قلت لها

-- اذن لاي سبب دخلت غرفتي وغيرت مواضع ملابسي

— انا لم ادخل غرفتك ياسيدي الدكتور ولكن تذكرت الان . اظن ان الخياط جاء في غيابك ففتح له احد الخدم الباب .

لا ارى وجهاً لان ارحم صاحبة المنزل في كتابي هذا فان تلك المرأة كانت تأخذ مني كل ماتصل اليه يدها وكنت انفق عندها بسخاء ومع ذلك فهي عند محاكمتي قالت انها اشتبهت باني جاسوس الماني بعد ان اقمت في منزلها اسبوعين

بعد نصف ساعة من حديثي معها ذهبت الى الخياط وسألته لاتحقق من قولها فاجابني بانه لم يذهب الى المنزل ولم يدخل غرفتي في ذلك اليوم فلما سمعت ذلك اردت

اني اعمل عملا أتحقق به مما اذا كنت تحت المراقبة ام لا فذهبت الى ناد معروف في شارع البرانسس ودخلت غرفة القراءة وجلست اكتب بعض الرسائل ثم نهضت تاركا احدى الرسائل التي كتبتها لتسقط عمدا الى الارض دون ان التقطها ثم دخلت غرفة مجاورة وعدت بعد نحو ربع ساعة فوجدت ان الرسالة قد اختفت فتظاهرت باني ابحث عنها ثم سألت الخدم فقيل لي ان رجلا التقط الرسالة ووضعها في جيبه بدون ان يقرأها وخرج مسرعاً . فأيقنت عندئذ اني تحت المراقبة

اني آمل ان يكون هذا البوليس السري الذي التقط الرسالة او رئيسه عالما باللغة اليونانية والا فقد اضاع وقته في ترجمتها ولم يجد فيها غير صورة يونانية قديمة لشعر من الاشعار التي يتلقنها الطلبة الصغار في المدرسة .

على اني ادركت اني في موقف يجب ان استعمل فيه الخدعة — لذلك ذهبت رأساً الى دائرة البوليس وطلبت مقابلة رئيسها وارسلت اليه بطاقتي المعلومة — الدكتور ا . لث جريفس من طوروباسترالیا الجنوبية — ولما ادخلت عليه فاجأته قائلا:

— هل لديك اسباب تدعوك الى الاشتباه باني جاسوس الماني .

فارتبك عند هذه المباغتة وقال

— لماذا ؟ لا . اني لا اعلم شيئاً عن ذلك .

— اذن ليس بامر منك يقتفي اثري وتتبع خطواتي

— حقاً لا

— اني استبعد حصول امر كهذا بدون علمك ايها الرئيس

— وهل لديك سبب يدعوك الى الاعتقاد بان هناك من يتبع خطواتك .

— نعم . ان احد رجالكم قد بلغت به الوقاحة ان يتجرأ على الدخول الى غرفتي ويفتش ملابسي وهذا عمل كما تعلم مخالف للقانون الانكليزي فان من اراد ان يأتي عملا كهذا يجب ان يكون في يده امر بذلك من سلطة قضائية . فاذا كان لديك سبب يدعوك الى الاشتباه باني جاسوس الماني فها انا بين يديك فافعل ما تريد او فاصدر امرك حالا بمنع هذه المضايقة المذمومة .

فظهرت علائم الجد والاهتمام على وجه الرئيس روس ثم قال :

— انت تعلم ايها الدكتور ان علينا ان نطيع الاوامر غير اني قد تحققت الان ان هناك خطأ في امرك فسنعدل عن مضايقتك .

ثم انحنى مودعاً فخرجت

وقد كنت اعلم ان المراقبة ستستمر الا انهم بعد زيارتي لدائرة البوليس قد يخففون وطأتها قليلا . على اني ما كنت ابالي بما يفعلون بل واصلت عملي وكنت افاوض برلين تارة بطريق البرق واخرى بطريق البريد

بعد زيارتي للرئيس روس بنحو اسبوع اخبرت ان محل وليم بيردمور وشركاه في جلاسكو ينشئون مدفعاً جديداً للحكومة البريطانية من عيار ١٤ بوصة وهذا يقضي بتغيير قاعدة اعمالي فأسرعت بالسفر الى جلاسكو للبحث في هذا الامر واكتشاف تفاصيله ولما وصلتها نزلت في فندق المحطة وفي خلال بضعة اسابيع توصلت الى معرفة كل ما اردت معرفته . وقد يستغرق بيان اعمالي كلها في هذا السبيل وقتا طويلا لذلك اكتفي بان اردد المثل المعروف « النقود تتكلم » فاني استطعت بواسطتها ان احصل على رسوم المدفع الجديد ووصف كيفية اطلاقه وغير ذلك من الامور الهامة التي تتعلق به

وكانت الرسائل التي ترسل الي في مدة اقامتي في جلاسكو معنونة « جيمس ستفورد وقد وصلني رسالتان بهذا الاسم ولما ذهبت الى دار البريد في المرة الثالثة قال لي موظف البريد ان هناك خطاباً باسم ا . ستفورد فقلت :

— نعم هذا لي

فهز الموظف رأسه وقال لي

— انت طلبت أسم جيمس ستفورد ولذلك لا استطيع ان اسلمك هذا الخطاب لان ذلك مخالف لقانون المصلحة

ولما كان مركزي لا يسمح لي بالجدال في امور كهذه اقتنعت بما قاله الموظف وانصرفت ولم يخطر لي قط ان رؤسائي يفعلون شيئاً يوجب الاشتباه بي في البريد غير ان الحوادث دلت على انهم فعلوا ذلك ثم اني علمت بعد ذلك السبب الذي من اجله جعل عنوان هذا الخطاب باسم

ا . ستفورد لا باسم جيمس ستفورد

ان رسائلي السابقة كانت كلها ترسل باسم الدكتور ا . ك جريفس وتوضع ضمن غلافات طبع عليها اسم محل «بوروز وولكوم» الكيماوي الشهير بلندن وقد طبعت تلك الغلافات خصيصاً لتلك الغاية وكانت الرسائل ترسل الى لندن وفي لندن توضع في هذه الغلافات وترسل الي وقد استخدم اسم هذا المحل التجاري وزورت غلافاته لدفع اية شبهة لان ادارات البريد في اوروبا تكون على الغالب كثيرة الحذر والاشتباه اما والمعروف اني طبيب فلا غرابة في ورود خطابات لي من محل كيماوي شهير

فلما تركت ادنبورج للبحث عن المدفع الجديد في جلاسكو اخبرت الوكيل في لندن ان يستعمل غلافات بيضا وان يرسل رسائلي الى « جيمس ستفورد » بمكتب البريد في جلاسكو فجاءني الخطابان الاولان بالعنوان المطلوب وفي غلافات بيضاء اما الثالث فلم يكتف بخطأ عنوانه بل وضع فوق ذلك في غلاف من غلافات « بوروز وولكوم — وقد كان ذلك كله لقصد سيتضح فيما يلي

لما مضى الوقت القانوني ولم يأت احد لطلب ذلك الخطاب اعادته ادارة البريد الى محل «بوروز وولكوم» ولما فتح هناك وجد داخله خطاب باللغة الالمانية وطيه خمس اوراق من فئة عشرة جنيهات على بنك لندن وقد حوى الخطاب كلاما جعل ادارة محل «بوروز وولكوم» تشتبه في الامر وتستدعي البوليس .

ففي مساء يوم ١٤ ابريل بعد ان خلعت ملابس النهار وارتديت ثوب المساء وصعدت الى غرفتي انتظر وصول بعض الاصدقاء المدعوين الى تناول العشاء معي اذ جاء الخادم وقال :

— ان في الدور الاسفل سيداً يريد ان يراك ياسيدي الدكتور . فاوجست خيفة وشعرت بدنو الخطر . لو كان القادم من ضيوفي المدعوين للعشاء لما طلبني بل كان يخبر بحضوره ويدخل كالمعتاد . فايقنت انه اذا كان القصد القبض علي فلا مفر من ذلك . ان الخدمة في الجاسوسية تجعل الانسان جسوراً . فنهضت ووضعت في جيبي محفظتي الصغيرة التي تحتوي على سلاحي الكيماوي ثم نزلت الى الدور

الاسفل واضعاً يداً في جيبي والاخرى على صدري لاكون مستعداً لاستخراج السلاح الكيماوي اذا رايت داعياً لذلك

على اني ما كدت ابلغ اسفل السلالم حتى هجم اربعة رجال علي واحاطوا بي . فرايت ان استعمل التروي والحكمة . لقد كان باستطاعتي ان القي في وجوههم بعض المواد الكيماوية التي في جيبي وافر من بينهم غير اني اذا استطعت الخروج من جلاسكو فمن اين لي ان اخرج من الجزر البريطانية دون ان يقبض علي

لذلك لم ار افضل من التسليم . غير اني رايت ان اتظاهر بجهل ما يقصدون وبالاستياء من عملهم وذلك من قبيل الفكاهة لاني كنت اعلم ان لا فائدة منه فقلت :

— ماذا تريدون وما يدعوكم الى معاملتي هكذا

فاجاب كبيرهم قائلا : ستعلم ذلك حالا .

ويظهر ان سيدة طلبتني بالتلفون في تلك اللحظة فاسرع مفتش البوليس وتناول السماعة وحاول ان يعلم ما تقول

ثم امر رجاله بتفتيشي ولما اتوا ذلك ظهر لي انهم جميعا قد استغربوا عدم وجود اسلحة نارية معي مثل مسدس او قنابل او غير ذلك

وبعد ان اتموا تفتيشي ذهبوا بي الى غرفتي وبداوا بتفتيش امتعتي ومع اني كنت اعلم ان لا شيء فيها تركتهم يفتشون وطلبت منهم ان يستدعوا المستر موريس مدير الفندق وشاهداً اخر للحضور الى غرفتي ولما حضرا طلبت منهما ان يتكرما بتحرير كشف بكل امتعتي التي اخذها رجال البوليس واوصافها واعتنيت كثيراً في وصف كل الاوراق والخطابات التي اخذت . ذلك لاني كنت اعلم انه كثيراً ما تقدم امام القضاة في المحاكم اوراق لم تكن مطلقا بين التي وجدت مع المتهم

وقد حاول مفتش البوليس ان ينال شهرة من وراء القبض علي بايهام الناس ان الفضل كل الفضل في ذلك له بدلا من ان يعرف ان محل بوروز الكيماوي هو الذي ارشده ووضع الطريقة في يده وراته يستعد لان يسلك معي مسلكا خشنا . لذلك الححت عليه مصراً بوجوب تلاوة الامر القاضي بالقبض علي . فاضطر ان يقرأه متضجراً

وقد كان ذلك الامر صادراً بموجب

القانون السري الجديد الذي سبقت الاشارة اليه وقد اتهمت فيه باني عرضت سلامة المملكة البريطانية للخطر

قضيت تلك الليلة في سجن جلاسكو وفي صباح اليوم التالي احضرت امام قاض وهذا احالني الى محكمة جزئية وفي يوم ١٢ يوليه جاء دور محاكمتي امام تلك المحكمة . وبعد الاسئلة الاولى احالتني المحكمة الى محكمة ادنبورج العليا

ومن المعلوم ان الحد الاقصى لانتظار المحاكمة في الشرائع الانكليزية هو ١٠٥ ايام وقد ابقيت الى نهاية تلك المدة لان رجال الضبط كانوا يحاولون معرفة سوابقي وتاريخ حياتي فذهبت كل مساعيهم ادراج الرياح ولم يستطيعوا ان يعلموا عني شيئا

جاءني خطاب من القاضي الاكبر يقول فيه . ان كل ما لدي للدفاع عن نفسي يجب ان يقدم له قبل المحاكمة بيوم كامل . غير اني لم اعد دفاعا فلم انكر شيئا ولا اعترفت بشيء . فاجبته باني لما كنت لا اعلم ذنبا اقترفته فلا ارى داعيا لاي دفاع . بغير سلوكي وهذا ما كنت ارغبه وابغيه . واذا اردت ايها القارىء ان تراجع الجرائد الانكليزية والاسكتلندية التي ظهرت في ذلك الحين تجد ان محاكمتي كانت « اغرب محاكمة جرت في محاكم اسكتلندا منذ تأسيسها »

وسأشرح لقراء كتابي هذا كل تفاصيلها وسأبين كيف افرج عني سراً ولماذا وباذن من كان ذلك

لقد كان الجميع يظنون اني لا ازال سجينا حتى ان وزارة الخارجية الالمانية نفسها ظلت تعتقد ذلك حتى اظهرت نفسي في الولايات المتحدة

ولما بدأت المحاكمة كان النائب العمومي قد اعد ٤٥ شاهدا علي بينهم اميرالية وضباط وقباطين وخبراء عسكريون وبحريون وموظفو بريد وكثيرون غيرهم لا اذكرهم . وقد حضر المحاكمة مندوبون من قبل صحافة اوربا كلها

ولا ازال اتذكر الجموع الكثيرة التي كانت محتشدة في محكمة ادنبورج العليا وامام ابوابها في اليوم الاول من ايام المحاكمة فان الاسماء الكبيرة الضخمة التي ذكرت حول القضية ثم حوادثها الغريبة وكونها قضية جاسوس الماني كل هذه الامور حركت الخواطر واثارتها وجعلت الشعب

يهتم كثيراً بامر المحاكمة

وقد رأس الجلسة رئيس قضاة اسكتلاندا نفسه اللورد . . . وهو ذو خبرة في الامور الحربية لا يستهان بها .

وجلس في كرسي النيابة نائب الاحكام العام في اسكتلاندا السر ا . م . اندرسون يساعده في عمله المستر ج . مورتون المحامي وقد جردت الحكومة علي جيشا كبيراً من الاشراف المشتغلين بالامور القضائية بملابسهم السوداء وحللهم المهيبة .

ان من يعرف المحاكم البريطانية يعلم الشكل المهيب الذي تسير فيه القضايا وتظهر به المحاكم

فلما كانت الساعة العاشرة تماما من صباح يوم ٢٣ يوليه سنة ١٩١٢ بدأت محاكمتي ففتح الباب الرسمي ودخل منه رئيس القضاة مرتديا ثوبه الملكي الاحمر يتدلى على اكتافه شعار القضاء العالي ويتقدمه حامل الصولجان مناديا « ايها السادة رئيس القضاة » ايها السادة : رئيس المحكمة » فوقف الحضور اجلالا واحتراما وجلس المحلفون في مواضعهم . ان اثنتي عشرة سنة قضيتها في خدمة الجاسوسية علمتني اشياء كثيرة منها معرفة الرجال وطباعهم : وقد علمت ان الاثني عشر محلفا الاسكتلنديين الذين امامي يطلبون براهين ساطعة قبل ان يحكموا بالادانة واني اعترف باني لم اكن في تلك الساعة اعتقد ان هناك اقل خوف من صدور القرار بادانتي ذلك لان الادلة التي كانت ضدي واهية جداً

ابدى اللورد رئيس القضاة استغرابه من رفضي اقامة محام عني ثم اكد لي انه سيحافظ على حقوقي ومصلحتي من الوجهة القضائية واني اعترف انه بر بوعده هذا وعارض المدعي العمومي مراراً في اوجه عديدة . ثم اني اغتنم هذه الفرصة لابدي بكل صراحة اعجابي التام بسير القضاء الاسكتلندي فان محاكمتي كانت مثال العدالة والاستقامة والانصاف

لم اهتم في اليوم الاول باذا ناقش احداً من شهود الاثبات سوى الخبراء البحريين والعسكريين . وقد سددت كل سهامي الى الاميرال ت . ب . ستراتون ادير الذي كان مراقباً لاعمال معمل بيردمور في جلاسكو حيث تصنع المدافع

وقد كان هذا الاميرال طويل القامة

مستطيل الوجه يشبه المستر شامبرلن باشياء كثيرة حتى في نظارته المفردة ولا تدل ملامحه على مقدرة وكفاءة وخبرة في اداء الشهادة اللازمة لاثبات التهمة . وقد نودي عليه لاداء الشهادة بشأن المدفع الجديد من عيار ١٤ بوصة

اما النقطة التي كان المدعي العمومي يحاول اثباتها فهي انه يستحيل على اي كان ان يعرف ما عرفته عن هذا المدفع الا اذا استقى اخباره من المعمل الذي يصنع المدفع فيه وهذا الامر جعل الشهادة تدور حول امور فنية . فناقشت الاميرال في امر المدفع وقوة سيره واندفاع مقذوفه ومع ان هذا الاميرال كان حائزاً لتلك الرتبة الكبيرة في البحرية البريطانية فقد خيل للسامعين انه لا يعرف عن دقائق مدفعه اكثر مما كنت اعرف انا وقد كاد يبوح بامور لا تجوز اباحتها غير انه استدرك واستغاث بهيأة المحكمة قائلا :

— يا فخامة اللورد الرئيس . اني لا ارى من مصلحة الحكومة البريطانية ان تستمر المناقشة حول هذه النقطة في محكمة علنية

اما انا فبقيت مصراً على القول ان معلوماتي عن المدفع المذكور كانت وافية حتى اني لا احتاج الى التجسس في محل بيردمور لمعرفة امور انا عالم بها من قبل . ثم تقدم خبير آخر الى موقف الشهادة وبعد ان ناقشته في اقواله خاطب هيأة المحكمة قائلا :

« قد يسهل على رجل له ما للمتهم من المعارف الواسعة والاختبارات الكثيرة ان يتوصل الى معرفة كل ما يريد معرفته عن مدفعنا الجديد بمجرد حصوله على بعض التفاصيل الاولية »

وهنا اقول كلمة قد تلذ للاميرال معرفتها وهي اني مديون باكثر المعلومات التي حصلت عليها لبعض سيدات الاندية الموسيقية ودور التمثيل اللواتي كن ذوات علاقة ببعض اركان حزبه

ثم قدم للمحكمة ورقة وجدت مع امتهي هذا نصها :

« محل وليم بيردمور وشركاه في بارکهيد جلاسكو . يصنع مدفعاً جديداً من عيار ١٣ ١/٢ بوصة لاجل البحرية . طول ١٥ قدما ثقل ٧٣ طنا . اطول من مدفع ١٢ بوصة بقدم واحدة ولكنه اثقل منه باثني عشر طنا . ثقل القنبلة ١٢٥٠ رطلا فهي تزيد ٤٠٠ رطل عن قنبلة مدفع ١٢ بوصة »

ما كاد اليوم الاول من ايام المحاكمة ينتهي حتى اصبح الجميع يعتقدون اني سأخرج بريئاً من تهمة الحصول على معلومات سرية عن ذلك المدفع. على ان القارىء بلا شك يعلم اني حصلت عليها فعلا

ولقد دهشت غاية الدهشة عندما جاءني احد الحجاب بعد انصراف المحكمة ببعض المرطبات وكانت مرسلة من مائدة رئيس القضاة نفسه بامره ومصحوبة بتحية لطيفة منه فشعرت باني اعامل معاملة حسنة اوهي ادنى الى معاملة الضيف منها الى السجين

ولما كان اليوم الثاني من ايام المحاكمة عرض على المحكمة الخطاب الذي تقدم ذكره والذي رفض تسليمه الي ثم اعيد الى محل «بروز وولكوم» الكيماوي في لندن وكان سببا في افتضاح امري . فوقف المدعي العمومي يتلوه بصوت يدل على انه يعلق اهمية كبيرة على هذا الخطاب وما جاء فيه وهذا نصه على ما اذكر:

«سيدي العزيز: لقد سرنا ان نعلم بنجاحك في الاعمال التي في يدك. الامل ان ترسل الينا «عينة» باقرب وقت. اما الامر الاخر فاني لا استطيع ان اعلم بعد مقدار فائدته لنا غير ان محلنا على كل حال لا يدفع اكثر من مئة جنيه نظير ذلك»

وكان هذا الخطاب بدون توقيع

قرأ السر اندرسون الخطاب وهو يقلب في يده الاوراق المالية ثم بدأ حملته قائلا : —

« قد لا تدل ظواهر الخطاب على الشبهة الا اني اقول ايها السادة انه في زمن ثورة اليعقوبيين كان يشار الى الحكومة في رسائل كهذه بلفظة «محل تجاري» فان كان هذا الخطاب خطابا تجاريا خاليا من الغش فلماذا وضع في غلاف طبع عليه اسم محل تجاري لا يعلم من امر الخطاب شيئا ؟ لماذا وضع طيه مبلغ من المال ؟ وما هو الشيء الذي قال المحل انه مستعد ان يدفع عنه مئة جنيه ؟. ايها السادة ان اسباب ذلك واضحة جلية تعرف بالبداهة»

هذا ما قاله المدعي العمومي. على ان ذلك الخطاب حير المحكمة والمحلفين والصحف وانكلترا باسرها وسأشرح معناه هنا لاول مرة

ان الخطاب كان من الحكومة الالمانية

لا من سواها والمقصود «بالاعمال التي في يدي» نوع من المواد المنفجرة وبارود بطيء الاتقاد يستعمل في المدفع الجديد الذي من عيار ١٤ بوصة والذي كان يصنع في جلاسكو وقد كان بيدي «عينة» من نوع تلك المواد اما سبب عدم وجودها بين امتعتي او وجود سواها مما يثبت الجريمة فهو ان الجاسوس المجرب لايترك شيئاً كهذا ظاهراً بل يدفنه في موضع امين اي انه يودعه في مستودع سري مفتاحه بيد شخص له سلطة قضائية اي وكيل دعاو مفوض . والعينة التي جاء ذكرها في الخطاب هي عينة تلك المواد

اما «الامر الاخر» الذي ورد ذكره في الكتاب فكان ذا اهمية كبرى يفوق الامور الاخرى وفيه خطر عظيم على سلامة وسائل الدفاع البريطانية . والمقصود به تفويض الامرالي في تعيين احد ضباط البحرية البريطانية في خدمة المانيا على ان يتناول ١٠٠ جنيه شهريا ويكون عليه في حالة نشوب الحرب ان يرتكب خيانة عظمى في احد الموانئ الحربية البريطانية

لم اخطيء في حكمي السابق على المحلفين فان هذا الكتاب لم يؤثر فيهم كثيراً لانه كان مبهما وكل ماقاله المدعي العمومي لم يؤثر كثيراً في اذهان المحلفين الاسكتلنديين

وبينما انا افكر في هذه الامور مطمئنا اذ دخل الحاجب وناول المدعي ورقة عرفت من شكلها ما هي نخفق قلبي وضاعت كل آمالي

ثم رايت المدعي العمومي يبتسم وما لبث ان خاطب المحكمة قائلا :

« سأري المحكمة الان اصطلاحات سرية وضعت للعمل ضد سلامة المملكة البريطانية »

وقد كان مصيبا في قوله . فان الورقة التي كانت بيده حوت اسماء جميع البوارج البريطانية والحصون والموانئ والقواعد البحرية ونقط الدفاع وقد بلغ ذلك نحو ١٠ الاف اسم امام كل اسم رقم خاص به يعبر عنه مثال ذلك ان الدرد نوط «الملكة ماري» كان يعبر عنها برقم ٨١٣ وهلم جرا.

هذه هي الاصطلاحات السرية التي كنت افاوض الحكومة الالمانية بها ولما كانت الاسماء كثيرة لا تحفظها الذاكرة

كتبتها في دفتر من الدفاتر التي يعطيها محل «بوروز وولكوم» الكيماوي للاطباء وقد كان هذا المحل التجاري شؤما علي في كل شيء فغلافه فضح امري ودفتره اثبت جريمتي

اما كيفية استعمالي تلك الارقام فهي اني كنت اذا علمت بتحرك احدى السفن البحرية اكتب رقمها الاصطلاحي واتمم برقيتي باستعمال كلمات الاصطلاح التجارية المعروفة فلا يشتبه احد بها. وقد كان في ذلك الدفتر كلمات وجمل اصطلاحية اخرى مثل كلمتي «الاشاعات السارية» «قادمة» «ذاهبة» «تستعد للمعركة» «الحصون البرية مسلحة وفيها حراس» «مناورات حربية بشكل دفاع قائمة في عرض البحر» «الفحم ينقل بالسكة الحديدية» «الاحتياطي يجمع بجد» «الالغام تلقى في البحر» — «هدو تام — لا شيء يستحق الذكر» «البوارج بدأت تظهر» الخ

ويفهم بداهة ان توفقهم الى ايجاد هذا الدفتر غير شكل القضية ولم يبق مجال للدفاع والجدال. فلم اطلب لشهادة النفي سوى اثنين او ثلاثة كنت اوجه اليهم السؤال الاتي :—

— ماذا تعلمون عن اميالي نحو بريطانيا العظمى فكانوا يجيبون انه وان ثبت اني جاسوس الماني فاني لم اظهر قط في وقت من الاوقات ما يدل على شيء من العداء نحو بريطانيا العظمى. وكان قصدي باثبات هذه الامور حمل المحكمة على الرافة بي.

ولما انتهت المحاكمة اختلى المحلفون للمفاوضة وبعد نصف ساعة عادوا واعلنوا قرارهم باني قد وجدت مذنبا وارتكبت جرم تعريض سلامة المملكة البريطانية للاخطار. وجزاء هذا الجرم كما يذكر القراء السجن سبعة اعوام مع الاشغال الشاقة

غير اني مع كل ذلك لم افقد شجاعتي ولا آمالي.

وبينما كان رئيس المحكمة يستعد للنطق بالحكم اذ دخل رجل تدل هيأته على علو مركزه وعلى انه من رجال الطبقة العليا وقد سار به الحاجب باحترام تام الى مجلس القضاة فرايت رئيس المحكمة ينحني امامه ثم تلا ذلك حديث بينهما بصوت منخفض فاوجست خيفة وقلت على الدنيا السلام اذ خطر لي انه قادم باوامر تقضي بتشديد العقوبة

غير ان ملخص الحكم كان كما يأتي
بعد النظر في ظروف هذه القضية
حكمت المحكمة على المتهم بالسجن ١٨ شهراً
فدوت القاعة بضجيج المجتمعين
وهمسهم وسمعت كثيرين يبدون استغرابهم
ودهشتهم ولاسيما مكاتبي الصحف الاجنبية
لقد كان الجميع ينتظرون الحكم علي
بسبع سنين لذلك وقع الحكم بثمانية عشر
شهراً موقع الاستغراب عندهم
اما انا فابتسمت وقلت
« فلينصرف ارجارد كارل جريفس »
اخذت اولا الى سجن كارلتون هل
في ادنبورج ثم نقلت بعد ذلك الى سجن
بارليني بالقرب من جلاسكو.
وقد عوملت في السجن معاملة استثنائية
فالمعاملة التي رايتها اثناء المحكمة استمرت
في السجن وبعد ان اقمت في سجن برليني
قليلا شعرت بان موظفي السجن يحاولون
ان يستطلعوا سري ولكن على غير جدوى
وكانت خلاصة اقوالهم لي
« انك غبي تظلم نفسك في بقائك
هنا — فلماذا لاتسعى بالخروج »
هذا ماكان يقوله لي الجميع من محافظ
السجن الى اصغر سجان فيه اما انا فلم ابح
بشيء مما اسر
والان اعرض على القارىء بعض
تفاصيل رفض تقديمها لمجلس العموم عند
الاستفهام فيه عن قضيتي :
في نهاية الاسبوع الخامس من سجني
اخذت الى مكتب محافظ السجن ولما دخلته
رايت رجلا انكليزيا طويل القامة نحيف
الجسم عليه ملامح رجال الجندية وهو من فرق
الفرسان (ان لضباط الفرسان بعض المزايا
التي لاتخفى على الخبير) فخاطبني المحافظ
قائلا : —
«ان هنا سيداً يريد ان يراك ياجريفس
اما الرجل الغريب فانه نظر الى محافظ
السجن وقال:
«قد يطول اجتماعي بالدكتور جريفس
فلديك الاوامر اللازمة»
فتركنا المحافظ وانصرف فنهض
الغريب وقال
— ان اسمي روبنسون ايها الدكتور
تفضل فاجلس
اما انا فلما كنت سجيناً لم اشأ ان
اجلس فشكرته وبقيت واقفاً

— كيف يعاملونك في السجن

— لا اجد ما اشكو منه

— هل تجد الحبس متعبا

— طبعاً . غير اني فيلسوف انظر الى الامر بعين الفيلسوف فكل شيء « قسمة » ونصيب ايها الكبتن

— انك تخاطبني بلقب « كبتن » ونحن لم نلتق قبل هذه المرة فمن اين لك معرفة رتبتي

— صحيح اننا لم نلتق قبل الان غير اني عاشرت جميع طبقات الضباط زمناً طويلا فاصبحت قادراً ان اعرف الضابط البريطاني الذي في فرق الفرسان عند النظر اليه . وانك على ما اظن من فرقة « الهوسار »

فضحك الكبتن ضحكا طويلا ثم عاد الى تمهيد الطريق لحديثه على هذا المنوال فقال :

— والان ايها الصديق (مستعملا لفظة انكليزية مصطلحاً عليها للتحبب) نحن نعلم انك خدمت المانيا خدمة تذكر نا كذلك نعلم انك لست المانياً . فهل هناك سبب يمنع ان تخدمنا

— ايها الكبتن : يجب ان تعلم ان رجلا مثلي لا يقبل ان يخون رؤساءه لمجرد الطمع بالحرية او الكسب المادي . اننا ننخرط في سلك الخدمة ونحن عالمون حق العلم ما يصيبنا اذا قبض علينا . لذلك لا نستغيث ولا نشكو ولا نتذمر اذا لحق بنا اذى

فسكت الكبتن ونظر الي نظراً دقيقا يدل على الاعجاب ثم قال

ان قولك هذا يحقق كل ما سمعناه وتمكنا من معرفته عنك . لقد كنا في دهشة من سلوكك فمن ساعة وصولك الى انكلترا كنت مواظبا على عملك وكنت تظهر عدم اكتراث حتى في اثناء محاكمتك وفي السجن فسلوكك كان يدل على انك لا تتأخر عن ان تذهب الى النهاية القصوى في كل مهمة يعهد اليك بها

ونحن نعتقد انه في استطاعتك ان تفعل اكثر مما فعلت ... الم يدهشك خفة الحكم عليك ورافة القضاء بك

— انا لا يدهشني شيء .

ثم بدت عليه علائم الجد والاخلاص وقال : —

— هب انا اظهرنا لك ان افتضاح امرك والقبض عليك كان نتيجة تدبير

رؤسائك فماذا تقول عندئذ ؟ هل تبقى مصراً على الامانة والاخلاص لهم ؟

***

ان قول الكبتن لم يدهشني مطلقا . فقد كنت اشعر بهذا الامر من قبل . ولذلك كنت اعمل بهدو وسكون ولم افعل في انكلترا كل ماكان باستطاعتي ان افعله لخدمة المانيا . فاجبته قائلا :

« اني عندئذ اكون مستعداً للبحث معكم في هذا الامر غير اني اظل كالاصم لا اسمع شيئا ما دمت ارى قضبان الحديد في نافذتي .

فابتسم الكبتن وقال :

— اني سأراك ثانية في اقرب وقت

— لا مانع عندي في ذلك غير اني اعود فاؤكد لك ان وقتك يضيع سدى ما دمت خلف قضبان الحديد

— اترك هذا الامر لي ثم اخذ يدي وهزها بتودد وانصرف

عدت الى سجني والحق يقال اني لم انم الا قليلا في تلك الليلة والليلتين التاليتين لقد كنت اثناء محاكمتي امثل دوراً واتقن تمثيله واستطعت عند الحاجة ان ابدي عدم الاكتراث التام والرزانة المتناهية كما فعلت مع الكبتن روبنسون غير اني اعترف ان السجن ضايقني واصبت بارق شديد فكنت اصرف الليل كله اسير في غرفتي ذهابا وايابا

ولم يمض اسبوع حتى جاءني الكبتن روبنسون ثانية . وكان وصوله هذه المرة في آخر الليل بعد ما نام جميع المسجونين واقفلت ابواب السجن . فاخذني وكيل محافظ السجن الى مكتب المحافظ بدون ان يشعر بنا احد من الموظفين الاخرين

ولما دخلت على الكبتن روبنسون حياني قائلا

— مرحبا بالدكتور العزيز . ان باستطاعتي الان ان اعرض عليك شروطا نهائية . لقد بقي من مدة سجنك ١٦ شهراً فهل تقبل ان تصرف هذه المدة في خدمتنا لا في السجن على شروط نتفق عليها فيما بعد واني مستعد لاقناعك بالبراهين المحسوسة بان الحكومة الالمانية هي التي غدرت بك والقتك في ايدينا »

ثم ابرز تلك البراهين المقنعة فزال من نفسي كل ريب ورايت ان ظنوني كانت

في محلها فان الحكومة الالمانية لما رات اني اصبحت عالما بامور كثيرة من احوالها السياسية رات ان بقائي حراً طليقا خطر عليها فارادت التخلص مني وغدرت بي وكانت ترى ان سجني سبع سنوات يكفي لاتمام كل خطتها السياسية التي بدأت في احراج طانوس

ثم عاد الكبتن الى الحديث فقال

— والان ماهو رأيك وماذا تقترح

— اذا اردت ان اخدمكم خدمة نافعة فيجب ان لا يعلم مخلوق باطلاق سراحي هذا هو اقتراحي واترك امر تنفيذه لك . ان اهل ادنبورج جميعا كانوا يعلمون اني ضعيف معتل الصحة وهذا ما اوهمتهم به كل مدة اقامتي بينهم . وهنا في السجن يعتقدون ذلك . فيسهل عليكم ان تدعوا اني نقلت الى سجن اخر مراعاة لصحتي . فاذهب الى حيث تريد ارسالي . ولا ارى موجبا لان يعلم احد بهذا الامر عدا محافظ السجن ووكيله

— ان هذا ينطبق تمام الانطباق على ما كنت افكر به

ثم انصرف اما انا فعدت الى سجني ولما كانت الساعة الخامسة صباحا ايقظني وكيل المحافظ وذهب بي الى غرفة المحافظ وهناك وجدت ملابسي بانتظاري فارتديتها وخرجت من السجن مع الوكيل نفسه بدون ان يرانا احد

ركبنا سيارة الى محطة جلاسكو حيث ركبنا القطار الذاهب الى لندن ولما وصلنا الى محطة اوستون قابلنا الكبتن روبنسون فدخلنا غرفة الانتظار بالمحطة وهناك وقع الكبتن على ورقة قدمها له وكيل محافظ السجن وكانت تلك الورقة تفيد تسليمي اليه ولما تم ذلك ودعنا وكيل السجن وانصرف وبقيت مع الكبتن

ولما اصبحنا منفردين اخرج الكبتن غلافا وسلمني اياه فاذا به تعليمات عما ينبغي علي ان اعمله ومبلغ من المال . ثم ودعني الكبتن وانصرف . وبقيت وحدي حراً طليقاً ويظهر من ذلك ان الحكومة البريطانية وثقت بي كل الثقة

فتوجهت رأساً الى فندق رسل حيث فتحت الغلاف الذي سلمني اياه الكبتن روبنسون فوجدت به عشرة جنيهات وورقة كتب فيها ما يأتي : —

« في الساعة العاشرة والنصف من

صباح غدا طلب بالتلفون رقم . . . في مايفير »
فلما جاء ذلك الموعد طلبت الرقم المذكور فقيل لي انتظر قليلا ثم سمعت صوت الكبتن روبنسون نفسه يخاطبني فطلب مني ان اوافيه للغداء في فندق موبرلي في ميدان ترافلغار ففعلت وهناك انضم الينا رجل اخر اسمه المستر مورجان وهذا علمت من منظره وتحققت انه من البوليس السري الانكليزي، وبينما نحن نتناول الغداء اخبرني مورجان باني ساذهب مع الكبتن روبنسون الى دار الحكومة البريطانية في دوننج ستريت بعد ظهر ذلك اليوم فان احد الوزراء يرغب ان يراني

ذهبت برفقة الكبتن ولما وصلنا كتبنا اسماءنا في دفتر الزوار ثم ادخلت الى غرفة انتظار اما الكبتن فودعني وانصرف .

وهنا لا بد ان اذكر ان الاسم الذي اخترته لنفسي وكتبته في دفتر الزوار كان « ترنتون سنل » فاذا خطر للحكومة البريطانية ان تكذب الرواية التالية فلتبرز دفتر الزوار في « دوننج ستريت » تجد فيه اسم « ترنتون سنل » ولتقارن ذلك الخط بخطي يتضح صدق قولي

واني اقول هذا لان ما جرى لي في « دوننج ستريت » كان في منتهى الخطورة والاهمية

وبعد ان انتظرت اكثر من عشرين دقيقة جاءني حاجب وصعد بي على سلم ثم طرق باباً وفتحه وقال:

« الرجل المنتظر » — فدخلت الغرفة ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع السر ادوارد غراي

وكان الوزير جالساً الى مكتب من خشب الجوز الثمين مغطى بغطاء من الجوخ الاخضر. وقد بدا لي ان تلك الغرفة هي مكتبه الخصوصي لا غرفة الاعمال الرسمية فان الاوراق والخطابات كانت منثورة هنا وهناك على اطراف المائدة وعلى الكراسي وقد جلس الوزير على كرسي كبير من كراسي الاستراحة وقد لف ساقه الايمن على الايسر وامسك بيده اوراقاً يقرأها فلم يلتفت لا يمنة ولا يسرة ولم يرفع نظره من اوراقه بل ظل يقرأ كانه لم يعلم بدخولي عليه وبقيت واقفاً على هذا الشكل اكثر من عشر دقائق

ثم التفت فرآني ودعاني للجلوس فاجبته

اني افضل الوقوف فتقدم من مكتبه وفتح درجاً اخرج منه ملفاً كبيراً علمت بعد ذلك انه تقرير عني ففتحه واخذ يقرأه ومرت برهة طويلة كالاولى اغتنمت في اثنائها الفرصة لان انظر الى الرجل الذي امامي

ان السر ادوارد جراي فرد من اولئك الموظفين الانكليز المتصفين بجمودهم الكثير والذين لا تقدر امة على ما يظهر ان تخرج مثلهم غير الامة الانكليزية

ثم ان الوزير ترك القراءة وقلب نظارته بين انامله ثم نظر الي وقال :

— اظنك عالماً باستعدادات المانيا البحرية وخبيراً بها ؟

— نعم ولكن الى درجة معلومة يا سيدي

— اية درجة ؟

— اني اعرف كل ما يتعلق بادارة المخابرات بوزارة البحرية

— وهل تظن ان استعدادهم عظيم وفي درجة الكفاءة والكمال التي نسمع بها

— هذا ما لا يحتمل مبالغة

وبعد ان سألني اسئلة عديدة اجبته عليها ثم انتقل الى حديث الجد الذي كان يشغل فكره فقال :

— هل تعلم ما اذا كان هناك موظفون اوضباط بحريون يبيعون اسراراً من اسرارنا لاحدى الدول الاجنبية ؟

فأدركت قصده من ذلك غير اني عقدت النية على ان لا اخبره بكل شيء اعرفه فأجبته :

— نعم يوجد امثال هؤلاء

فبدت عليه علائم الدهشة ونظر الي مستغربا وقال :

— من اين علمت ذلك ؟ والى اي امر تستند في قولك هذا ؟

— ليس لدي براهين وادلة غير اني اذا ذكرت المعلومات التي حصل البعض عليها والرسوم التي تمكنوا من اخذها مثل رسم بارجتكم الدردنوط « الملكة ماري » وشقيقتها « اجاكس » ارى بالبداهة ان اموراً كهذه لا يمكن لاحد الحصول عليها الا بمساعدة موظفين من موظفي حكومتكم

فألح علي بزيادة الافصاح غير انه لم يستطع ان يعلم كثيراً . على انه كان باستطاعتي ان اروي له رواية لطيفة جداً

عن طريقة حصولي على رسوم الدردنوط « الملكة ماري » و « اجاكس » ولكن لم اشأ ان افعل ذلك

ثم عاد الى درس التقرير الذي بيده وعاد بعد قليل الى الحديث فأدركت ماوراء حديثه. ولما كان الحديث طويلا فسأكتفي بذكر خلاصة السؤال الذي وجهه الي وهو

— هل حضرت مؤتمراً اجتمع فيه موظفون كبار ؟ هل كنت مثلا حاضراً اجتماع شلانجنباد ؟ هل لديك تفاصيل او بيدك اوراق تثبت انك كنت هناك ؟

لم استغرب قط اختياره اجتماع شلانجنباد مثلا لحديثه فقد كنت اقدر ذلك من قبل. ولما كان سؤاله يدل على تمام المعرفة لم ار فائدة في الانكار فربما كان احد زملائه تذكر انه رآني في جنوب افريقيا فذكر امامه عرضا ذلك الاتفاق

فقلت لا اوراق عندي ولا تفاصيل غير اني بدأت اتضايق من مجرى حديثه وادركت ان هذا الوزير الانكليزي يحاول احد امرين . فاما انه لم يكن يعلم شيئاً كثيرا عن اجتماع شلانجنباد واراد ان يعرف ذلك مني واما انه يريد ان يعلم ما اذا كنت اعرف الغاية من ذلك الاجتماع وما تم فيه — على اني رايت من الصواب ان احترس في الاجابة ولا ابوح بشيء كثير

وبعد اسئلة عديدة عن خطط الالمان وقوتهم البرية والبحرية بدأ يستدرجني لاقارن بين قوتهم وقوة بريطانيا العظمى بانياً ذلك على اختباراتي الشخصية فداني كل ذلك ومجرى حديثه ان السر ادوارد جراي لم يكن متأكدا من فكره او ميالا لمحالفة المانية انكليزية — ان الاميال الشخصية تمثل دوراً كبيرا مع الرجال الذين مثله .

ثم حاول ان يعرف فحوى الرسائل الشخصية التي كان يحملني اياها الامبراطور غير انه لم يفلح في ذلك كثيراً

وبعد هذه المقابلة ببضعة ايام تلقيت الاوامر النهائية من الكبتن روبنسون وعهد لي بالمهمة الاولى في الخدمة السرية البريطانية ثم ان المهمة الثانية اقتضت ذهابي الى نيويورك حيث استقلت من الخدمة نهائياً .

الفصل الحادي عشر

آلة الحرب الالمانية

ان كثرة الجيش وكيفية توزيعه وكفاءته في المانيا من الامور التي لاتحتاج الى الاسهاب. على ان القوة الفكرية او مجمع العقول الكبيرة الذي يدير من برلين شؤون جيش مؤلف من اربعة ملايين مقاتل قد لايعلم الناس عنه شيئاً كثيراً

واني انشر هنا الاول مرة وصفاً مسهباً عن دخائل اعمال آلة الحرب الالمانية هو اوفى مايستطيع انسان معرفته او الوصول اليه. وقد اتاح لي احتكاكي الطويل بالامور الالمانية السياسية وخدمتي في الجاسوسية وغيرها واختلاطي بالضباط البريين والبحريين على اختلاف مراتبهم فرصاً حسنة للوصول الى معلومات وافية اغتنمتها كلها واستفدت منها بقدر الاستطاعة والان ادون في كتابي هذا نتيجة ذلك كله ان « آلة الحرب الالمانية » هي اكفأ واتم مايستطيع عقل الانسان ان يأتي به ليس فقط في الحرب والدمار بل في ايجاد ادارة [illegible] مستوفاة للامبراطورية باسرها والالمام بكل شؤونها

وضع اساس هذه الالة الجنرال ستين في عهد حروب نابوليون ثم استمرت تنمو وتتحسن على عهد خلفائه حتى بلغت درجة الكفاءة وهي تحت سلطة الاسرة المالكة الفعلية ويعزى الفضل في حسن سيرها ومقدرتها العملية وكفاءتها المتناهية الى عدم وجود شيء من روح الدسائس السياسية والمحسوبية

قلت المحسوبية لان المقدرة والعقل والقوة الدفاعية والمعلومات العلمية الواسعة هي « الباسبورت » الوحيد للدخول في هيأة اركان حرب الجيش الالماني فقد يجد الانسان بين هؤلاء شباناً صغار السن وشيوخاً شيباً قد تجاوزوا السن المقدرة للعمل وخبراء فنيين من درجة الميكانيكي الى اكبر خبير في الفنون الهندسية وجميع هؤلاء يشتغلون باتحاد واتفاق بينهم لا ينظرون الا الى غاية واحدة وهي اتقان عملهم والبلوغ به الى درجة الكمال.

وهذه « الالة الحربية » التي يديرها « سيد الحروب » نفسه بواسطة رئيس اركان حربه العام — الآلة العظيمة التي هي الدماغ

المحرك لجيش عظيم يزيد عدده عن اربعة ملايين مقاتل ونصف مليون تؤلف من ١٢٠ الى ١٨٠ موظفا

عند عقد صلح «تلسيت» بعد انكسار الجيوش البروسية في ايلاو وفريدلاند كانت بروسيا واوروبا الوسطى باسرها تحت رحمة نابوليون بونابارت. على ان نابوليون رغم نصيحة مستشاره العاقل تيلران بان يفكك اوصال بروسيا وبسبب غرامه بالنساء الجميلات سمح للويزا البروسية ان تخدعه. وحكاية هذه الحادثة اللطيفة قد تجد محلا هنا وهي تبين كيف ان تاريخ العالم يبدل بقبلة واحدة

في اثناء مؤتمر الصلح في «تلسيت» بينما كان نابوليون على وشك القضاء على بروسيا وتقسيمها التقى بالملكة لويزا ملكة بروسيا فاجابة لاسترحامها والقاء قبلة حارة طبعها نابوليون على ذراعها الجميلة سمح لبروسيا بان تحتفظ بحق ابقاء جيش عامل مؤلف من ١٢ الف مقاتل

ان هذا الامر لم يكن عظيما بحد ذاته غير انه اعطى البروسيين المتفانين في حب وطنهم فرصة مكنتهم من مخاتلة نابوليون بونابارت والعمل تحت الستار

لقد كانت بروسيا دائما موفقة في ايجاد الرجال الاكفاء في ساعات الحاجة اليهم. فكان من حسن توفيقها ان ظهر فيها رجل وهبه الله المقدرة على تنظيم الجندية فاحصى كل مقاطعاتها واقسامها ومدنها وقراها احصاء دقيقا ووضع كشوفا باسماء الاصحاء الاجسام والاشداء من ابنائها. فانتخب من بينهم الاثني عشر الف مقاتل الذين سمح نابوليون لبروسيا بهم ودربهم على الاعمال الحربية . ولما تم تدريب الاثني عشر الفا الاولى صرفهم وجمع سواهم وظل على هذا المنوال حتى اصبح في بروسيا ١٨٠ الف رجل مدربين اتم تدريب و١٢٠ الفا آخرين بمثابة جيش احتياطي وهذا بلا شك يختلف كثيراً عن الاثني عشر الفا الذين سمح نابوليون بهم والذين كان يعتقد انه سيقابلهم عند تراجعه عن موسكو . وقد مثلت هذه القوة دوراً عظيما فعليا في اسقاط مدوخ اوروبا والقضاء على سلطانه. وكان الفضل في كل ذلك لنابغة المانيا العظيم الجنرال ستين الذي كان اول من وضع قواعد التجنيد المصرية.

فلما كانت حروب سني ١٨٦٤ و١٨٦٦ و١٨٧٠ تقمصت روح آلة الحرب البروسية وانتقلت الى الامبراطورية الالمانية وقد تقدمت منذ ذلك الحين في كل شيء تقدما يفوق الوصف والادراك وذلك بعد ان تطلبت اعمال الاشاقة وجمع احصاءات دقيقة جداً . وطريقة التجنيد الجديدة وخصوصا جداول التعبئة هي من مبتكرات «الصامت العظيم» هلموث فون مولتكي بطل حرب سنة ١٨٧١

ومن الغريب ان بين المرحوم مولتكي والجنرال هيرنجن رئيس اركان الحرب الحالي اوجه شبه عديدة فكلاهما طويل القامة نحيف الجسم وقد تشابهت كذلك ملامح وجهيهما وعوائدهما حتى في وسائل التسلية فان مولتكي كان مولعا بلعبة الشطرنج وهيرنجن مثله يمضي كل دقيقة من اوقات فراغه في تحريك عساكر من الرصاص يلعب بها بعد قيامه من النوم وهكذا كان يفعل فون مولتكي فانه كان يطلب الشطرنج عند فتح عينيه . والدوائر العسكرية تعزو الى فون هيرنجن من المهارة في الفنون الحربية ما تعزوه الى مولتكي .

وهناك حقيقة تدعو الى الانتباه وهي انه كلما وقع اضطراب في اوروبا او وقع اي حادث بين فرنسا والمانيا يتولى الجنرال فون هيرنجن او زميله الجنرال فون ثلسون هسلر قيادة موقع متز وهي امنع الحصون الحربية في المملكة

ولا يوجد رجل على وجه الارض يعرف من تفاصيل الدفاع والاستعدادات الحربية في متز نصف ما يعرف الجنرال فون هيرنجن عنها . وقد حدث مراراً في اشد ليالي الشتاء برداً ان الحراس في النقطة الخارجية في متز استيقظوا على حركة شبح طويل ليس عليه اية علامة تدل على رتبته يقترب نحوهم ووراءه اتباعه يحملون كرسيا صغيراً ومائدة ومصباحا كهربائيا مطفأ فيجلس بغتة يكتب ثم يعود الى السير في الظلام يمينا وشمالا من الحصن . حقا ان هذا السهم المسدد دائما الى قلب فرنسا هو في حرز حريز بعناية هذا القائد العظيم

ان الرئيس العظيم لهذه الادارة المتسعة يسمى « درجروس جنرال ستاب » او رئيس اركان الحرب العام ومركزه في برلين ولكل من فيالق الجيش هيأة اركان

حرب مستقلة ترسل الى برلين اكفأ ضباطها ومن هؤلاء المهندسين والخبراء الفنيين تتألف هيأة اركان الحرب العامة والرئيس الحقيقي لهذه الهيأة هو الامبراطور نفسه والذي ينفذ اوامره ورغباته هو رئيس اركان الحرب العام

وهناك في دائرة اركان الحرب غرفة صغيرة يجتمع فيها في الاوقات الحرجة خمسة رجال . هم الامبراطور وعلى راس المائدة والى يمينه رئيس اركان الحرب العام والى يساره وزير الحربية ثم ناظر السكك الحديدية ورئيس اركان حرب البحرية . ويلاحظ القارىء ان وزيري المالية والامور السياسية لايحضران هذه الاجتماعات . ان هؤلاء الاشخاص الخمسة يجتمعون للعمل واذا اجتمعوا لا يبقى هناك اقل شأن للامور السياسية او المالية . وتحريك قلم الامبراطور في تلك الغرفة معناه الحرب وتحريك خمسة ملايين من الجنود المدربين

لما كانت ازمة المغرب الاقصى في اشد ادوارها خرج الجنرال فون هيرنجن كعادته من مكتبه للتنزه في حديقة «تيرجارتن» فالتف حوله عدد غفير من الضباط الذين كانوا بانتظار خروجه وسألوه قائلين :

— ايها الجنرال «جيتس لوس» ؟ او ماترجمته : هل نبدأ ؟

فابتسم الجنرال لهم وقال

— «سيبن بخستابن ماين هيرن» او سبعة احرف ايها السادة

وهذا اصطلاح الماني يشير به رجال الجندية الى توقيع الامبراطور «ولهلم الثاني» على امر التعبئة .

ولكي يحيط القراء علما بقوة المانيا سأصف كل فرع من فروعها على حدته ويتوقف كل النظام على مسألة التعبئة ومعنى ذلك المقدرة على التسليح والتموين وايجاد وسائل النقل والكسوة اللازمة لقوة محاربة يزيد عددها عن اربعة ملايين مقاتل ونصف مليون في اقرب وقت وفي اية جهة من جهتي الشرق والغرب

فان القصد الوحيد من تدريب هذا الجيش الكبير واعداده هو الاستعداد لارسال قوة حربية كبرى تنقض كالصاعقة في الجهة المطلوبة . وقد تعلمت المانيا من اختباراتها السابقة ان افضل شيء هو محاربة

العدو في بلاده فالجيش الالماني قد اعد للهجوم لا للدفاع . وهو يعتمد على اربعة امور رئيسية:

(١) النظام

(٢) ادوات النقل

(٣) التموين

(٤) المخابرات

وكل واحد من هذه ينقسم الى فروع مختلفة سنأتي على وصفها عند البحث في كل قسم على حدته

النظام

فاول شيء هو النظام. والجيش الالماني ينقسم الى ثلاثة اقسام مستقلة : الجيش العامل والاحتياطي واللاندوهر.

فالاول منها يتألف من ٧٩٠ الف رجل بين ضباط وجنود وهذا القسم هو على قدم الاستعداد دائما . والاحتياطي هو الذي يحتاج الى التعبئة وينقسم الى صفين الصف الاول والصف الثاني . كذلك اللاندوهر ينقسم الى قسمين اي الاول والثاني .وكل رجل صحيح الجسم يبلغ سن الواحدة والعشرين يجوز استدعاؤه للخدمة [illegible] يؤخذ واحد من خمسة فقط لان هنالك اكثر مما تحتاجه البلاد وهذا الواحد ينتخب لاحد فروع الخدمة في المشاة او الفرسان او المدفعية او فرقة المهندسين او البحرية .

ومدة الخدمة في المشاة سنتان وفي الفرسان ثلاث سنين وفي المدفعية مثلها وفي فرق المهندسين سنتان وفي البحرية ثلاث سنين . والجنود الذين تحسن الشهادة في سلوكهم تخفض مدة خدمتهم من شهرين الى اربعة .وهذا الامر لا تأتيه الحكومة كرما واحسانا منها بل هو نتيجة خطة مدبرة يقصد بها خداع مجلس النواب ليوافق على تقديم ٧٥ الف رجل اخرى.

وهنالك فئة اخرى لا تخدم الا سنة واحدة في اي فرع من الفروع وهي فئة الذين يجتازون امتحانا علميا ويكون بايديهم شهادة تعادل شهادة البكالوريا .ومن هذه الفئة يؤلف اكثر ضباط الاحتياطي . اما ضباط الجيش العامل فاكثرهم من ابناء العائلات الشريفة او العائلات الالمانية التي لها تاريخ قديم في الجندية .وجميعهم يكونون من خريجي المدارس الحربية الالمانية واشهرها مدرسة «جروس لخترفلد» في برلين

على ان عماد الجيش البري والبحرية الالمانية فئة ضباط الصف وهؤلاء ينتخبون من بين الصفوف . هذه الفئة هي والحق يقال سند العروش في الامبراطورية الالمانية وعلى الاخص بروسيا . وبعد ان يقضي افرادها ١٢ سنة في خدمة الجيش ويشهد لهم بالطاعة والامانة وحسن السلوك والمحافظة على النظام يوزعون على جميع دوائر الاعمال مثل السكة الحديدية والبوستة والبلديات والبوليس ويدرك القاري اهمية هذا الامر عند ما يعلم ان هؤلاء الافراد المدربين لا يخدمون الامبراطورية فقط بل يكونون في الوقت نفسه مستعدين دائما لتلبية طلب آلة الحرب الالمانية

والضباط كذلك يوزعون على دوائر الحكومة للقيام باعمالها المختلفة وتولي مناصبها الكبيرة

وفي الجيش الالماني ٢٥ فيلقا موزعة في المواقع ذات الاهمية الحربية واعظم هذه المواقع في الالزاس واللورين وعلى ضفاف الرين ويأتي بعدها مواقع الحدود بين بروسيا وروسيا . والبلاد كلها مقسمة الى اقسام عسكرية تحفظ فيها جداول بالذكور واصحاب الاجسام الصحيحة ورجال الاحتياطي وعدد السيارات والخيل والمركبات التي يمكن الحصول عليها ثم مواد الغذاء والفحم وبعبارة اخرى كل ما قد يحتاج اليه الجيش المحارب وكل فرد من افراد الامة الالمانية يعلم النقطة العسكرية التي هو تابع لها وعليه ان يقدم نفسه بعد الطلب باربع وعشرين ساعة . وعقاب التخلف عن الحضور شديد حتى في زمن السلم . اما في زمن الحرب اواعلان الاحكام العرفية فالشدة تبلغ اقصاها . وقد اقيمت هذه النقطة العسكرية في مواضع تستطيع منها نقل المجندين والمؤن والادوات الى مراكز التعبئة العامة بغاية السرعة . وهذه المراكز واقعة على ملتقى الخطوط الحديدية بحيث يستطاع توجيه الجنود المحشودة فيها الى الجهات المطلوبة بدون ادنى تأخير او ارتباك . وسأبين طريقة ذلك عند ما انتقل الى الكلام عن وسائل النقل

ويوجد في كل نقطة من النقط العسكرية مخازن للملابس والاسلحة فيها ما يكفي جميع الافراد الواردة اسماؤهم في الجدول . ولا يستطيع الانسان ان يتصور مبلغ السرعة في تحويل الرجل الملكي الى جندي يحمل

كل معداته الا اذا شاهد ذلك بعينه والذي يسهل كل ذلك المواظبة على التدريب والمناورات . وهذه المناورات تستلزم نفقة كثيرة غير ان دوائر الحرب الالمانية تعتقد ان الكفاءة في تدريب القواد وتمرينهم على قيادة العدد الكبير من الجند لاتتم الا بهذه المناورات .

وقد كان عدد الجيوش التي حشدت في المناورات الاخيرة التي اجراها الامبراطور ولهلم يزيد عن نصف مليون رجل نقلت من جانب الامبراطورية الى الجانب الآخر بدون ان يقع ادنى خطأ او اقل تأخير في نقلها .

ان قيادة الجيش في زمن الحرب والسلم هي بيد الامبراطور نفسه . فهو رأس الجيش وروحه وليس في الجيش اقل تأثير او عمل لاية هيأة سياسية او غيرها ولا يسمح لرجال الجندية بالانتساب الى احزاب سياسية وكل مايطلب منهم الطاعة والكفاءة

ولا يرى في الجيش الالماني شيء من التحاسد او الدسائس السياسية التي تشبه مارأيناه في الجيش الروسي في الشرق او في فرنسا حديثا وذلك لان الامبراطور ينزل هو راعي تشبه حالا — وقد جرى ذلك فعلا — على اي قائد يحوم اقل شك حول سلوكه ولا سبيل للشكوى من قرار الامبراطور الى مجلس او اي نادٍ من الاندية السياسية وآخر ما اذكره عن النظام وهو اقل شأناً مما تقدم مسألة النظام من الوجهة المالية . ان المانيا اخذت من فرنسا غرامة حربية قدرها ٥ مليارات فرنك وذلك في عام ١٨٧١ فحجزت من هذا المبلغ ٢٠٠ مليون مارك قطعاً ذهبية خزنتها لاجل الحرب . وفي كل عام ينقل مبلغ ٦ ملايين مارك من معامل ضرب النقود الالمانية الى حيث خزن ذلك المبلغ الكبير فتضاف اليه . وجميع هذه الاموال مخزونة في سرداب عظيم في حصن يوليوس تورم بالقرب من سبانداو ويبلغ ماهو مخزون الآن هناك ٥٠٠ مليون مارك او ٢٥ مليون جنيه من القطع الذهبية وهذا المبلغ يكفي الجيش الالماني سنة كاملة . وبناء على ذلك لا يضطر رجال السلطة الى استشارة رجال المالية او مجلس النواب اذا ارادوا الدخول في حرب فان لديهم المال والرجال واذا احتاجوا الى زيادة بعد نشوب الحرب فلا يصعب عليهم

الحصول على مايحتاجون اليه

وهذه الاموال كلها في قبضة السلطة العسكرية . وقد قال كثيرون ان حكاية هذه الاموال حكاية خرافية غير اني اعلم حق العلم انها حقيقية واعلم كذلك ان هذا المال لا يمس مطلقاً لغير الغرض الذي حفظ له مهما تكن حاجة البلاد اليه شديدة . فالمال هناك مخزون لاجل الحرب ولايخرج من مخزنه الا للحرب . ولا حاجة لاقول ان مخزن هذه الاموال يحيط به الحراس من كل جانب ومن ضمن طرق الاحتفاظ به ان هناك ثلاث نقط عسكرية حوله وطرقا فنية لاغراق كل ما يحيط بالمخزن الى عمق ١٥ قدما بمياه نهر الهافل .

والامبراطور يتعهد هذا الكنز مرة او مرتين في العام اما بنفسه او قد ينوب عنه ولي عهده . وهناك آلة عجيبة لوزن المال الذي فيه والتحقق من صحته وهذه الآلة يتمكنون بها ان يزنوا المبلغ كله في مدة ساعتين بدرجة من الدقة لا يضيع معها قطعة واحدة من النقود الذهبية .

معدات النقل

ان مسألة معدات النقل هي من اهم اجزاء الجيش الالماني والاستعداد في امر النقل من اهم ماتحتاج اليه الجيوش وقد كان الفضل في انتصار هانيبال في حروبه ونابوليون في حروبه في اواسط اوروبا بالوسائل النقل التي كانت لدى جيوشها وتمكنها من التحرك بسرعة زائدة . واذا كان الامر كذلك في الحروب القديمة فان لوسائل النقل في الحروب الحديثة اهمية تزيد عشرة اضعاف عن اهميتها في الازمنة الماضية ولو احصينا معدات التسليح بجميع دول اوروبا كلها متساوية في هذا الامر لاتمتاز الواحدة منها عن الاخرى بكثير كذلك اذا نظرنا الى الجنود من حيث الشجاعة الشخصية وماشبه ذلك نراهم متساوين ونرى الفرق قليلا جداً في الكفاءة العسكرية بين الجندي الفرنسوي والروسي والانكليزي والالماني وهذا امر مشهور لدى جميع الخبيرين في الامور العسكرية والفرق كله في النظام والدربة والاستعداد واهم مافي ذلك المقدرة على نقل قوة كبيرة من موضع الى اخر باقصر ما يمكن من الوقت والهجوم بها على العدو في اية جهة بدون ان تنهك في سبيل ذلك قوى الرجال والحيوانات وبدون ان تخرب البلاد

التي يمرون بها . وهذا يقتضي وجود وسائل عديدة للنقل والحركة . وهذا سيقودنا الى البحث في مسألة التموين ونقل الزاد فان المانيا تتبع في هذا الامر احدى القواعد التي وضعها مولتكي وملخصها وجوب السير افراداً والهجوم جماعة

ولا يمكن الوصول الى طريقة منظمة مثل طريقة الحكومة الالمانية في امر النقل وتحريك الجيوش الا في بلاد كثيرة السكك الحديدية وكثيرة الطرق والمجاري توفرت فيها خطوط التلغراف ومحطات البريد التي هي للحكومة نفسها وتحت ادارتها

ان كل ميل من خطوط السكك الحديدية في المانيا وعلى الاخص ما انشيء منها في العشرين سنة الاخيرة قد انشيء خصيصاً لغايات عسكرية وعلى وضع يوافق احتياجات الجيش

ولو اتخذنا برلين قاعدة للبحث ونظرنا الى خريطة من خرائط السكك الحديدية الالمانية نراها على شكل بيت العنكبوت فالخطوط تمتد من برلين الى الحدود الفرنساوية غرباً والروسية شرقاً . وكل هذه الخطوط ليست منفردة او مزدوجة بل ثلاثية ورباعية وهي تتصل بخطوط اخرى حربية تقود الى مواقع عسكرية مثل مجدبورج وهاوفر ونورهوسن وكاسل وفرنكفورت وكولان وستراسبورج ولا نذكر غير هذه والبلدان التي تماثلها جميعها نقط عسكرية فيها حاميات وترسانات ومخازن حربية كبرى

وفي كل بلدة من البلدان الالمانية التي تعد نقطاً حربية عدد كبير من مركبات السكة الحديدية والقاطرات وغيرها مودعة خصيصاً لاجل الاحتياجات العسكرية والقاطرات تظل في بعض الاحيان — كما حصل في اثناء الازمة المغربية — موقدة ومستعدة للسير

ومعظم موظفي السكك الحديدية هم — كما تقدم الكلام — من الجنود السابقين — واذا وقع الامبراطور امر التعبئة لا تمضي خمس دقائق حتى تصبح كل الخطوط الحديدية تحت ادارة السلطة العسكرية ويتولى ادارتها افراد من اهالي اركان حرب الجيش الالماني الخبيرين في هذه الامور

ويوجد عدا ذلك في الجيش الالماني فيلق كامل لاعمال السكك الحديدية جميع

افراده من الرجال المدربين على طرق انشاء السكك الحديدية ومن الميكانيكيين الماهرين.

ولدى المانيا جداول وغيرها من الاوراق المطبوعة كلها معدة في زمن السلم لتحل محل الجداول الاعتيادية في محطات السكك الحديدية وجميع هذه الجداول تراجع ويجرب السير بموجبها مرة او مرتين في العام اثناء المناورات الحربية

وما يقال عن السكك الحديدية يقال عن الطرق الاخرى ومجاري المياه. والذي يطوف في المانيا يعجب كثيراً من اتساع طرقها وبقائها دائماً على حالة جيدة من الاصلاح بالنسبة لكثرة المرور عليها. والحقيقة هي ان هذه الطرق كلها حربية تحافظ الحكومة عليها وتعتني بها لتكون دائماً صالحة للاعمال الحربية

ويقيم رئيس فيلق الترحيلات وزميله رئيس فيلق السكة الحديدية في برلين وامام كل منهما خرائط مفصلة لطرق المانيا وسككها الحديدية

ومن هناك يصدران اوامرهما ويحر كان معدات نقل الجيوش من اقصى البلاد الى اقصاها.

ولكي يدرك القارئ دقة هذا النظام اروي حادثة واحدة على سبيل المثال:

في اثناء المناورات منذ بضع سنوات كنت في مركز رئاسة الجيش في برلين وبينما انا هناك دخل احد ضباط اركان الحرب العام الى غرفة الاشارات وسأل عن موضع وجود قطار كان ينقل فرقة من الجند الى موقع من مواقع المناورة فحرك احد العمال بعض الآلات وفي مدة دقيقتين ونصف دقيقة «وقد امسكت الساعة لاري الوقت لشدة اعجابي بالامر» استطاع ذلك العامل ان يخبر عن نقطة وجود القطار بالتمام بين محطتين من المحطات التي تبعد عن برلين ٣١٠ اميال.

وكما ان جميع البواخر الالمانية وخصوصاً البواخر الكبيرة التي تخص شركات الملاحة التي تنقل الركاب للحكومة الحق باخذها واستعمالها في زمن الحرب كذلك كل مركبة او سيارة في البلاد سواء كانت ملك الافراد او الشركات للحكومة الحق التام بحجزها اذا رأت انها في حاجة اليها.

وبهذا النظام المتقن تستطيع المانيا ان تنقل مليون جندي بعددها وكل ماتحتاج اليه

الى اية جزء في مدة ٤٨ ساعة وتستطيع ان تضاعف هذا العدد في مدة ٦٠ ساعة اخرى

المؤونة

لقد كان نابوليون يقول ان المعدة المملوءة هي اهم ما يلزم الجيش في زحفه وهذا قول صحيح ينطبق على الزمان كما كان في ايام الامبراطور الفاتح العظيم . فان ايجاد المؤن الكافية للرجال والحيوانات هي أول ماتحتاج اليه الجيوش .

ان تموين جيش مؤلف من ثلاثة ارباع المليون عمل شاق جداً في زمن السلم فكيف به في زمن الحرب فانه يصبح عقدة العقد وعلى الاخص في بلاد مثل المانيا تعتمد على الواردات الخارجية في تغذية ملايينها العديدة . ولما كان رجال السلطة يقدرون الحصر البحري . ومنع ورود الاشياء من الخارج الى بلادهم فقد اتخذوا لهذا الامر عدته . فانلديهم دائما في المخازن الحربية ما يكفي الجيش الالماني باكله مدة اثني عشر شهراً وقد يظن ان هذا لا يكفي غير ان الامر ليس كذلك فان رجال السلطة يعلمون ان الحروب في اوربا في هذا الزمان لا تدوم اكثر من سنة

ومخازن المؤن في المانيا تجرد مرة في العام ويستبدل ماتطرق اليه الفساد باصناف جديدة . وتباع الالوف من علب اللحوم المحفوظة وسواها بابخس الاثمان لفقراء الامة وعلى الاخص للمزارعين . وكذلك احتياجات الجيش تؤخذ بقدر الامكان من الفلاح الالماني رأساً بدون وسيط والذي يعلم الاحوال في البلاد الاخرى يسر كثيراً عند مايرى انه لا وجود لطبقة المتوسطين النهابين في المانيا [illegible]

ثم ان الجيش الالماني معد للمهاجمة لا للدفاع وفي هذه الحالة يرجح ان الوقائع الفاصلة تقع في بلاد خصمه لا في بلاده . فمؤونة الجيش تؤخذ من العدو في هذه الحالة بالطريقة التي يسمونها في الاصطلاح الحربي « طلبات وضرائب حربية » وليس رجال الجيش الالماني في اتقان هذا الامر اقل كفاءة من رجال الجيش البريطاني الذين شهدت بنفسي اعمالهم من هذا القبيل اثناء حرب الترانسفال

واني اضرب مثالا واحداً يدل على حسن استعداد ادارة التموين في المانيا . ان

هنالك ما يسمونه « اربسورست » وهو مزيج من لحم الخنزير والبازلا والخبز مضغوط داخل انبوب صغير ثقل الواحد ربع رطل وهو لذيذ الطعم كثير الغذاء يزودبه الجنود ولا يحتاجون في اعداده الى غير قليل من الماء ويوجد من هذا النوع مقادير كبيرة في المخازن معدة لاحتياجات الجيش

ادارة المخابرات

ان اهم اقسام ادارة اركان حرب الجيش الالماني العام هي بلا ريب ادارة المخابرات الحربية وهي محور حركات الجيش الالماني باسره ويدخل ضمنها فروع عديدة مثل الفنون العامة وعلى الاخص فن الاستحكامات والطوبوغرافية وغيرها الا ان اهم اعمالها الحصول على الاخبار والرسوم والخرائط وغير ذلك مما تحفظه الدول الاخرى من الاسرار واذكى ضباط الجيش الالماني وامهر الموظفين هم في هذا الفرع من فروع الجيش ويطلب من موظفي هذه الادارة ان يكونوا حائزين على علوم وفنون عديدة وقد يضطر الواحد منهم ان يصرف حياته كلها في الدرس لاتقان فرع واحد من هذه الفروع العلمية المطلوبة.

وسياسة السلطة العسكرية البروسية التي لا تكل ولا تتوانى هي ان يعرفوا من اخبار الامم الاخرى بقدر ما يعرفون من اخبار المانيا نفسها

ولما وقعت الحرب عام ١٨٧٠ بينهم وبين فرنسا كان لدى كل ضابط من الضباط البروسيين حتى اصحاب الرتب الصغيرة منهم خرائط ومعلومات عن كل مقاطعات فرنسا ومدنها وطرقها. او بعبارة اخرى كانوا يعلمون عن بلاد فرنسا اكثر ما يعلم الفرنسويون انفسهم. فانه من المشهور ان الفرنسويين فقدوا بعد انكسار جيوشهم في ويزنبرج وورث ثم في متز مواقع حربية عظيمة بسبب جهل قوادهم البلاد التي كانوا يحاربون فيها وهي بلادهم. وامر كهذا لا يمكن وقوعه في المانيا. ولا يوجد اليوم بلد في العالم ليس لدى رئاسة اركان حرب الجيش الالماني خرائط مفصلة عنه وعن كل ما فيه على غاية من الدقة والصحة. وهذا مما يوجد لدى رئاسة اركان الحرب في كل دولة غير انه ليس على غاية الدقة والضبط كما هو لدى المانيا

واذكر اني لما كنت اتلقى الدروس التي تلقيتها في ادارة المخابرات في بدء دخولي

في خدمة المانيا وقع خلاف بين الضابط الذي كان يدرسني وبيني بشأن المسافة التي بين بلدتين واقعتين على شاطئ لنكولنشير في انكلترا فضغط الضابط على زر الجرس وطلب من الخادم ان يأتيه بالخارطة نمرة ٦٤ والضابط المسؤول عنها. فجاء الضابط المذكور وهو لا يتجاوز العشرين من العمر وجلس يناقشني بلغة انكليزية فصحى عن كل اجزاء ذلك الشاطىء فوجدت انه لا يوجد طريق او منزل مزارع او دكان حداد لا يعرفه في طول تلك البلاد وعرضها فاظهرت دهشتي من ذلك وقلت اني اعتقد انه لا بد من ان يكون سكن تلك البلاد زمناً طويلاً حتى عرفها والقارىء يستطيع ان يدرك ما تولاني من الدهشة عندما علمت انه لم يبرح المانيا في حياته ولم يسافر الى ابعد من هليجولند على اني علمت بعد ذلك ان بلاد فرنسا وانكلترا وروسيا مقسمة الى اقسام كل قسم منها بعهدة ضابطين وسكرتير وواجب هؤلاء ان يدرسوا تلك البلاد درساً دقيقاً بحيث يعرفون كل موضع فيها. وهم يستطيعون بمعاونة جواسيسهم ان يعرفوا كل ما فيها وكل ما يتعلق بها من المعلومات الوافية الى احدث تاريخ وقد جلست مرة بعد عودتي من مهمة اوفدت فيها تشبه مهمتي الى قاعدة روزيث البحرية ساعات طويلة اخبر الضابط المسؤول عن الجهة التي كنت فيها بكل ما فيها من التغييرات الحديثة

وهناك فرع من ادارة المخابرات اسمه فرع الشخصيات وواجبات افراده ان يعرفوا كل شيء عن شخصية كل ضابط بري او بحري من ضباط الدول الاخرى. وقد رأيت تقارير مطولة عن عوائد واخلاق كثيرين وسجاياهم والالعاب التي هم مولعون بها من الاميرال فيشر الى اصغر قائد قواد المدفعية في تولوز وفائدة هذه الامور يدركها الخبيرون في الامور الحربية بالبداهة اما القارىء الاعتيادي فقد لا يدرك اهميتها تماماً.

ان موقف القائد العظيم في ساحة القتال لا يختلف كثيراً عن موقف رئيس العمل في مخزن كبير. فاذا كان يعرف اخلاق زبائنه بعض المعرفة فان ذلك يفيده بلا ريب فائدة كبيرة ويجعله يتفوق على المخازن الاخرى التي لا يعرف مديروها اخلاق وعوائد الزبائن فالسلطة العسكرية الالمانية

تعلم فائدة هذا الامر وتدركها ولذلك تعني بها كثيراً

في الهواء

ظهر في السنوات الاخيرة عامل جديد هو في نظر الالمان عظيم التأثير وقد احدث خللا في توازن قوات الدول الاوربية وهذا العامل هو فن « الطيران »

ان المانيا منذ عهد اوتو ليلينثال واختراعه جعلت دأبها تتبع خطوات جميع الاختراعات التي قد يجوز ادخالها في آلة الحرب » ويعود استعمالها بفائدة . وان الفرق بعيد بين اختراع ليلينثال وآخر مبتكرات الطيران العجيبة مثل زبلين وبرسيفال وغرابة هذه الآلات التي تحمل ٢٥ رجلا و١٢ طناً من المفرقعات وتجتاز في طيرانها الابعاد الشاسعة مثل عبور بحر الشمال والوصول الى لندن والتحليق فوقها ثم العودة الى برلين

ان آلة ليلينثال ما كانت لتستطيع الطيران اكثر من بضع دقائق على ان هذا الدردنوط الهوائي العظيم بقي في الجو ٩٦ ساعة وظل محافظاً على قوة سيره على معدل ٣٨ ميلا في الساعة وذلك وسط عاصفة تزيد معدل قوتها عن ٨٠ ميلا في الساعة وهذا امر غريب جدير بالاعجاب

وهذه الاختراعات يعود الفضل بها لحسن ادارة وتقدم هذا الفرع في آلة الحرب الالمانية وهي في الوقت نفسه سبب تقدمه وارتقائه

وسأحاول هنا ان ابين للقاريء الى اية درجة وصلت المانيا في جهادها لامتلاك اعنة الهواء والتفوق على سواها واحراز السيادة المطلقة فيه . ولذلك سأذكر حقائق لم تطبع قبل الان ولم يسمع بها في حديث ولا يعلم بها الا رجال اركان حرب الجيش الالماني

لاريب في ان لدى المانيا احدث الاساطيل الهوائية في العالم واعظمها كما وقد جاء في ميزانية الرشستاغ عام ١٩٠٨ الى ١٩٠٩ اعتماد خاص لبناء ١٢ مركباً من طراز « زبلين » والذي يعرفه العالم رسميا ان هذا كل مالدى المانيا من اساطيل الهواء الا ان الحقيقة هي ان المانيا عندها ثلاثة اضعاف العدد الذي تعترف به رسميا وذلك على اقل تقدير

اما محطات المراكب الهوائية فهي خمسة وكلها في مواقع خطيرة جداً من الوجهة الحربية فان منها اثنين على الحدود

الفرنسوية وواحدة على الحدود الروسية وواحدة على شاطي الاطلانتيكي والخامسة وهي المحطة العامة بالقرب من برلين

واسماء هذه النقط حيث المحطات هي ستراسبورج وفرنكفورت على نهر المان وبوزن وولهامسهافن ثم برلين . وهذا عدا عن المحطة العظيمة التي في جزيرة هليجولاند في البحر الشمالي وهي محطة حربية عظيمة فيما يتعلق ببريطانيا العظمى ولا يعلم شيء حقيقي عن هذه المحطة التي في هليجولاند ولا يسمح لاحد الا الموظفين فيها بالاقتراب الى اكثر من الف يرد منها . على اني سأروي بعض الشيء عنها

ويوجد عدا هذه المحطات الحربية البحتة محطات عديدة تجارية لازمة كمخازن لخطوط الهواء التي تعمل لاستعمال العموم والحال في هذه كما هو عليه فيما يتعلق بالبواخر التجارية الالمانية فانها كلها ترقبها الحكومة وتمدها بالمال . فاذا اعتبرنا هذه الخطوط نستطيع ان نقول — بدون ان نخشى الوقوع في الخطأ — ان المانيا تستطيع ان تجرد لا اقل من ٥٠ مركبا كبيرا الى ساحة القتال في الهواء

وقد يعجب القاريء من اقدام المانيا على انفاق مليون جنيه على اسطولها الهوائي مع ما تراه من الاخطار والعوارض والحوادث التي تقع لمراكب زبلين هذه . وهذا يحملنا ننتقل الى نقطة عظيمة الاهمية

اني اعلم كما يعلم بعض رجال اركان الحرب العام وبعض المؤتمنين على اسرار الفرع الهوائي ان المراكب الهوائية في المانيا تسير على نوعين . الواحد هو المعروف والذي تسير عليه خطوط المراكب الهوائية التي تنقل الركاب في جهات الامبراطورية وهو الذي تقع فيه اكثر الاخطار والحوادث التي يأتي ذكرها في الصحف — ثم ان المراكب العسكرية التي تستعمل للطيران في الاستعراضات وغيرها كلها تسير على نظام المراكب الهوائية التجارية وذلك بقصد معروف

اما نوع الطيران الثاني فهذا سر لا يعرفه الا رجال اركان الحرب العام ولا يستعمل في الاستعراضات ولا يجرب الا سرا وقد اتضح ان هذه الخطة السرية تنقص معدل الاخطار التي تقع في المانيا باكثر من ٧٥ في المائة . وهذه الاحصاءات لا يعلم بها

الا ادارة اركان حرب الجيش الالماني

ولنتوسع في هذا البحث اكثر فنقول ان الذين ينتقدون المراكب الهوائية الالمانية ويعدون الفرنسوية افضل منها يبنون ذلك على ثلاث نقط ينتقدونها في الالمانية وهي انها اكبر حجما واثقل وزنا وان الغاز الذي يرفعها قابل للالتهاب ولا يمكن خزن المقدار الكافي منه للبقاء في الهواء الا الوقت المطلوب بدون ان تضطر الى النزول . على ان الوسائل السرية التي اتخذتها وزارة الحرب الالمانية تزيل كل هذه الاعتراضات فانهم تغلبوا على كبر الحجم والثقل باختراع تركيب مادة اخف كثيرا من الاليومنيوم. بها كل خواص ذلك المعدن ومتانة الفولاذ. وجميع المراكب الهوائية الالمانية — عدا عن الاثني عشر مركبا التي تعترف الحكومة رسميا بوجودها — قد صنعت كلها من هذه المادة

وتركيب هذه المادة سر من اسرار الحكومة الالمانية . لاريب ان انكلترا وفرنسا تدفعان الالوف من الجنيهات لمعرفته وامتلاكه

كذلك قد تغلبوا على أمر قابلية المادة المحركة الرافعة للالتهاب فضوعفت قوة غاز الهيدروجين الاعتيادي ثلاث مرات وذلك بواسطة الديكسوجين الجديد الذي اخترع في معامل الحكومة الكيماوية في سباندار . ولهذا الغاز الجديد جميع مزايا الغاز القديم ويفضله بعدم قابليته للالتهاب. وقد شهدت بنفسي بعض تجاربه فهو لا يمكن اشتعاله للنور .

على ان المراكب الهوائية المسيرة به ليست معرضة لاخطار الانفجار التي اشتهرت وكثر وقوعها . ولهذا الغاز مزية اخرى وهو انه سائل والغاز يتولد لمجرد تعريض هذا السائل للهواء . وهو يوضع في اسطوانات طول الواحدة منها قدمان وقطرها ست بوصات ومن البديهي ان بالامكان حمل مقادير كبيرة من هذه في المراكب الهوائية الكبرى فيسهل تجديد الغاز والمركب معلق في الهواء

فيتضح للقارىء مما تقدم ان وزارة الحرب الالمانية قد تغلبت على الصعوبات المعروفة.

وقد استطاع المركب الهوائي الذي جربته وزارة الحربية في سنة ١٩١٢ ان يطير

من « ستاتين » فوق البلطيق حتى « اسبالا » في اسوج ثم من هنالك فوق البلطيق الى « ريجا » في خليج فنلندا ثم عاد من هنالك الى « ستاتين » وهذه سفرة يبلغ طولها ٩٧٦ ميلا . وكان هذا المركب يقل ٢٥ رجلا و ٥ اطنانات اخرى وكان سفره في طقس متقلب في شهر مارس والعواصف شديدة والبرد والامطار والثلوج تتساقط بشدة . وتدرك اهمية هذه الرحلة اذا علم القارىء ان المسافة من ستراسبورج أو دسلدوروف الى باريز وغيرها من نقط فرنسا الحربية لا تتجاوز ٢٩٨ ميلا . وعلى ذلك فان مركبا من طراز زبلين يستطيع ان يسافر الى فرنسا ويلقي القنابل على حصون باريز ثم يعود والمسافة كلها لا تتجاوز ٩٠٠ ميل او ٧٦ ميلا اقل من المسافة التي اجتازها في رحلته المار ذكرها

وعدا ذلك فقد اظهرت التجارب ان المراكب الهوائية الالمانية تستطيع ان تطير من محطاتها وتمر فوق البلاد الاجنبية ثم تعود سالمة بدون ان تضطر لان تجدد غازها او وقودها

واني اري القارىء الآن كيف يؤلف فيلق المانيا الهوائي . فهذا اسمه « لفتشيفر ابتيلونج » ويؤلف من عشر فرق عدد رجال كل منها ٣٥٠ رجلا . وجميع هؤلاء متمرنون تمرينا خاصا على الاعمال التي تقتضيها الخدمة في هذا الفرع من فروع الجيش وهم نخبة الميكانيكيين واصحاب الحرف ولا يقبل في هذا الفرع سواهم . ويتولى القيادة في الفروع العالية امهر الضباط واشدهم ذكاء واكثرهم جرأة .

اما الرواتب التي تعطى لهم فهي بالنسبة لرواتب رجال الجندية في الامم الاخرى عالية جداً . ورواتب رجال الطيران في الجيش الالماني اضخم رواتب الجيش كله . وهم لا يخدمون كرجال فروع الجيش الاخرى لمدد معينة اي المدة القانونية وهي سنتان . بل اكثرهم قد ارتبطوا بعقود لآجال طويلة على ان الحكومة لا تشجع المتزوجين على الارتباط بخدمة فيلق الطيران اجلا طويلا لان نوع العمل يجعل المخاطر كثيرة .

وقد استعمل نظام آلة الحرب الالمانية بكل دقة في فرع الطيران فان استعداد المحطات العديدة عجيب في كماله وذلك لان كل ما أوجده عقل الانسان

عماله علاقة بالطيران اوالمراكب الهوائية على انواعها قد جمع فيها . وكل محطة مستعدة تمام الاستعداد ومستقلة بنفسها كموقع رئيسي . خذ مثلا قاعدة هليجولاند وهي أحدث المحطات والممتازة بان كل مافيها تحت ستار كثيف من التكتم

يرى المشرف على هليجولاند ثلاثة ابنية حديثة غبراء اللون مستطيلة الشكل كبيرة الحجم في منتهى الزاوية الشرقية من الجزيرة . والناظر اليها من بعيد يراها لاتختلف كثيراً عن مستودعات الغاز الكبيرة — اقول الناظر عن بعد لانه كما تقدم لايسمح لاحد بالاقتراب الى اكثر من الف يرد منها . وتحرس الطريق اليها ثلاث « نقط » من جنود الحرس البحري

فاذا سار الانسان نحو المحطة يجد قبل وصوله الى نقطة الحرس بمئة يرد لوحاً كبيراً كتب عليه بكل وضوح ان الويل لمن يتجرأ على الدنو الى ما بعدها . وهذا لايشمل الانكليز أو الاجانب فقط بل الالمانيين ايضاً على اني سأقترب بالقارىء الى مابعد الحد المفروض

وعند مايتقدم الانسان الى بعد ٥٠ يرداً من المباني الحديدية يعترضه سور من الاسلاك الشائكة وهذه الاسلاك تتصل باسلاك تحرك سلسلة من الاجراس المتصلة في غرف الحراس وعلى ذلك فاذا تجرأ جاسوس فرنسوي مثلا ان يزحف الى قرب المحطة فاذا كان ذلك ليلا ولمس هذه الاسلاك الشائكة لايلبث ان يسمع صوت الاجراس المؤذنة بوجوده فيخف الحراس لاستقباله ثم ان بعد هذه الاسلاك التي يوجد منها ستة خطوط يجد القادم نفسه امام برج عال مضلع الشكل وفي هذا البرج الاتان قويتان لانوار الاستكشاف وآلة للتلغراف اللاسلكي .

ومن المعلوم ان كل مراكب تزبلين تحمل آلات لاسلكية

فالآلات التي في الابراج تستطيع ان تنير تلك الجهة وتجعل الليل نهاراً . وبذلك تستطيع تلك المراكب الهوائية ان تطير في كل ساعة من ساعات الليل او النهار

والمخازن الثلاثة المذكورة هي على صف واحد واكبرها في الوسط وداخله مركبان كاملان اما الاثنان الاخران فان في كل منهما واحداً فقط وطول المخزن من هذه

المخازن ٨٠٠ قدم وعرضه ٢٠٠ وعلوه ١٢٠ قدما وهذه المخازن يمكن تحريكها بكل سهولة وذلك لانها قائمة على شكل «طبلية» السكك الحديدية والقصد منه ان يكون بالامكان تحويل اتجاه ابواب المخازن بحسب هبوب الرياح

ويدل وضع هذه المخازن والارض الفضاء المتروكة حولها ان في نية الحكومة تكبير هذه المحطة وزيادة قوتها وقد شهدت بعيني عند زيارتي هليجولاند منذ سنتين انه قد شرع ببناء مخزن رابع

ويوجد في هذه المحطة مرصد من اكمل المراصد به جميع الآلات الحديثة لاخذ الارصاد الجوية وحالة الطقس والهواء ويوجد من كل نوع من الآلات اثنان ويعمل في هذا المرصد اشهر رجال هذا الفن في المانيا

وقد لحظت عند ما كنت في هليجولاند فرقا كبيرا في قوة الحصون عما كانت عليه من قبل فانها كانت عظيمة هائلة اما بعد انشاء القاعدة البحرية فانها اصبحت في الدرجة الثانية. وقد نقل نصف الجنود الذين كانوا هناك الى جهات اخرى وكذلك المدافع الكبيرة. وذلك لانه لم تبق هناك حاجة لهم وقد شرع كما ذكرت فيما تقدم ببناء مخزن جديد للمراكب الهوائية ولم اذهب لتلك الجزيرة منذ سنتين. ولم يصل احد الى الجهة الشرقية منها في أي زمن من الازمان الا المعروفين لدى رجال الخدمة فاذا فرضنا ان المانيا لم تشيد سوى مخزن اخر فيكون مجموع ما لديها هناك اربعة مخازن داخلها خمسة مراكب هوائية من طراز تزبلين وهذه لا يقف في وجهها شيء ولذلك فقد اصبحت جزيرة هليجولند في مأمن لا تحتاج الى حصون او قلاع فان قلاعها الجديدة تطير في الجو وتمطر موتا.

***

ان جزيرة هليجولاند قد كانت دائما نقطة سوداء في تاريخ السياسة البريطانية فانها كانت في الماضي ملكا لانكلترا أما الان فقد اصبحت آلة لتهديد انكلترا

عند ما كان لورد سالزبوري رئيسا للوزارة ظن انه يعمل عملا سياسيا عظيما وان صفقته رابحة عند ما عرض جزيرة هليجولاند على بسمارك مقابل بعض الامتيازات في افريقيا الشرقية

اما الان فقد اصبحت هليجولانه

مفتاح طرق التجارة الالمانية وذلك لانها مفتاح ميناء هامبرج . ولما كانت هليجولاند امامها تحرسها فقد اصبحت هامبرج منيعة في حصن حصين لا تنال مطلقا . اما في شواطئ انكلترا الشمالية فانهم دائما ينظرون بعين القلق نحو هليجولاند وذلك لانه لا يعلم احد الا الله متى تتحرك تلك الاجسام الاسطوانية وتطير فوق البحر وقد حصلت امور اغرب من هذه حتى ولو كان بين [illegible] الفات سرية .

[illegible] ننتقل الى البحث في هذه المراكب [illegible] الجديدة فنأخذ واحداً منها وهو اقواها ويعرف باسم X ١٥

ان مناطيد زبلين الحديثة يستعمل فيها غاز الديوكسجين المكتشف حديثاً وهو يكسبها قوة للارتفاع تزيد عن قوتها المعتادة ثلاثة اضعاف ثم « موتور » دليل الحديد الذي يزيد قوة حركتها . « ويوجد ٥٠ « موتور » من هذا النوع وطريقة تشغيلها سر من اسرار وزارة الحرب الالمانية وهي موجودة في ولهلمسافن وكيال في مخازن يحرسها الجند وهي معدة للتركيب في النسافات والمناطيد وقد جعلت للمناطيد الالمانية اهمية لم يكن يحلم العالم بها من قبل

ان منطقة سير هذه المناطيد قد زادت من ٩٠٠ كيلو متر الى ١٢٠٠ و ١٤٠٠ كيلو متر وقد جربت مناطيد زبلين التي من طراز X ١٥ وهي تحمل ٢٤ راكبا و٦ مدافع سريعة الاطلاق فارتفعت فوق بحر البلطيق وفوق سفندبورج باسوج ثم عادت وعبرت جو البلطيق ونزلت في سوينموند وقد بقي فيها من الغاز والوقود والزاد ما يكفي لتبقى طائرة ٣٦ ساعة اخرى

وكانت المسافة التي اجتازتها في احدى هذه الرحلات ١١٨٠ كيلومتراً وهذا يكفي لاثبات كفاءتها والمسافة ذهابا وايابا الى لندن وغيرها من المدن التي في قلب انكلترا لا تزيد عن هذه المسافة فاذا نشبت حرب بين المانيا وانكلترا فلا حاجة للقول بما سيكون .

ولهذا السبب ذكرت ان مناطيد زبلين الحديثة هي من العوامل الخطيرة التي تقود الى حسن التفاهم بين البلادين

وقد علمت من اوثق المصادر ان مناطيد زبلين الحديثة تستطيع ان تحمل ٧ اطنان من المواد المنفجرة وضعف هذا المقدار

بدون ان يعيق ذلك سيرها وكل مازاد حجم هذه المناطيد زاد مقدار حمولتها

وليتصور الانسان الاضطراب الذي يحدثه مرور اثني عشر منطاداً من هذا النوع فوق لندن او باريز فان الاستعدادات الموجودة حالاً لمقاومة هذا الهجوم لا تفي بالمطلوب مطلقاً . فان منطاد زبلين عند هجومه على الاماكن الكبيرة يستطيع ان يرتفع الى علو ٦ او ٨ آلاف قدم ويبدو هذا المركب العجيب عن هذا العلو الشاهق بحجم كرة القدم لا اكثر مع ان طوله الحقيقي يبلغ ٧٠٠ قدم . واني اعلم علم اليقين ان مناطيد زبلين ارتفعت الى ما يزيد عن ١٠ الاف قدم . فليتصور ها القارىء على هذا العلو ومع ذلك فجميع الذين فيها يتمتعون بكل وسائل الراحة ويكون المنطاد على تمام الاستعداد لالقاء مواده القاتلة على من تحته

ويعتقد بعض قصار النظر الذين لا معرفة حقيقية لديهم — وهذا يذكرنا بان الجهل التام خير من المعرفة الناقصة — ان بعض الطيارات يستطيع ان يعطل المنطاد الذي من هذا النوع غير اني اطلب من القارىء ان يتخيل طياراً على علو ٦ الاف قدم ويتذكر ان المنطاد يعلو اكثر من ذلك بكثير فان الطيار يرتعش من البرد على هذا العلو ولا يقوى على شيء آخر سوى قيادة طيارته فكيف يستطيع ان يؤذي منطاداً كبيراً بحجم « زبلين » قد ارتفع عنه كثيراً فالطيار الذي ارتفع الى علو ٨ الاف متر يستطيع ان يخبر بما شعر به على ذلك الارتفاع الشاهق وماذا يستطيع ان يفعل رجل صعد الى هذا الارتفاع وهو يرتعش من البرد ضد الاشخاص الجالسين في غرف منطاد زبلين متمتعين بكل وسائل الراحة

ثم ان « زبلين » على ارتفاع ٨ الاف قدم وهو يتحرك بسرعة ٣٥ الى ٦٠ ميلاً في الساعة يكون هدفاً صغيراً فالامل باصابته بنيران القنابل ضعيف جداً هذا مع اغفال ما يفعله المنطاد ليلاً او يحتجب بالضباب الكثيف ثم ان رجال هذه المناطيد لا يحتاجون لان يحكموا الاصابة بل يكفي ان يطيروا فوق المدن ويلقوا المفرقعات السرية التي لا وجود لها الا عند الحكومة الالمانية وهي توقد النار في كل ما تقع عليه

ان الطيارات على كافة انواعها لا تفيد

في مقاتلة «زبلين» فرجال السلطة الالمانية قد جربوا كل شيء واني اعتقد ان استعداد هذه الحكومة من هذا الوجه كاف لايحتاج الى زيادة. وقد سمعت اقوال الطيارين والملاك فاني مقتنع تمام الاقتناع ان ليس هناك بين آلات الطيران ما يجب ان نحسب مناطيد «زبلين» له حسابا

الفصل الثاني عشر

(والاخير)

لا ريب ان خريطة اوروبا ستتبدل تبدلا ظاهرا في اثناء العشر السنوات القادمة وربما كان قبل ذلك بكثير. فان الاحوال الاجتماعية والاقتصادية. هذا اذا لم نحسب للاحوال السياسية ولمطامع الحكام اقل حساب. لا بد انها تقضي بتغيير قطعي في حدود حكومات اواسط اوروبا. وهذا سيتم اما بحرب او من غير حرب ولكن يرجح ان تراق في سبيله الدماء.

ان اكثر الدول قوة وعددا في اواسط اوروبا هي المانيا وعندما تقول المانيا تقصد كل الامم التي تتكلم اللغة الالمانية مثل المانيا نفسها والقسم الالماني في النمسا وهولاندا وسويسرا وكذلك على الارجح بعض الاسوجيين والنروجيين والدنمركيين: فان الروح التجارية والاجتماعية في هذه البلاد مع كل استقلالها لا تزال تظهر ميلا للقوة الالمانية الكبرى في وسط اوروبا

ان اوروبا كلها بوجه عام تقسم الى ثلاثة اقسام: العناصر التوتونية والعناصر اللاتينية والعناصر السلافية

وتختلف هذه الاقسام الثلاثة عن بعضها اختلافا مبينا في العادات والاراء والطباع والمطامع

واختلافهم في الجنس والدين يجعل بينهم اختلافا كبيرا في الرقي التجاري (ولا اقول الفنون والموسيقى لان في ذلك للاتيني والسلافي بعض السبق) فالعنصر التوتوني قد فاق العنصرين الاخرين

واذا طرحنا اميال العائلات الحاكمة جانبا نجد ان معظم الشعب في بلجيكا وهولاندا والدانمرك وسويسرا يميل ميلا صحيحا ان يصبح مندمجا في سلك الامبراطورية الاوربية الكبيرة التي ايجادها هو كل ما يطمع اليه آل هوهنزلورن

فان هذا البيت اظهر منذ عهد

الكونت نورمبرج الى فردريك الكبير الى الامبراطور الحالي انه اقوى البيوت المالكة في العصور الحديثة وقد امتاز الخلفاء افراده بان اوجد لهم رجالا من النوابغ يعينونهم في اعمالهم وفي تنفيذ مآربهم السياسية

ان الشعوب التوتونية والالمانية تتمتع بحرية تامة لتنتقد اعمال حكوماتها بفلسفة وتدقيق غير ان هنالك في قلوب الجميع اساساً متيناً لتقدير الحقائق ومعرفة اوجه المنفعة . فالاشتراكي الالماني يختلف كثيراً عن زميله في المبدأ في البلدان الاخرى

وقد ادرك حكام المانيا ان توطيد دعائم الملك وثبات العرش متوقفان على اسعاد الشعب وقد سعوا الى بلوغ تلك الغاية فلا يستطيع احد ان ينكر انهم نجحوا في ذلك نجاحا لم تتوفق اليه عائلة مالكة من قبلهم [illegible] المانيا بلا ريب اكثر بلاد [illegible] ونجاحا وارتقاء ومدنية

وهذا الامر هو مبعث الخطر لان الاعمال الناجحة لا تستطيع ان تبقى ساكنة ولا يستطيع شعب قوي مجتهد كالشعب الالماني ان يتوانى في ارتقائه .

ولذلك فلا بد من حصول احد امرين في المستقبل القريب وهما اما ان المانيا توسع املاكها بطرق سلمية الى الشمال الشرقي والى الغرب من اوروبا او ان الحرب واقعة لا محالة . وقد اوضحت اسباب ذلك في الفصل الذي موضوعه «البلقان وحياد اوربا»

والقارىء المدقق الذي يراقب مجرى الاحوال لا يخفى عليه ان الامال بالسلم اقل من القليل وان رجال المانيا لا يميلون الى ذلك فان شعبا مقتصداً مثل الشعب الالماني لا ينفق القناطير المقنطرة من المال ويضيع وقته الثمين في تحسين آلات الحرب ومعدات الجهاد لو لم يكن عالما ان ذلك من الامور اللازمة له وان لا غنى له عنها فما دامت المانيا بقوتها وغناها واستعدادها الحالي فالخوف شديد ولهذا السبب اقول انه لا بد من ان يحصل تغيير كبير في اوربا

ان هذا التغيير لا ريب في وقوعه غير انه يصعب معرفة الوقت الذي يقع فيه فقد يكون ذلك غداً ولكن لا شك انه لا تمر عشر سنوات بدون وقوعه فان وفاة الامبراطور فرنسوى جوزيف تقرب الوقت لا بل تحدث ذلك التغيير حالا

ثم ان هناك امرا آخر وهو المسألة

الكنيسة فان الكنيسة الكاثوليكية تعد الامبراطورية النمسوية اعظم حماتها فاذا توفي الامبراطور فرنسوى جوزيف فسيضطر الشعب الكاثوليكي ان ينظر الى حكومة اخرى كاثوليكية قوية تأخذ بناصره . فاذا بحثنا نرى انه لا يوجد الان ملك كاثوليكي يحكم بلاداً كاثوليكية .

اما امبراطور المانيا فهو بروتستاني غير انه قبل كل شيء مسيحي وبفضل حسن سياسته [illegible] عقيدته اصبحت الاختلافات [illegible] بلاده لا وجود لها. والكاثوليك [illegible] دينية لا يتمتعون بمثلها في بلاد اخرى في العالم ماعدا الولايات المتحدة كذلك علاقة الامبراطور مع الفاتيكان فانها حسنة جداً ويتذكر القاريء انه يزور ملك ايطاليا سنويا وفي كل مرة يزور الفاتيكان ويقدم احترامه بصفته حاكما على ٢٧ مليون كاثوليكي الى البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية

وكما ان المانيا قد اتخذت لها حكومة محايدة في الجنوب وهي تركيا كذلك قد اتبعت نفس السياسة في الشمال الاقصى فان اسوج ونروج اللتين لم تكونا في زمن من الازمان على وداد مع المسكوب — ويكفي ان يذكر القاريء ايام شارل الثاني عشر قد انبرتا في الزمن الاخير روح عداء شديدة نحو روسيا. وشعوب هاتين البلادين يغارون على وطنهم ويتمتعون باستقلالهم ولا يقبلون على اية حالة من الحالات الانضمام الى حكومة اخرى او الاندماج فيها. وهم يعلمون ان المانيا لا تطمع ببلادهم ويعلمون كذلك ان روسيا لو تيسر لها ما تريد وواتت يدها فهي تطمع في السيادة عليهم وضم بلادهم اليها لذلك فهم يتوددون الى المانيا ويعتمدون عليها في المحافظة على الاستقلال. واسوج ونروج تستطيعان بمساعدة المانيا ان تحشدا ٧٥٠ الف مقاتل في ميدان القتال على حدود روسيا

ثم ان لآل هوهنزلرن عدا السلطان السياسي سلطانا شخصيا آخر واسع النطاق وذلك بسبب ثروتهم الكبيرة وعلاقاتهم الزوجية فان ولدي الامبراطور قد تزوجا من اميرتين هما من اغنى اميرات اوربا ذلك عدا ما للامبراطور من الاموال الطائلة التي يشغلها في اعمال عظيمة تكسبه نفوذاً كبيراً فوق نفوذه في الشؤون التجارية

والنتيجة هي ان ولهلم بيده الصاعقة التي تهز العالم